تهامة TIHAMA
الكتاب العربي السعودي ٥٢

عبدالله عبدالغني خياط

تأملات في دروب الحق والباطل

بسم الله الرحمن الرحيم

الناشر
تهامة
جدة - المملكة العربية السعودية
ص.ب ٥٤٥٥ - هاتف ٦٤٤٤٤٤٤

تأملات
في
دروس الحق والباطل

مُقَـدِّمة

الحمد لله الذى وسع كل شىء علما ، وأصلى وأسلم على عبده ورسوله سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه ٠

وبعـــد :

فهذه مقتطفات من مناهج الهدى ، أُظهرُ القراءَ الكرام عليها لمناسبـة مطلع القرن الخامس عشر الهجرى ، اسهاما فى الدعوة إلى الخير ٠

وقد جمعت فى فصولها الكثير من الاتجاهات الاسلامية التى قد لا تخلو من دعوة مسددة ، راشـدة ، وتوجيهـات هادفـة هادية [١] ٠ وبـدا لى أن أسميها : (تأملات فى : دروب الحق والباطل) ٠

وقد أبدت مؤسسة (تهامة) مشكورة مأجورة استعدادا لطبعها ونشرها ضمن سلسلة : (الكتاب العربى السعودى) جريا على سنتها فى نشر العلم والمعرفة ٠

أسأل الله أن ينفع بها ٠٠

وصلى الله وسلم على خاتم أنبيائه ورسله نبينا محمد وعلى آله وصحبه ٠

عبدالله عبدالغنى الخياط

خطيب المسجد الحرام

مكة المكرمة

---

(١) مقتبسة من عظات ووصايا لسلف هذه الأمة وخيارها ٠

الفصل الأول

أدب الدرس وأدب النفس

- الخشية من مظاهر الجبن .
- القدوة الحسنة .
- الحياء خلق المسلم .
- الإخلاص دعامة النجاح .
- الصدق خلق المسلم .
- الوفاء خلق المسلم .
- مثل الإخاء الصادق .
- الرحمة خلق المسلم .
- أثر الصبر في حياة المسلم .
- في إطار المهابط (١-٢) .

أدب الدرس وأدب النفس

بين أدب الدرس وأدب النفس ترابط من حيث تكييف الشخصية والارتفاع بقيمتها فالأديب ـ أدب الدرس ـ نجم يتألق فى مجتمعه لما أفاده من ثقافة وأدب يصور به المشاعر والأحاسيس ويستنهض الهمم ويلهب الحماس بكتاباته ورفيع بيانه وبخطبه وندواته الأدبية أو بمؤلفاته وأبحاثه الطريفة الشَيقة فى دنيا الأدب ، وأدب النفس له الأثر البارز فى التجافى بالمسلم عن الاسفاف والأخذ به إلى مشارف الفضيلة للتخلق بأخلاق الملائكة ويرفرف بأجنحة الطهر بين المجموع • وكلا الأدبين مكتسب مدرك لمن أخذ بأسبابه واستبق ميادينه وارتفعت نفسه لمعالجته • والاسلام يرسم أقوم المناهج لكلا الأدبين ـ فهو أى الاسلام كما يقول عنه بعض العلماء ماهو إلا إرشاد لما يجب أن يكون عليه الانسان ليأخذ بالكمال بحظ وافر فى هذه الحياة • ففى مجال أدب الدرس يحظر الاسلام التشدق باستعمال المعقد من الكلام والغريب من اللفظ تكلّفا للفصاحة واظهارا للبلاغة واعلانا عن النفس وتعاليا على الغير • فعن أبى هريرة مرفوعا « من تعلّم صرف الكلام ليصرف به قلوب الرجال والنساء لم يقبل الله منه يوم القيامة صرفا ولا عدلا • » رواه أبوداود ، وجاء ابن لسعد بن أبى وقاص إلى سعد رضى الله عنه فسأله حاجة ـ فتكلم بين يدي حاجته بكلام فقال سعد : ما كنت بقضاء حاجتك بأبعد منك اليوم انى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « يأتى على الناس زمان يتخلّلون الكلام بألسنتهم كما تتخلل البقرة الكلأ بلسانها » • قال بعض العلماء : ـ وكأنه أنكر عليه ما قدمه على الكلام من

التشبيب والمقدمة المصنوعة المتكلفة وكذلك التكلّف بالسجع فى المحاورات ، من ذلك أن رسول الله ﷺ قضى بِغُرّة فى دية الجنين فقال بعض أهل القاتل : ـ

كيف ندى من لاشرب ولا أكل ولا صاح ولا استهل ومثل ذلك يُطل • فقال الرسول ﷺ : « أسجعا كسجع الأعراب ؟ » قال العلماء تعليقا على ذلك:ـ

أنكر عليه ﷺ ذلك لأن أثر التكلف والتصنع واضح عليه واستدل بذلك على ذم السجع فى الكلام وأنه موضع الكراهة إذا كان ظاهر التكلف وكذا لو كان منسجما لكنه فى ابطال حق أو تحقيق باطل أى يحاول أن يقيم الحجة به ، أما لو كان منسجما وهو حق أوفى مباح فلا كراهة •

وما جاء منه عن النبى ﷺ فلم يكن عن قصد التسجيع وانما جاء اتفاقا لعظم بلاغته وأما من بعده فقد يكون فيه التكلف عن قصد وهو الغالب • جاء فى حديث ابن عباس رضى الله عنهما منكرا على من يعتمد التسجيع (أسجع الجاهلية وكهانتها) ففى ذلك دليل على أن المذموم من السجع كما أسلفنا القول ما كان فيه السجع متكلفا أو يراد به ابطال شرع أو إثبات باطل ، وذهب بعض العلماء إلى أنه لايدخل فى القسم المذموم من السجع ما يكون منه تحسين الفاظ الخطابة والتذكير من غير افراط ولا اغراب • ذلك أن المقصود منه تحريك القلوب وتشويقها للخير وترهيبها والتجافى بها عن المزالق والمهابط مما يكون له الأثر السىء فى سلوك المسلم ويترتب عليه المؤاخذة وعسير الحساب ، وذهبوا إلى أن المحاورات ـ التى تكون لقضاء الحاجات فلا يليق بها السجع والتشدق إذ لا باعث عليه إلا الرياء وإظهار الفصاحة والبراعة فى المنطق وكلّ ذلك مذموم ، ننتقل بعد ذلك من أدب الدرس إلى أدب النفس وهو أوسع مجالا والصق بحياة المسلم ، ولئن كان لأدب الدرس مقام ملحوظ ورفعة شأن لمن يتحلىّ به فان لأدب النفس أثره البارز فى تزكية النفوس وتطهيرها أو كما سبق أن قلنا للتخلّق بأخلاق الملائكة فيسمو المسلم إلى درجات من المثالية ويكون مظهره كمخبره فى الصون

والعفة والطهر والاستقامة والتقوى وليس كل الناس يتحتم عليهم أن يكونوا أدباء أدب درس يكتبون ويخطبون ويؤلفون وإن كان من الأفضل أن ترتفع نسبة المتأدبين بهذا الأدب فى المجموع ، ولكن المفروض شرعا أن يتأدب كل فرد فى المجموع بأدب النفس ذكورهم واناثهم سادتهم ودهمائهم صغارهم وكبارهم ، الكل مفروض عليه أن يأخذ نفسه بهذا الأدب - وأن يكون لها النصيب الأوفر منه ففيه فلاحها وزكاتها وعليه يترتب سعادتها وشقاؤها وصدق الله اذ يقول :

﴿ قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها ﴾

أفلح من زكا نفسه وأدبها بأدب النفس وارتفع بها عن المهابط والمآخذ وخاب وخسر من دنسّها بسلوك السبل الملتوية وباعد بينها وبين أدب النفس المفروض عليها أن ترتفع به ٠

والحديث عن أدب النفس ذو شقين الشق الأول عن المثل التى يجب أن يستمسك بها المسلم والتى خطط لها الاسلام فى مختلف المجالات ٠

والثانى عن المهابط التى يجب أن يتجافى المسلم عنها مما يتنافى مع خلقه والتربية التى يريدها الاسلام ، أما المثل التى يجب أن يتمسك بها المسلم فلا تقع تحت الحصر ، ذلك أنها متعددة الجوانب ، فكلّ فضيلة وكل خلق رفيع وكل اتجاه سليم ، نظيف هو من المثل التى يجب أن يستمسك بها المسلم ، وحديثنا عن اتجاه خطط له الاسلام ، يدفع إلى اندماج المسلم فى المجموعة كمجند يحمل قسطه من المسؤولية ، لدعم الاخاء ، وبذل الولاء ، والتضامن مع غيره ٠ فالمسلم لا يكون بطبيعة وضعه انعزاليا لايهتم إلا بمصلحته ورعاية شأنه وحده دون أن يكون له إحساس بالمسؤولية المشتركة التى تلزمه بهذا الواجب الاسلامى الانسانى ٠

ولذلك جاء فى التوجيهات الدينية ما يشحذ عزمه ويشعره بواجبه ويصور له واقعه

كلبنة يشتد بها البناء قال تعالى :

﴿ **والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمـرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله ٠** ﴾

فلم تتحدث الآية عن الفرد بل تحدثت عن واقع المجموع على اعتبار الفرد جزءاً منه يقوم بعبادة ربه متضامنا مع اخوانه ويبذل لهم ولاءه ، ومظهر آخر لدعـم الإخاء وبذل الولاء يلحظ فى تضامن المسلم مع اخوانه وهـو مشروعية صلاة الجماعة والوقوف فيها صفا واحدا لا يختلف على بعضه أو يتقدم فيه فرد على آخر ، ورغب الشرع فى المحافظة على هذا المظهر الاتحادى بتضعيف أجر المشترك فيه كتعويض له يتمايز به عن غيره حيث جعل الجماعة تفضل على صلاة الفرد بسبع وعشرين أو خمس وعشرين درجة ٠ وفى مجال آخر لحمل المسؤولية المشتركة بين المسلمين لتماسك المجتمع وتضامنه والخروج بالمسلم عن الانعزالية يقول الله سبحانه :

﴿ **وتعاونوا على البر والتقوى** ﴾

فرسمت الآية مبدأ التعاون وهو فى واقعه أُس الاجتماع وعماد التضامن ، والبرّ والتقوى فضيلتان يتفاوت فى استباق ميادينهما المسلمون ، فكلما اتسعت فيها الأبعاد كلما كان المسلم أكثر تضامنا مع اخوانه وكان المجتمع أقوى تماسكا وأعز نفرا ، يقول رسول الله الهدى ﷺ فى تصوير واقع المسلم من حيث إنه لبنة فى بناء مجتمعه يشتد بها البنيان وترسخ قواعده (المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا) هذا التعاون والتضامن على البر والتقوى بالاضافة إلى أنه عامل قوة للمجتمع وتماسكه ، هو أدب رفيع أدب الله به المسلم ليخرج عن الانعزالية كما أسلفنا القول ، وليشعره بالمسؤولية المشتركة ، والواجب نحو إخائه وصدق ولائه للمسلمين ٠ وليس للتعاون والتضامن نطاق محدود أو مطلب معين وانما هو مدّ كثيرا

ما يوجه الاسلام الأنظار إلى جوانب منه ، ففى حديث طويل للمصطفى ﷺ يقول فيه : (من كان فى حاجة أخيه المسلم كان الله فى حاجته) والحاجات تختلف فيها المطالب وتتنوع الأغراض والتعاون على قضائها والتضامن فيها مع أهلها ، مظهر من مظاهر الشعور بالمسؤولية المشتركة ويقول فى الحديث نفسه موسعا أبعاد التعاون على الخير فى كل مجالاته (**ومن فرّج عن مسلم كربة من كرب الدنيا فرج الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ومن ستر مسلما ستره الله فى الدنيا والآخرة والله فى عون العبد ماكان العبد فى عون أخيه**) أى بكل وسيلة مشروعة وفى أى مجال للعون سواء كان ماديا ببسط اليد والاسهام فى تخفيف ضائقة العيش ووطأة الفقر أو كان أدبيا بوساطة الخير يبذل المسلم فيها جاهه ، ويستغل نفوذه واما بردّ ظلامة لدى السلطان أو لاستعادة حقّ سليب يكون المسلم ظهيرا فيه لأخيه فى استرداده ولو ببذل تضحية يؤجر عليها ، جاء فى الأثر (من مشى مع مظلوم حتى يثبت له حقه ثبت الله قدميه على الصراط يوم تزلّ الأقدام) .

أو يكون العون على الخير فى حقل العلم كنشر الثقافة والاسهام فى فتح المدارس والجامعات ومدّها بما يعضد مركزها ويقوى من نشاطها أو بالمجهود الشخصى يبذله المتعلم والمثقف كضريبة لعلمه وتثقيفه يفرض عليه أن يؤديها لأبناء مجتمعه دون تعال عن ذلك أو احتكار للعلم وضنّ به .

أو يكون العون على العكس مما يبدو من مظهره أى يأخذ مظهر الشدة والقسوة وذلك كالأخذ على يد الجانى وتقويم المعوج من مسالكه تجافيا به عن الهلكة لو تمادى فى طريق الغواية دون رادع أو مؤاخذة ، ولذلك يوجه الأمة رسول الهدى ﷺ إذ يقول : (**أنصر أخاك ظالما أو مظلوما**) قالوا : (يا رسول الله ننصره مظلوما فكيف ننصره ظالما ؟ **قال:تأخذ على يديه فتحجزه عن ظلمه**) أو كما قال ﷺ .

وبعد فان إخراج المسلم عن الانعزالية فى كل مجالاتها وفرض التعاون عليه كعضو فى المجتمع فى مختلف ضروب التعاون واشعاره بالمسؤولية المشتركة نحو إصلاح غيره كل ذلك من أدب النفس الذى خطط له الاسلام ٠

الخشية من مظاهر الجبن

تربية النفوس على الفضائل ، بما فى ذلك العزة ، والشجاعة الأدبية ، والصراحة فى الحق ، وعدم التهيبّ من سطوة الباطل ، غرض رفيع من أغراض الدين وهدف سام يرمى إلى استكمال عوامل القوة فى المسلم ، فليس المسلم بالذى يرضى الدنية ، أو يخفض الرأس عن ضعة وهوان حتى فى أحرج المواقف ، ولذلك حارب الاسلام الجُبن لأنه خصلة ضعة ، تفقد المرء سيطرته على نفسه ، وتقعده عن مصالح دنياه وآخرته ، وكان فى جملة ما استعاذ منه رسول الهدى ﷺ من خصال الذم والمهانة فقال : (**اللهم انى أعوذ بك من الهم والحزن ، وأعوذ بك من العجز والكسل ، وأعوذ بك من الجبن والبخل ، وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال**) .

والخشية مظهر من مظاهر الجبن ، وهى فى إطارها الواسع ، تجمع بين اتجاهين ، محمود ومذموم ، فالمحمود ، خشية العبد من ربه ، وما تحدثه فى النفس من تحولّ إلى الخير ، والصلاح ، والحرص على الاستقامة ، والأخذ فى دروب الهداية ، نتيجة لاستشعار عظمة الرب جلّ جلاله ، والخوف من عقابه ، وهذا النوع من الخشية ، مشروع محمود ، تعبد الله به العباد ، ووصف به ملائكته المقربين ، فى معرض الثناء عليهم ، فقال :

﴿ بل عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون الا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون ﴾

ووصف بها المحسنين من عباده ، توجيها للانظار إلى القدوة بهم فقال :

﴿ والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون ﴾

ووصف بها الصفوة من العلماء فقال :

﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾

وإلى جانب ذلك ، فهى برهان على قوة الايمان ، وصدق اليقين ، وعامل على الانطلاق والتحرر من الذل ونزع ربقة العبودية للمخلوق ، فيغدو المسلم ، حرا طليقا ، يقول ما يعتقد ، ويجاهر بالحق ، لا يخشى فى الله لومة لائم ، يصدع بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، كما أمر الله ، قياما بالواجب المفروض عليه كمسلم ، لايخشى سطوة جبار ، كما جاء فى الحديث « أصدق المعروف كلمة حق عند سلطان جائر » أو كما قال ﷺ ، ولا يثنى عزيمتـه عن المضى فى سبيل الحق ، قالة الناس ، وتجريحهم ، وإيذاؤهم فكم أوذى فى سبيل الله المجاهدون فى ذات الله قبله ، لا يجامل أو يحابى على حساب دينه ، قريبا لقرابته ، أو رئيسا لسلطانه عليه ، أو صديقا لمكانته من نفسه ، ولقد جاء من أخبار خيرة الخلق ، رسل الله وأنبيائه ، والسائرين على نهجهم ، صور تحكى واقعا ، هو أرفع ما تتمثل فيه الخشية ، وصدق اليقين ، مما تجب فيه القدوة ، وعلى سبيل المثال ، نروى طرفا من قصة الخليل إبراهيم ، حين أجمع الباطل على قذفه فى النار ، فعرض له جبريل قائلا : ـ ألك حاجة ، أى يسعفه بها ، وينقذه من السعير الملتهـب ، فأجاب الخليل إجابة الواثق بربه ، الذى لاترهبه غير سطوته ، بقوله : أمّا إليك فلا • وفى قصة سحَرة فرعون ، عندما اتضح لهم الهدى ، وآمنوا برب موسى ، وتوعدهم الطاغوت فرعون ، كما حكى الله عنه قائلا :

﴿ فلأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم فى جذوع النخل ولتعلمن أينا أشد عذابا وأبقى ﴾

فأجابوه على الفور ، فى شجاعة أدبية نادرة ، دون تلعثم أو تردد ٠

﴿ لن نؤثرك على ماجاءنا من البينات والذى فطرنا فاقض ما أنت قاض إنما تقضى هذه الحياة الدنيا إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر والله خير وأبقى ﴾ ٠

وما لنا نذهب بعيدا وقصة أشرف الخلق مع قومه عندما توعدوه فى غزوة أحد بالاستئصال والقضاء على شوكته ، والقصة فى قرآن يتلى إلى الأبد ، يمتدح الله مسلك الرسول واتباعه ، بكمال إيمانهم وصدق يقينهم ، وعدم خشيتهم إلا من الله وحده ، فقال :

﴿ الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل ﴾

أما لو انعكس الوضع ، وأصبح فى الناس من يخشى الناس كخشية الله ، أو أشدّ ، واستبدّ ذلك بنفوسهم ، حتى ضعضع ثقتهم بالله ، وأضعف يقينهم ، فأرضوا الناس بسخط الله وعلقّوا عليهم الآمال ، وقطعوها عن الله ، وكأن الأمر والتدبير ، مقصور عليهم والأرزاق وقف على نفحاتهم ، فعنئذ تعظم البلوى ، إذ يخسر المسلم ، أعظم مقوماته ، يخسر دينه ، كما جاء فى الأثر (إن الرجل ليخرج من بيته ومعه دينه ، فيلقى الرجل ، وله اليه حاجة ، فيقول له ، أنت كيت وكيت ، يثنى عليه ، لعلّه أن يقضى من حاجته شيئا ، فيسخط الله عليه ، فيرجع وما معه من دينه شىء) ويخسر إيمانه وثقته بالله ، فيغدو فى مهب الريح ، تعتوره الهموم ويعترض خط سيره ، شبح الأوهام ، فيحمله على النفاق والملق ، وبيع الدين والشرف والضمير ، بثمن بخس ، هو إرضاء الناس ، وعلى المسلم أن يضع نصب عينيه ، قول رب العزة :

﴿ وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له الا هو وان يردك بخير فلا راد لفضله ﴾ ٠

وأن يوقن بما ورد فى الحديث الشريف « ان روح القدس ألقى فى روعى انه لن تموت نفس حتى تستوفى رزقها وأجلها ، فاتقوا الله وأجملوا فى الطلب » وجاء فى الحديث أيضا ، من الوعيد لمن ضعف يقينه بالله ، واشتغل بالمخلوق عن الخالق ، عن أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها قالت: -سمعت رسول الله ﷺ يقول:(**من التمس رضا الله بسخط الناس كفاه الله مؤونة الناس ومن التمس رضا الناس بسخط الله وكله الله إلى نفسه**) وفى رواية عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه مرفوعا « **ان من ضعف اليقين أن ترضى الناس بسخط الله وأن تحمدهم على رزق الله وأن تذمهم على مالم يؤتك الله إن رزق الله لا يجره حرص حريص ولا يرده كراهية كاره**) إلى غير ذلك من الأحاديث النبوية التى تربى فى النفس الخشية من الله وحده والاتكال عليه والايمان به واليقين بكفايته إلى جانب تربيتها فى النفس أيضا العزة والاباء ، والشجاعة الأدبية ، والثبات على المبدأ ، والصراحة فى قول الحق ، ليعيش المسلم فى مجتمعه ، مرفوع الرأس ، موفور الكرامة ، لايستخذى أو يستكين ، أو يخفض رأسه ، الا لخالقه أو يخشى فى جلب المكروه ، أو إنزال الضر الا من بيده تصريف الأمور .

القدوة الحسنة

القدوة الحسنة ، والأسوة الصالحة ، نهج راشد ، وجه إليه الدين ، وحفز الهمم إليه ، لقطع أشواط الحياة ، فى خط سير مستقيم ، يبلغ به المسلم أكرم غاية من رضوان الله ، ونزول منازل الصالحين يقول الله سبحانه موجها أفضل رسله إلى أخذ القدوة من سلفه المرسلين :

﴿ أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده ﴾

ويقول سبحانه موجها الأمة لأخذ القدوة من المصطفى ﷺ :

﴿ لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ﴾

والقدوة برسول الهدى ﷺ ، وأخذ الأسوة منه ، واتباع نهجه ، واقتفاء أثره ، آية تصديقه ، والايمان برسالته ، وهى عنوان محبته ، ولا يصح إيمان العبد الا بذلك .

بيد أن ثمة قدوة به ﷺ ، فى شمائله وفضائله ، وأدبه وحسن خلُقه ، وحلو معشره ، هى من كمال الايمان ، وارتفاع درجاته ، ومن أدب النفس الذى يجب أن يأخذ المسلم نفسه به ، ولقد عرضنا فى هذه السلسلة للكثير من هذه الشمائل والفضائل ، تذكيرا بالواجب نحو أخذ القدوة ، واستجماعها ، لوسائل الخير ، التى هى بالمسلم أجدر ، فدين الاسلام ، محوره وعماده الدعوة إلى الخير ، فى كل دروبه ، سواء ما كان منه عقيدة وعبادة ، أو خلقا وتكملا ، وفى هذا الموضوع ،

عرض موجز ، أو الماعة لبعض شمائل الرسول الكريم ﷺ وفضائله وحسن خلقه ، مما يجب التأسى به فيه ، وأخذ القدوة منه ، مما تثقل به الموازين ، وترتفع به درجة المسلم ، إلى مصاف البررة المقربين ، كما جاء فى الحديث « أكثر ما يدخل الجنة ، تقوى الله وحسن الخلق » وفى حديث آخر إجابة لسؤال سائل قال : ـ (**ما خير ما أعطى الانسان ؟ فقال له الرسول الكريم : خلق حسن**) .

ولحسن الخلق ، اتجاهات هى محكّ لعزيمة المسلم وقوة ارادته ، على أخذ نفسه بالفضائل ، كما جاء فى حديث أبى هريرة ، فى تصوير شىء من ذلك . يقول رسول الله ﷺ (**يا أبا هريرة عليك بحسن الخلق** فقال :ـ **وما حسن الخلق يارسول الله ؟ قال : تصل من قطعك وتعفو عمّن ظلمك وتعطى من حرمك**) فوصل المجافى والعفو عن المتجنّى ورفد المانع الكنود ، كل أولئك محامد وفضائل ، من أخذ بها نفسه ، فقد بلغ الذروة فى حسن الخلق ، وفى حديث آخر هو أكثر شمولا ، وأوسع أبعادا للاتجاهات الخيّرة التى يصورها حسنُ الخُلق ، يقول النواس بن سمعان رضى الله عنه : ، سألت رسول الله ﷺ عن البِر والإثم ، فقال (**البر حسن الخلق والإثم ما حاك فى صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس**) .

والبر بحر زاخر ، تلتقى فى مدلوله عناصر الايمان ، والاسلام ، وركائز الاحسان ، كما جاء فى آية

﴿ ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين ، وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم اذا عاهدوا والصابرين فى البأساء والضراء ، وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون ﴾

ومن هذا الباب أيضا قوله ﷺ : (**اتقوا النار ولو بشق تمرة ، فمن لم يجد فبكلمة طيبة**) وكل ذلك مما تتسع فيه أبعاد البر وهو كما فسره الرسول بحسن الخلق وفى الايضاح الفعلى لواقع الخلق ٠

يقول أنس بن مالك رضى الله عنه : « خدمت النبى ﷺ عشر سنين ما قال لى أفّ قطّ ولا لشىء لم فعلت كذا وهلا فعلت كذا » ويقول أيضا رضى الله عنه : « ان كانت الأمة لتأخذ بيد رسول الله ﷺ فتنطلق به حيث شاءت ، وكان اذا لقيه الرجل فصافحه لا ينزع يده من يده حتى يكون الرجل ينزع يده ، ولا يصرف وجهه حتى يكون الرجل هو الذى يصرفه عنه ، ولم ير مقدما ركبته بين يدى جليس له أى انه ﷺ لا يتعالى على جليسه فى أى وضع يستشعر منه الجليس الفارق بينه وبينه » وذلك تخطيط للأدب الرفيع وأية لحسن الخلق ، ويستمر أنس رضى الله عنه فى سرد شمائل الرسول الكريم فيقول : « كنت أمشى مع رسول الله ﷺ وعليه برد غليظ الحاشية فأدركه أعرابى ، فجذبه جذبة شديدة ، حتى نظرت إلى صفحة عنق رسول الله ﷺ ، وقد أثرت فيها حاشية البرد ، من شدة جذبه ، ثم قال : يا محمد مر لى من مال الله الذى عندك ، فالتفت اليه رسول الله ﷺ ، وضحك وأمر له بعطاء » ما أعظمه وأكرمه وأحلمه ﷺ انه يخطط لأمته ، أرفع مثال للخلق الحَسن الذى ترتفع به درجة ايمان المسلم وصدق الرسول حيث يقول : (**خياركم أحسنكم أخلاقا ، أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا**) ٠

الحياء خلق المسلم

الناس من حيث الطباع البشرية ، اشكال والوان ، او كما جاء فى الحديث ، معادن كمعادن الذهب والفضة ، فمنهم الخيار كريم الطبع ، رفيع الخلال ، كالذهب أو الفضة فى جوهره ، ونقاء اصله ، وكرم معدنه ، ومنهم على العكس ، كالمعدن الردىء لا يظهر له بريق أو يكون له رواء ٠

واذا كان الحلم بالتحلم ، والصبر بالتصبر ، اى ان المرء اذا لم يكن حليما أو صبورا ، ولكنه جاهد نفسه ، وعالجها على التخلق بالحلم والصبر ، غدا حليما صبورا فان كل خلق وكل طبع بشرى خاضع ـ لهذه التجربة ، او القاعدة وخاصة ما كان من الاخلاق فيه أدب للنفس ، فمعالجة النفس لكسبه واخذها بالتمشى عليه ، يربى ملكة التخلق به ، فيغدو عادة وطبعا ، ولقد كان من أثر الاسلام على الاعراب الجفاة غلاظ الاكباد ، أن أرهف منهم الحس وألان العاطفة ، وهذب الطباع ، فكانوا افضل ما يصور واقع قول الرسول الكريم (**انما بعثت لاتمم مكارم الاخلاق**) إن تربية أفراد المجتمع على الحياء مما يتفاوت فيه الناس كأى خلق يتخلقون به ، ـ ومنه ما كان طبعا وجبلة ، يجبل الله العبد عليها ، فلا يخرج عنها ، اذ كانت من طبيعة تكوينه ، وخصلة من خصال ايمانه ، يرتفع بصاحبه الى الفضائل ومكارم الاخلاق ، ويتجافى به عن المهابط والرذائل التى تهبط به عن مستوى الايمان الكامل ٠ وقد ورد فى الحديث (**الحياء لا يأتى الا بخير**) اى فكلما ازداد حياء المرء كمل ايمانه وارتفعت درجاته وكان رصيده من الخير فى كل دروبه ، أضخم وأعظم ٠ روى عن الخليفة

الراشد عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فى وصف أثر الحياء وتكييفه لنفسية المسلم : ـ من استحيا اختفى ، اى بما لعله ان يبدر منه من هنات ، ومن اختفى اتقى ، ومن اتقى وقى ، أى اذا صار الى الخلوة منعه حياؤه من مقارفة الاثم اذ يستشعر مراقبة الله له ، كما قال تعالى :

﴿ ولا تعملون من عمل الاكنا عليكم شهودا اذ تفيضون فيه ﴾

فهذا الشعور بمراقبة الله ، منعه من معصيته فوقاه الله شر عذابه ونقل عن بعض السلف قوله : ـ تركت الذنوب حياء اربعين سنة ، ثم ادركنى الورع ، اى كان للحياء أثره الطيب ، فى نفسيته حيث اصبح يتورع عن كل ما فيه شبهة ـ خشية ان يجره الى الاثم ، واقتراف الذنب ، ومثله قول بعضهم : ـ رأيت المعاصى نذالة ، أى لانها هبوط عن مستوى المثالية ، التى يجب ان يكون فيه المسلم فاستحالت ديانة أى كان أثر هذا الشعور نحو المعصية وانها نذالة ، كان اثر هذا الشعور ، تديّنا وازدلافا الى المولى جل وعلا بالطاعة ، وذلك اعظم كسب ، ومن الحياء ما هو مكتسب ، اى كما اسلفنا القول يأخذ المسلم نفسه به كأدب للنفس وقد ضربنا المثل بتحول الاعراب من طبيعة الجفاف الى افضل مثل ، يصور مكارم الاخلاق ويأتى هذا النوع من الحياء عن طريق التهذيب والتقويم بالتوجيهات الاسلامية عن الله ومعرفته ، واطلاعه على سريرة المرء وعلانيته ومجازاته لعباده ، على النقير والقطمير ، فيجاهد المرء نفسه فى الله طلبا لأفضل غاية من كمال الايمان وكريم الخلق ، وجه الرسول الكريم مرة أحد أصحابه الى هذا الحياء المكتسب بقوله : (**استح من الله كما تستحى من رجل من صالح عشيرتك**) اى كما يمنعك حياؤك عن الزلة لو ادركت ان شخصية كريمة عليك ـ تنظر اليك فكذلك ليمنعك حياؤك من الله ان تزل قدمك ، وفى حديث آخر عن ابن مسعود رضى الله عنه ان النبى صلى الله عليه وسلم قال : « الاستحياء من الله ان يحفظ الرأس وما وعى ، والبطن وما حوى وان يذكر الموت والبلى ، ومن

أراد الآخرة ترك زينة الدنيا فمن فعل ذلك فقد استحيا من الله حق الحياء » .

وفى ذلك عرض لاتجاهات خيرة ، لو أخذ بها المسلم لملك زمام نفسه وهيمن عليها وأخذها بمعالجة الحياة فى ارفع ذروة ، يصورها قول الرسول الكريم (**فمن فعل ذلك ، فقد استحيا من الله حق الحياء**) واذا كان الحياء شعبة من شعب الايمان ، كما جاء فى الحديث وهو معياره وكان خيرا كله فان الحصيف الواعى ، من يأخذ نفسه به ، فى كل مجال ، الا فى مواطن وظروف قد يكون فيها الحياء ضعفا وعجزا وخلة نقص وذلك كالاحجام عن انكار المنكر مع القدرة على الانكار حياء من الناس ، وكالسكوت على تقرير الباطل واشاعة المبادىء الهدامة ، دون ان يكون للمسلم انتفاضة يقمع بها صولة الباطل ، ويكبح بها امتداد خطره ، وخاصة حملة ميراث النبوة العلماء حياء من الناس وخجلا من مصادمتهم فى أمر لهم فيه هوى ، وكاهمال البحث فى المسائل العلمية وعدم السؤال واستفتاء أهل العلم ، فيما يشتبه على المسلم ، من أمر دينه ـ حياء عن اظهار الجهل ، أو ان يوصم به المرء وهو صاحب المقام المرموق والشخصية المحترمة بين المجموع ، ففى ذلك وامثاله ، يكون الحياء ضعفا وخلة نقص ، يجب على المسلم ان يقلع عنها .

وبعد فان للحياء اتجاهات لايمكن حصرها أو ضرب الأمثال عليها وحسبنا ان وجهنا الانظار اليه ، بهذه السطور كأدب للنفس ترتفع به الى أوج الكمال .

الإخلاص دعامة النجاح

الطلاء الخادع والمعدن البراق الذى يخالف مظهره مخبره زيف يكشفه مخبر الحقيقة ويظهره على طبعه فلا يكون لبريقه عندئذ أثر ولا ينخدع به الا الاغرار السطحيون من الدهماء الذين يقيمون للمظاهر وزنا ويركنون الى الطلاء الخادع دون الجوهر .

هذه مقدمة وجيزة بين يدى الاخلاص على اعتباره أحد الركائز التى يربى الاسلام عليها المسلم ، فالمسلم فى كل اتجاه يتجهه وكل عمل يقوم بادائه وكل وسيلة يتخذها فى اشواط حياته لبلوغ هدف ما ، أو للوصول الى غاية ، اذا لم يكن لحمته وسداه الاخلاص اثبت أنه اى المسلم مهزوز الشخصية فهو أشبه بالطلاء الخادع والمعدن البراق ، كما أسلفنا القول لا يلبث ان ينـكشف على حقيقته وتظهره الأيام والحوادث والاختبارات على وضعه ، فلا يكون لتمشدقه بالاصلاح أو لكتاباته وخطبه أثر ان كان ممن يعالج ذلك ، او يزعمه ، وقديما أكذب الله المنافقين فى دعواهم الاصلاح واخذهم فى اتجاهاته ووصمهم بالفساد فقال :

﴿ واذا قيل لهم لا تفسدوا فى الأرض قالوا انما نحن مصلحون الا انهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون ﴾ .

وكذلك لا يقام وزن لمن يزعم الاخلاص فى عمله أو الإتقان لصنعته أو البلاء الحسن فى النصح للقيام باعباء مسؤوليته فى مختلف الاتجاهات للمسؤولية

فى حين أن الشواهد العديدة ناطقة بكذبه ومواربته وغشه وتدليسه وليس ذلك شأن المسلم • فالمسلم الذى يقدر الاسلام قدره يوقن فى قرارة نفسه أن الاسلام يربيه على الاخلاص فى كل التزاماته التى يلتزمها سواء ما كان منها يتصل بحقوق الخالق كالعبادة فان قوامها الاخلاص كما قال تعالى :

﴿ **وما امروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء** ﴾ الآية •

أو ما كان يتصل بحقوق المخلوق من القيام بالالتزامات والمسؤوليات فى أى اطار مما يعطى به المسلم البرهان على تفاعله مع تعاليم دينه وانه فى منجاة عن النفاق والرياء فى كل اتجاه يتجهه ، وترفع عن الغش والخداع ، فى اى عمل يناط به ، ولقد أوحى الله الى المصطفى صلى الله عليه وسلم فى قرآن يتلى ، خطر خصوم الحق ، ومحاولتهم أن يفتنوا الرسول عن دعوته ليداهن فيها ويظهر خلاف واقعها ، أو لا يخلص لها ، مصانعة لهم ومجاملة لآلهتهم ، وهم يصنعون ذلك معه ايضا ، قال تعالى :

﴿ **فلا تطع المكذبين ودوا لو تدهن فيدهنون** ﴾ •

قال الحسن البصرى رحمه الله فى تفسيرها : (ودوا لو تصانعهم فى دينك فيصانعونك فى دينهم) وقال غيره من مفسرى السلف : (لو تنافق وترائى فينافقون) وحاشى أن يهبط المثل الكامل للانسانية صلى الله عليه وسلم ، الى هذا المستوى وقد ارتفع بشخصيته ومقام النبوة والرسالة عن كل مأخذ ، فصدع بالحق دون مجاملة وأخلص لدعوته أيما اخلاص فوضع بذلك اعظم مخطط للامة فى الثبات على المبدأ والاخلاص له ، ولقد سار على هذا النهج القويم أصحابه الكرام وخلفاؤه الأمجاد فلم يفتّ فى عضد الصديق أبى بكر رضى الله عنه غاشية الفتنة التى جابهته بعد وفاة الرسول الكريم بارتداد بعض العرب ونقض البعض الآخر للعهد بمنع الزكاة فصمد أمام باطلهم وقال قولته المشهورة : (**والله لو منعونى عقالا او عناقا كانو يؤدونه الى رسول الله ﷺ لقاتلتهم عليه**)

فبرهن بهذا الواقع عن اخلاصه للمسؤولية التى تقلدها ولدينه وعقيدته وبرهن أيضا عن شخصية فذة قوية هى شخصية المسلم الواعى الذى يريده الاسلام فى كل زمان ومكان ، ذلك أن الاخلاص للمسؤولية ، والدين والعقيدة سمة المسلم ، ولا يغربن عن الاذهان مواقف الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، انها مثل رائعة فى الاخلاص للمسؤولية والنصح للأمة • وحسبك ان يقض مضجعه فقد بعير من إبل الصدقة فيطلبه الخليفة فى حمارة القيظ ويقول : « والذى بعث محمدا بالحق لو ان عنزا ذهبت بشاطىء الفرات لأخذ بها عمر يوم القيامة » ويعلن للرسول الكريم ابان اسلامه ، مما يبرهن عن اخلاص للدين منقطع النظير قائلا : بأبى انت وامى يارسول الله ما يحبسك ؟ وكان الرسول مختفيا بدار الأرقم ، فوالله ما تركت مجلسا كنت أجلس فيه بالكفر الا أظهرت فيه الايمان ، غير هائب ولا خائف الا اننا لن نعبد الله سرا بعد اليوم • إنه اخلاص يفرضه الاسلام على كل محتضنيه ، تفانيا فى سبيله وصبرا على ما لعله ان ينال المسلم من الأذى من أجل اشاعته والثبات عليه ، **اللهم ارزقنا الاخلاص فى السر والعلن ، فى كل اتجاه نتجهه وكل محاولة فى خط سيرنا وقطع اشواط حياتنا لنصل الى الغاية ونبلغ رضوانك •**

الصدّق خلق المسلم

الى جانب الثالوث البغيض ، ثالوث النقائص والمهابط ، البخل والشح ، والاثرة الى جانبه المحامد والفضائل التى ترتفع بها الشخصية الاسلامية الى الذروة من حيث الايجابية ذات الأثر البارز فى ترابط المجتمع ودعم كيانه والقضاء على منازع الشر فيه ، واتساع أبعاد النفع من المسلم على اعتباره وريث دين جاء بالهدى واشاعة الخير واتمام مكارم الأخلاق • ولقد تحدثنا عن الاخلاص ونتحدث الآن عن الصدق فالفضائل ومكارم الأخلاق التى جاء رسول الهدى باتمامها ، ورسم الدروس العملية لها ، لا تتحدد فيها الجوانب • فالاخلاص يرتكز على الصدق وهو العمدة وكما قلنا فى بحثنا عن الاخلاص لا يقام وزن لمن يزعم الاخلاص فى عمله ، أو الاتقان فى صنعته ، أو البلاء الحسن فى النصح للقيام باعباء المسؤولية فى حين ان الشواهد العديدة ناطقة بكذبه الى آخر ما قلناه ، ومن ثم يتضح ان الصدق عمدة فى الاخلاص ودونه يغدو المرء منافقا ، أو فيه خصلة من النفاق حتى يدعها •

كما جاء فى الحديث (**آية المنافق ثلاث اذا حدث كذب**) الحديث ، وفى القصص عن المنافقين نقرأ قوله تعالى :

﴿ ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا ﴾

اى عذوبة لفظه وتزويق حديثه وهو كاذب فى حقيقة أمره ، يظهر خلاف ما يبطن

(**ويشهد الله على ما فى قلبه**) قيل فى تفسيرها يظهر للناس الاسلام ويبارز الله بما فى قلبه من الكفر والنفاق ، فمن نحا هذا المنحى كان فيه خصلة من النفاق ولذلك أيد ابن كثير رحمه الله قول من يجنح الى ان الامر عام فى المنافقين والمؤمنين ، وقال : ـ وهو الصحيح اى كما يكون هذا شأن المنافقين كذلك يكون فى المؤمنين من يتردى الى الكذب ويهبط عن المستوى الذى يريده الاسلام فيه ، فالمؤمن يجب الاّ يكون كذابا لانه فى مستوى رفيع باسلامه ، لا يليق به الكذب يقول رسول الله ﷺ : (**يطبع المرء على الخلال كلها الا الخيانة والكذب**) أى فليس الكذب من خلقه ولا يتصف به وفى عرض لخصال الذم والمنقصة يسأل عنها الرسول الكريم ويقال له : ـ (أيكون المؤمن جبانا ؟ قال نعم ، قيل أيكون المؤمن بخيلا ؟ قال نعم ، قيل له أيكون المؤمن كذابا ؟ قال : ـ لا) وما ذاك الا لأن الكذب يتنافى مع كمال الايمان · والايمان ذروة لن يبلغها الا من صدق الله فى سره وعلانيته ، وكان مظهره صورة صادقة لمخبره ولان الكذب كما جاء فى الحديث يهدى الى الفجور ، والفجور دركات ، خاتمة المطاف فيه سوء المصير وعلى العكس منه الصدق ، فان الأخذ به والالتزام بعدم الحيدة عنه ، يوصل الى اكرم غاية واعظم نهاية ، كما جاء فى الحديث (**عليكم بالصدق فان الصدق يهدى الى البر وان البر يهدى الى الجنة ومايزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقا واياكم والكذب فان الكذب يهدى الى الفجور وان الفجور يهدى الى النار ومايزال العبد يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا**) وحسبك بذلك وعيدا ·· ولقد ضرب الله المثل للصادقين بالثلاثة الذين تخلفوا عن رسول الله ﷺ فى غزوة تبوك وصدقوا رسول الله ﷺ فى تخلفهم عنه لم يكن لعذر يبيح التخلف فكان صدقهم سببا لنجاتهم ورضوان الله عليهم وكذلك يكون الصدق ابدا لمن اتخذه ديدنا نجاة من الشرور ومجلبة للوصول للرضوان ، قال تعالى :

﴿ **وعلى الثلاثة الذين خلفوا** ﴾

الى آخر قصتهم وختمها بقوله :

﴿ ثم تاب عليهم ليتوبوا ان الله هو التواب الرحيم ﴾

وأردف ذلك بتوجيه للمؤمنين الى الارتفاع بانفسهم عن مزالق الكذب واعتاد الصدق فى أقوالهم وافعالهم ، فقال :

﴿ ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين ﴾

كما وجه سبحانه الانظار الى قبح الكذب وسوء عاقبته وأنه لا يجرؤ عليه الا من تجافى عن الايمان قال تعالى :

﴿ إنما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله وأولئك هم الكاذبون ﴾

وحسبك بذلك وصمة للكاذبين • يقول بعض العلماء تعليقاً على هذه الآية : إن المجتمع الاسلامى مجتمع صدق وحق لا يشيع فيه كذب ولا ينتشر زور فان ذلك هدم للايمان واشاعة للفساد ولا يرتكب ذلك الا الملحدون الفاسقون ••

ولعل من أبرز الوان الفسق كذب شاهد الزور اذ يعلن جريمته فى جرأة ومع سبق الاصرار على قلب الواقع وابطال الحق وهزيمة اهله فى موقف العدالة ، هذا بالاضافة الى خلق أمثال سيئة فى المجتمع من ضعاف النفوس والضمائر يحتذون حذوه طلبا للمادة باخبث الوسائل ، ولو كان فى ذلك هدم لشخصياتهم وامتهان لكرامتهم ولذلك جاء الوعيد الصارخ لشاهد الزور على قدر جريمته وما تحدثه فى المجتمع من جور وبغى • جلس رسول الله ﷺ لأصحابه ذات مرة يعظهم ويرسم لهم اقوم مناهج الفلاح والسداد فقال : (**ألا انبئكم بأكبر الكبائر ؟ قلنا بلى يارسول الله قال : الاشراك بالله وعقوق الوالدين**) وكان متكئا فجلس ، اى للاهتمام بالموضوع وقال : وقول الزور الا شهادة الزور •• قال راوى الحديث : فمازال يكررها حتى قلنا ليته سكت وفى حديث آخر (لا تزول قدما شاهد الزور حتى يتبوأ مقعده من النار) •

الوفاء خلق المسلم

يكاد يكون بين الاخلاص والوفاء ترابط من حيث إن كلا منهما التـزام مفروض على المسلم ان يلتزمه ، ولئن كان الاخلاص للعقيدة والعبادة والاخلاص للالتزامات التى يلتزمها المسلم تجاه غيره البرهان الواضح الذى يدلل به المسلم على صحة الاسلام وصدق الاستسلام للتعاليم التى جاء بها الدين فى مختلف بنوده فان الوفاء برهان آخر يعطى به المسلم الصورة الواضحة على شعوره بمدى المسؤولية ، فى كل ارتباط يرتبط به ، وكل واجب من حقه عليه الوفاء فى القيام به ، والالتزامات والواجبات التى تقتضى المسلم أن يفى لهـا وبهـا ، متعـددة الجوانب ، متنوعة الأغراض ولقد تردد فى القرآن والسنة ، الأمر بالوفاء بالعهود مثلا كما قال تعالى :

﴿ وأوفوا بعهد الله اذا عاهدتم ولا تنقضوا الايمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا ﴾

قال ابن كثير رحمه الله : هذا مما يأمر الله به وهـو الوفـاء بالعهـود والمواثيق والمحافظة على الايمان المؤكدة ـ ولهذا قال : ـ ولا تنقضوا الايمان بعد توكيدها وقال تعالى :

﴿ وأوفوا بالعهد ان العهد كان مسئولا ﴾

وجاء فى تفسير هذه الآية : أوفوا بالعهد الذى تعاهدون عليه الناس والعقود التى تعاملون بها ، فان العهد والعقد كل منهما يسأل الله صاحبه عنه ، الى غير ذلك

من الآيات التى جاء فيها الأمر بالوفاء بالعهود مما يوجه الانظار الى أن الوفاء التزام يفرضه الدين لا مندوحة عنه ٠

ومن أحاديث خير الورى ﷺ فى هذا المجال ، ما اخرجه أبوداود عن صفوان بن سليم وغيره ، ان رسول الله ﷺ قال : (**من ظلم معاهدا أو تنقصه او كلفه فوق طاقته او أخذ منه بغير طيب نفس فأنا حجيجه يوم القيامة**) وحسبك بذلك وعيدا على ترك الوفاء بالعهد ٠

ومن الالتزامات التى يجب على المسلم الوفاء بها التزام حق البيعة لولى الأمر المسلم ، وما يفرضه من السمع والطاعة ٠ كما جاء فى حديث عبادة بن الصامت رضى الله عنه قال : (بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة فى العسر واليسر والمنشط والمكره وعلى اثرة علينا والآننازع الأمر أهله) ٠٠ الحديث فيجب أن يفى المسلم بهذا الالتزام والاّ ينكص فى بيعته ، او يخيس بعهده ، بل يمضى فيه على ما كان من عسر ويسر لا يفتنه الفقر عن لزوم الطاعة ، بدعوى أنه لم يصب من ولى الأمر ما يبعد عنه شبح الفقر ، او يطغيه الغنى ، اذ يجد من بسطة العيش ما يدفعه الى التعالى ، وعدم الاذعان والاستسلام وفاء بحق البيعة والتزاماتها ، وفى قوله ﷺ فى الحديث والمنشط والمكره ، وعلى اثرة علينا ، تحديد آخر لجوانب السمع والطاعة الواجبة ووفاء بحق البيعة وان السمع والطاعة لولى الأمر لا يكون تبعا للأمزجة والأهواء بل هو التزام مفروض أن يلتزمه المسلم فيما احب وكره،ومن الارتباطات التى يرتبط بها المسلم ومن حقه الوفاء بها لدعم الثقة فى تبادل المنافع ، عقد الشركة وعقد البيع وعقد النكاح وعقد اليمين ، قال بعض العلماء : ومثله عقد الاجارة والحق أن العقود جمع عقد ، وهو ما يتعاقد عليه الناس مطلقا وجمع لتعدد انواعه ، ويشترط فى وجوب الوفاء به ، الاّ يكون على معصية ثبتت بالنص أى كالقتل والسلب واحداث القلاقل بين المجموع والاخلال بالامن ، وغير ذلك مما لا تحده الأمثلة ، فالتعاقد عليه باطل ، لايصح الوفاء به ،

بل هو منكر يجب قمعه ، وما عدا ذلك فالوفاء به مطلوب مفروض ، كما قال تعالى :

﴿ ياأيها الذين آمنوا اوفوا بالعقود ﴾

ويدخل فى هذا الاطار ، المقاولات التى يجرى التعاقد عليها فى البناء ، وغيره من المنافع ، التى يشترط المتعاقد أن فيها شروطا ومواصفات ، وأمدا للفراغ منها ، وكذا المعاملات التجارية ، وكل منفعة يصح فيها التبادل وتشترط فيها شروط معينة تتفق مع قواعد الشرع ، ويتجافى المتعاقد فيها عن المحظور وعلى سبيل المثال لعقود المنافع المتبادلة والتى لايجوز التعاقد فيها ، عقود الربا مع البنوك وأخذ الفائدة المشروطة المحدودة كائنين فى المائة أو اكثر او أقل ، مما تواضع عليه العرف فى معظم الاقطار والامصار ، تقليدا للغرب وجريا على مخططاته ، كل ذلك مما يدخل تحت اطار الحظر ولا يجب الوفاء به بل لا يصح التعاقد عليه ، وهو مخبر لصدق اسلام المسلم ومدى اعتداده بدينه والأخذ فى جملتـه سواء ما يتصـل بالعبادة وحق الخالق ، أو المعاملات وحق المخلوق ويدخل بعض العلماء فى اطار الوفاء ، وفاء المرء لماضيه وتجدد نعم الله عليه ، وابداله من الفقر غنـى ، ثم يوردون قصة ثعلبة ، وما افاء الله به عليه من الغنى بعد الفقر ، وتنكره لما فيه وضوح حق الله من الزكاة ، فى قرآن يتلى ليكون به العبرة لكل من يصنع مثل صنيعه ، قال تعالى :

﴿ ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهـم معرضـون فاعقبهم نفاقا فى قلوبهم الى يوم يلقونه بما اخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون ﴾

الآيات ، وإنها لعبرة لكل متنكر لماضيه جاحد لنعم الله عليه فهل من معتبر ؟

مثل الإخاء الصادق

سقوط الكلفة بين الاخوة ، أو التخفيف من تجشمها ، تجافيا عن الارهاق ، لمن أخلص الود ، وتفانى فى القيام بالعهد ، من أبرز براهين الاخلاص فى الاخاء ، وحسن الولاء ، وذلك ان الكلفة بين الاخوة ، من بواعث القطيعة ، وأسباب فل الروابط ، ووقوع الوحشة ، وذلك مما يجب التباعد عنه ، فالمسلم للمسلم كالبنيان الذى يجب الاّ تكون فيه ثغرة ، بل يبقى متضامنا متماسكا ٠

نقل عن الفضيل رحمه الله قوله : ـ (إنما تقاطع الناس بالتكلف يزور أحدهم اخاه فيتكلف له فيقطعه ذلك عنه) ولئن كان ذلك على عهد الفضيل ، اعنى التكلف للأخ عند زيارته ، والتصنع له عند لقائه ، والزمان لم يصطبغ بعد بالصبغة المادية ، والتكلف للاخوان انذاك لم يكن عن مجاملة لاواقع لها ، وانما كان عن حب ورغبة فى الاكرام ، وتفان فى القيام بحق الاخاء ، فكيف به فى اعقاب الزمن ، كيف بالناس فى عصر طغت فيه المادة على كل القيم ، وأسرف الناس فيه فى المظاهر ، واعتمدوا التكلف كظاهرة للاحتفاء والاخلاص ، دون أن يكون لهذه الظاهرة فى النفس أثر ؟ تجد مثلا سواد الدهماء ، عندما يلتقى احدهم بالآخر يهشّ له ويبش فى وجهه ، ويبادله جمل الترحيب ، ويشد على يديه بحرارة ، محاولة فى اقناعه ، بأنه الأخ الصفى ، والصديق الحميم ، وقد يكون فى واقعه على العكس من ذلك ، يضمر له الحقد ، ويكون حربا عليه ، لاسلما له ، واليد التى يمدها بالسلام ، لاتتورع ان تمتد لتطعن من الخلف ، ثم تكلف الناس للزيارات ، وابداء المجاملات ، لدرجة تفوق الواجب ، من احسان الوفادة ،

وكريم الضيافة ، لم يكن سالما من الشوائب ايضا ، لم يكن لمجرد الحب فى الله ، والاخلاص لاخوة الاسلام ، وانما كان للغرض ، إما لمصلحة ترتجى ، كما قال ابن عباس رضى الله عنهما ، يصف واقع الناس على عهده : وقد أصبحت عامة مؤاخاة الناس للدنيا ، وذلك لايغنى عن أهله شيئا ٠

وإما لبأس يتقى ، كصنع البعض ممن يتزلف لكل صاحب سلطة ، خشية أن يناله بأذى ـ واذ أضحى التكلف للاخوة على عهد الفضيل رحمه الله ، سببا فى القطيعة، فأحرى به ان يكون كذلك فى أعقاب الزمن ،إذ يزول بزوال الحوافز اليه ، والدوافع عليه ، من تحقيق غرض ، أو زوال رهبة ٠ ولقد ذكر بعض العلماء رحمهم الله ، حدوداً لترك التكلف بين الاخوة ، كمنهج للمسير يضمن الألفة ، ويباعد عن الجفوة فقال : يجب الاّ يكلف الأخ أخاه ، مايشق عليه ، أو يحمله شيئا من أعبائه ، فلايستمد منه من جاه ، أو مال ولايكلفه التواضع له ، والقيام بحقوقه ، بل لايقصد بمحبته إلا الله تعالى ، تبركا بدعائه واستناساً بلقائه ، واستعانة به ، على أمر دينه ومن هذا العرض نستشف واقع الاخاء الصادق ، البعيد عن الكلفة ، النزيه عن الغرض والذى يؤجر عليه المسلم ، إذ يكون حبا فى الله ، واخلاصا لاخوة الاسلام ، ونقل عن الامام على كرم الله وجهه ورضى عنه ، فى ذمّ من يعتد بالتكلف ، كظاهرة لحسن وداده ، وصدق إخائه : ـ شر الأصدقاء من تكلف لك ، ومن احوجك إلى مداراته وألجأك الى الاعتذار ٠ اى كان هذا شأنه ، ـ يرهق صديقه من أمره عسرا ، يتكلف فى صحبته ، ويجهد نفسه فى مداراته ، خشية غضبه ، ويعتذر إليه عن كل بادرة قد يضطغنها عليه ، فيجرعّه الغُصص فلايصفو بينهما زمان ، ولايستقيم لهما الحال ، وليس هذا مما تدوم به الصحبة ٠

سأل احدهم بعض الحكماء قائلا : من أصحب ؟ قال : ـ اصحب من يرفع عنك ثِقل التكلف ، وتسقط بينك وبينه مؤونة التحفّظ ٠ اى انه لايكون لصحبته ، عبئا ثقيلا على أصحابه ، ونقل من قول جعفر بن محمد الصادق : ـ

أثقل اخوانى عليّ ، من يتكلف لى ، وأتحفّظ منه ، واخفّهم على قلبى ، من اكون معه كما اكون وحدى • اى لايكون عليه حرج منه لو تبسط فى قوله او تبذل فى لبسته أو أرخى العنان لنفسه ، فى معالجة ماليس عليه منقصة منه ، فى دينه ، او خلقه ، من لهو برىء او مداعبة مرحة وما إليه •

الا وإن من ترك التكلف مع الاخوة ، نكران الذات ، وذلك بالاّ يذهب المرء بنفسه مذاهب يرتفع بها عن غيره ، بل إن من كمال مثاليته ، كما قال العلماء : ـ أن يرى نفسه دون اخوانه ، وان يحسن الظنّ بهم ، ولو بدر منهم بوادر جفوة ، أو سوء معاملة ، وأن يسيء الظن بنفسه ، ويتهمها ، فى كل ماتنازعه فيه ، من غضٍّ فى حق الاخوة ، أو تسلّط عليهم ، نقل عن بعض العلماء قوله : ـ اخوانى خير منيّ ، قيل وكيف يكون ذلك ؟ قال كلهمّ يرى لى الفضل عليه ، ومن فضّلنى على نفسه ، فهو خير منى • فاذا لم ترتفع النفس الى هذا الفضل ، ولم ترتق إلى هذه الدرجة من الكمال ، فليحرص ان يصحب من لا يسقطه من حسابه ، وان يرى له من الفضل ، كالذى يراه لنفسه ، إذ لاخير فى صحبة من لايرى لك مثل مايراه لنفسه ، ومن مظاهر ترك التكلف ايضا ، الاّ يعتد المرء برأيه ، ويحتقر رأى غيره ، بل عليه ان يأخذ بمبدأ المشورة المشروع ، وخاصه مع من يمحضه النصح من الاخوة ، ولايشك فى حسن ولائه ، وغاية ترك التكلف ، الافضاء بالسرّ الى الصفوة من الاخوة تنفيساً للنفس ، وترويحا عن الخاطر ، ومشاورة لهم فيما يهمه ، وتقليب وجهات النظر معهم ، فقد يكون فى ذلك من المصلحة له ، ما تقرّ به عينه •

الرحمة خلق المسلم

القلب العطوف والاحساس المرهف ، والعاطفة الحانية كل اولئك مما يربى الاسلام المجتمع عليه ، ولعل فى الناس ، من يكون على العكس ، يكون ذا قلب متحجر ، واحساس متبلد ، وعاطفة جامدة ، ولذلك كان مما عنيت به التعاليم الاسلامية ، تصويراً لمعانى الرحمة ، بمختلف الأساليب كوسيلة لتهذيب الطباع ، وترقيق المشاعر ، وايقاظ العاطفة ، اتصاف الرب جل جلاله بصفة الرحمة ، وان رحمته وسعت غضبه ، وانه يرحم من عباده الرحماء ، وذلك مايوجه الانظار إلى التكمّل ، والاتصاف بصفة من صفات الرب جل جلاله ، واخذ النفس بما يفرضه هذا الوصف من مسح الآلام ، ورفع كابوس المحنة ، عن البؤساء ، ومدّ يد العون إلى ارباب الضرورات والمحرومين ، كمظهر لخفقة القلب بالرحمة ، وتأثر الحس ويقظة العاطفة .

ويأتى تصوير معانى الرحمة فى سرد واقع السلف الأمجاد ، وقدوتهم وإمامهم رسول الهدى ﷺ كما قال تعالى :

﴿ محمد رسول الله والذين معه اشداء على الكفار رحماء بينهم ﴾

والمسلم المتفتح الوعى ، يدرك من سرد هذا الواقع ، ضرورة السير على الدرب ، والتأسى بالخيار والصفوة ، من سلف الامة ، وامام الهدى ، من بعثه الله رحمة للعالمين فيغدو فى مجتمعه خير مثل لاشاعة الرحمة ، والتواصى بها ، متمثلا قول

الرسول الكريم (**مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى**) اى ان تراحمه لايقف عند حد الاسهام فى مد رواق البر والصلة وتخفيف وطأة الحاجة عن ارباب الضرورات ، اى فى الآمال فقط ، بل يجتاز ذلك إلى المشاطرة فى الآلام ، فلهذه المشاطرة وقعها ، وأثرها الطيب ، فى النفوس المرزوءة ، ويأتى تصوير معانى الرحمة ، بالحث عليها ، والوعيد الصارخ لمن يخرج عن المخطط المرسوم لها ، كما جاء فى الحديث (**ارحموا من فى الارض يرحمكم من فى السماء من لايرحم الناس لايرحمه الله لاتنتزع الرحمة الا من شقى** ٠)

ويأتى الحث عليها عن طريق الاغراء ، وسرد القصص ، ليكون اوقع فى النفوس ، كما جاء فى بعض الآثار (إن الله اتى بعبد من عباده قد آتاه مالاً ، فقال له ما عملت فى الدّنيا ـ قال : يارب كنت ابايع الناس وكان من خلقى الجواز ، اى التسامح معهم ، فكنت أيسر على الموسر وانظر المعسر فقال الله : نحن أحق بذلك منك ، تجاوزوا عن عبدى) وفى ختام الحديث ، وادخله الجنة ، اى كان طابع معاملته للناس ، الرحمة ، فجوزى من جنس عمله ، ومن ذلك قوله ﷺ (ايكم يسره ان يعتقه الله من فيح جهنم ؟ قلنا اى الصحابة كلنّا يسره ذلك ـ قال : من انظر معسرا او وضع له وقاه الله فيح جهنم ، انا وكافل اليتيم فى الجنة كهاتين واشار ﷺ بإصبعيه السبابة والوسطى ، والذى بعثنى بالحق لايعذّب الله يوم القيامة من رحم اليتيم ، والان له الكلام ورحم يتمه وضعفه) إلى غير ذلك من التوجيهات النبوية الكريمة ، فى مختلف اساليبها ، مما يحفز الهمم ، للتأدب بهذا الادب الرفيع ، والتخلق بخلق المرحمة ، والتجافى عن الغلظة ، والجفاف فى معاملة الآخرين ، ويأتى تصوير معانى الرحمة فى مظهر الشدة والنقمة وذلك فى ظروف خاصة كالاقتصاص من الجانى رحمة به واستصلاحا لمستقبل حياته ، لقوله ﷺ :(انصر أخاك ظالما أو مظلوما) ففى التعاون معه على نفسه ، وحملها على الجادة ، أو قسرها بالقوة ، عن الكف عن

ظلمها ، فى ذلك رحمة به أو رحمة للمجموع ، من أن يمتد إليه خطره وضرره ، ومن معانى تصوير الرحمة التى فرضها الاسلام ، وربى عليها اتباعه ، العدالة فى استيفاء القصاص ، فقد فرض الشرع عدم الاعتداء فيه ، كما قال تعالى :

﴿ ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا فلا يسرف فى القتل ﴾

ولقد اتسعت ابعاد الرحمة حتى شملت العجماوات وذلك ارفع مثل لتصوير معانى الرحمة فى اوضح صورة الى غير ذلك من التوجيهات الاسلامية الكريمة لاشاعة الرحمة والتخلق بها كأدب للنفس ٠

أثر الصبر في حياة المسلم

إن الحياة فى واقعها ، لم تكن فى كل ادوارها ورودا ورياحين ، يقطع المسلم اشواطها فى يسر ورخاء ، وبين رواء الورود ، وشمّ الرياحين ، بل إنها تجمع الحلو والمر ، ويكون الى جانب اليسر عسر ، والرخاء شدة ، وإلى جانب النعيم بؤس ، وهكذا ، لن تصفو أبدا ، وكل ذلك مما يتطلب من المسلم ، جلدًا وتحمّلا وتوطينا للنفس على المكاره ، وذلك مما يعبر عنه فى كلمة موجزة (بالصبر)

فالمسلم دون صبر ، كالريشة فى مهبّ الريح ، تذهب بها الرياح يمنة ويسرة ، فلايستقر له حال ، أو يصلح له شأن ، بل يبقى حيران مذبذبا ، حتى فى عقيدته وايمانه ، فكل ابتلاء يبتلى به المسلم فى دنياه ، هو محك لايمانه ، ومخبر لمدى اعتداده بالصبر ، ولذلك كان أشد الناس بلاء رسل الله وأنبياؤه ، صلوات الله عليهم ، فلكم ابتلوا بايذاء قومهم ، ليرسموا بذلك أفضل منهج ، يسلكه المسلم ، حين يؤذى فى الله ، أو فى سبيل عقيدته ، فيصمد أمام خصومه ، قوى الشخصية ، رابط الجأش لاينهنه عزيمته ، او يخرجه عن صبره ، افن المأفونين ، وتجنّيهم عليه ، قال تعالى :

﴿ ولنبلونّكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم ﴾

وقال تعالى :

﴿ الم احسب الناس ان يتركوا ان يقولوا امنّا وهم لا يفتنون ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين ﴾

ولقد ذكر الله الصبر فى جملة مواضع فى كتابه شحذاً للهمم فى الأخذ به فتارة يقرنه بعمل صالح ارتفاعا بشأنه كما قال تعالى :

﴿ ياايها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة ان الله مع الصابرين ﴾

واخرى يوضح انه الوسيلة الصالحة للخلافة فى الارض والامامة فى الدين ، كما قال تعالى :

﴿ وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بأياتنا يوقنون ﴾

وتارة يوحى بأنه وظيفة اولى العزم من الرسل لتستشرف النفوس الى مقامهم والأخذ بما وطنوا أنفسهم عليه .

جاء فى الحديث عن ام المؤمنين عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ قال : (**ان الله لم يرض من اولى العزم من الرسل الا بالصبر ولم يرض الا ان كلفنى بما كلفهم به فقال (فاصبر كما صبر اولوا العزم من الرسل) والله لاصبرن كما صبروا**)

وجاء فى الحديث قوله ﷺ (**عجب امر المؤمن إن أمره كلّه عجب ، ان اصابته سراء شكر ، فكان خيرا ، وإن أصابته ضراء صبر ، فكان خيرا له**) وليس ذلك الا للمؤمن ، ذلك ان المؤمن ، متى تذرع بالصبر ، لم يعد يكترث بمر البلاء ، اذ ينزل به ، بل يصبر ويحتسب ، ويضرب اروع الامثال فى مجتمعه ،

على ثباته ، وعدم تبرمه ، لدرجة انهيار اعصابه ، او زلزلة يقينه بالله ، ولذلك ، كان الجزاء عظيما ، بقدر تذرع المسلم بالصبر ، على متاعبه ، ومشاكل الحياة ، ومر البلوى ، كما جاء فى الحديث (**إن عظم الجزاء مع عظم البلاء ، وإن الله إذا احب قوما ابتلاهم فمن رضى فله الرضى ومن سخط فله السخط**) اى من رضى بقضاء الله النافذ ، وقابله بالصبر ، ولم يضجر أو يتبرم امام الفواجع كصنيع النساء فله الرضا من الله وعلى العكس من سخط وانهزم امام نفسه فله السخط من الله جزاء وفاقا) •

ولقد أثر من قول أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه (وجدنا خير عيشنا بالصبر) اى صفت لهم الحياة بالصبر ، فلم يعودوا يشكون دهرا أو يبكون فارطا ـ وانما كانوا أقوياء لاتزعزعهم الخطوب ولاتفجعهم الكوارث أو أحـداث الليالى • وأثر من قول الإمام علىّ كرم الله وجهه فى ايضاح منزلة الصبر ، إن منزلة الصبر من الايمان ، كمنزلة الرأس من الجسد ، ـ وقال : ـ الا لا إيمان لمن لاصبر له ، ووصف الرسول الكريم ، واقع الصبـر فى حديث طويل فقـال : (والصبر ضياء) اجل انه الضياء الذى يشق به المسلم ظلمة المحن كما قال احد العلماء : إذا استحكمت الازمات ـ وتعقدت حبالها ـ وترادفت الضوائـق وطال ليلها فالصبر وحده هو الذى يشع « النور » العاصم من التخبط ، والهداية الواقية من القنوط •

والصبر فى شموله يعنى امورا ثلاثة هى ابرز مواقفه الأمر الأول الصبر على طاعة الله ويدخل فى هذا الاطار كلّ ما يلاقيه المسلم من جهد اثناء قيامـه بالتكاليف المفروضة وهى وان لم تشق على المسلم فقد شرعها الله فى مقدور كل احد ان يؤديها بحسبه إلا أنها فى حاجة إلى مجاهدة النفس والصبر عليها لتقوم بالواجب • الأمر الثانى الصبر عن محارم الله ويفرض أن يكون المسلم قويا امام نفسه جلدا على جهادها ومصابرتها بحيث لاينهزم تحت تأثير ايحائها ويندفـع

بارتكاب المحظور باندفاعاتها الأمر الثالث الصبر على اقدار الله المؤلمة ومظهر ذلك الرضاء والتسليم بقضاء الله وقدره حلوه ومره يدخل فى هذا الاطار كل ما يعترض العبد من متاعب الحياة من شدة وكرب بعد رخاء ويسر ومن مرض واعتلال بعد صحة ونضارة ، ومن بؤس وفقر بعد غنى ويسار ـ جاء فى الحديث (**ما يزال البلاء بالمؤمن فى ولده وماله حتى يلقى الله وما عليه خطيئة**) وجاء أيضا (**مايصيب المسلم من نصب ولاوصب ولاهّم ولاحزن ولاغم حتى الشوكة يشاكها الا كفر الله بها من خطاياه**) .

في إطار المهابط (١)

قلت : عن أدب النفس ، إن الحديث عنه ذو شقين ، الشق الأول ، يتناول المثل التى يجب أن يستمسك بها المسلم .

والشق الثانى عن المهابط التى يجب أن يتجافى عنها المسلم ، إذ هى مما يتنافى مع خلقه ، والتربية التى يريدها الاسلام له ، وسوف نراوح بين المثل الكريمة والمهابط ليحتذى المسلم الأولى ، ويتجافى عن الثانية ، ذلك أن الاسلام ، يربى المسلم على الأخذ بذلك ، أمّا لو أخذ المسلم بالفضائل ، وكان إلى جانبها هنات لم يأخذ نفسه بمحاربتها ، والتخلص منها كان كمن بنى قصرا ، وبالغ فى التأنق فيه ، وإلى جانب هذا البناء الرائع قوض هذا القصر الشامخ ـ بعدوانه وطغيانه ، فتعصف السيئة بالحسنة ، ويذهب رونق بناء القصر ، فى ساحة الهدم والتدمير، نضرب لذلك مثلا بالعابد ، الذى أفنى العمر فى الطاعة ، وطلب الزلفى إلى الله ، ولكن كان سيء المعشر ، ترتفع معايير سيئاته إلى الناس على حسناته ، هل يصل بعبادته ، ومسلكه فى التوجه إلى الله ، إلى ما يصبو إليه ، من كريم المنازل والرضوان ؟ نستمع إلى الاجابة عن هذا السؤال ـ من قول الرسول ﷺ حيث يقول لمن سأله قائلا :

(يا رسول الله ، إن فلانة تذكر من كثرة صلاتها ، وصيامها ، وصدقتها ، غير أنها تؤذى جيرانها بلسانها ، فقال : هى فى النار) رواه أحمد وماذاك الا لأن اكتساب الفضائل ، واستباق ميدان الحسنات ، لابد إلى جانبه ، من اجتناب

المهابط والرذائل ، والا لم يكن للفضائل والمحامد والحسنات أثر ، يوصل إلى غاية كريمة فيغدو المسلم مهزوز الشخصية تتقاذفه الأهواء فترجح كفة سيئاته على حسناته وفضائله إن كان له فضائل ٠

ولقد استرعى النبى ﷺ مرة انظار أصحابه ـ بسؤال وجهه إليهم ـ وقال : ـ (أتدرون من المفلس ؟ قالوا : المفلس فينا من لادرهم له ولا متاع) فصحح لهم الرسول الكريم هذا المفهوم بذكر واقع المفلس عندما ترجح معايير العباد بأعمالهم ٠

فقال : (المفلس من أمتى من يأتى يوم القيامة بصلاة وزكاة وصيام ويأتى وقد شتم هذا وقذف هذا وأكل مال هذا وسفك دم ذاك وضرب هذا فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته ـ فان فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح فى النار) رواه مسلم فأى افلاس وأى خسارة أعظم من هذه الخسارة ٠

نبدأ بسرد جملة من المهابط ، جاءت مجتمعة أو جاء التحذير عنها فى حديث واحد يقول رسول الله ﷺ : **(اياكم والظن فان الظن أكذب الحديث ولا تجسسوا ، ولا تحسسوا ولاتنا فسوا ولا تحاسدوا ، ولا تباغضوا ولا تدابروا ، وكونوا عباد الله اخوانا كما أمركم الله تعالى ، المسلم أخو المسلم ، لا يظلمه ولا يحقره ، بحسب أمرى من الشر أن يحقر أخاه المسلم ، كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه)** ٠

فهذه المهابط الواردة فى الحديث تصور أبشع مثل لمن يتصف بها وتكون ديدنه بين أفراد المجتمع المسلم المتضامن فى الآمال والآلام ٠٠ كالجسد الواحد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى ٠ فسوء الظن بالمسلم كما وصفه الرسول الكريم أكذب الحديث لأنه لا يرتكز على واقع بل يقوم على الوهم والتخيلات والأخذ بالشبهة لقد ضرب الرسول الكريم مثلا للأمة ـ

ليرتفع بها عن سوء الظن، فتقع فى الهلكة، وتنفصم عرى الاخاء والمودة بينها ، فلقد كان ﷺ يقطع بعض طرق المدينة ليلا ووراءه زوجه فالتفت فاذا برجلين يستحثان الخطى ليبعدا بانظارهما عن رؤية النبي ومن معه فناداهما قائلا : (**على رسلكما انها صفية بنت حيبى**) أى زوجه ليبعد بذلك سوء الظن عنهما مع أنهما لم يكن يخطر على باليهما شيء من إساءة الظن بالرسول الكريم وهو المثل الرفيع للانسانية الكاملة ولكنه ﷺ أراد أن يرتفع بالأمة فى شخص الرجلين عن اساءة الظن بالمسلم ويعلن أنها من المهابط التى يجب أن يرتفع عنها المسلم وألاّ يلقى بالا لما تحدثه به نفسه أو غيره من أوهام يبنى عليها واقعا لا وجود له الا فى مخيلته التى أفسدها سوء الظن والذى أضاع به على نفسه فرصة كسب الوقت فى عمل له أثره وجدواه فى دنياه وعقباه ـ وحسبنا تنفيرا من اساءة الظن وعدم الاشتغال به قول رب العزة مخاطبا عباده المؤمنين وهم الصفوة ممن يعقل عنه ويستجيب لأمره :

﴿ يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن ان بعض الظن اثم ﴾

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله فى تفسيرها : ـ يقول تعالى ناهيا عباده المؤمنين عن كثير من الظن وهو التهمة والتخون للأهل والأقارب والناس فى غير محلّه لأن بعض ذلك يكون اثما محضا فليجتنب كثير منه احتياطا • ثم نقل قول أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه قال : ـ ولا تظنن بكلمة خرجت من أخيك المؤمن إلا خيرا وأنت تجد لها فى الخير محملا • وأردف بحديث عبدالله ابن عمر رضى الله عنهما قال : رأيت رسول الله ﷺ وهو يطوف بالكعبة ويقول : **(ما أطيبك وأعظمك ، وأعظم حرمتك والذى نفس محمد بيده لحرمة المؤمن أعظم عند الله تعالى منك ماله ودمه وان يظن به إلاّخيرا)** •

في إطار المهابط (٢)

سبق أن أوردت الحديث النبوى الجامع الذى يرتفع بالأمة عن المهابط والذى يحذر فيه الرسول الكريم ﷺ عن مجموعة منها هى كما قال بعض العلماء تبدو للنظر تافهة الخطر غير أنها لمن تدبر عواقبها تصدع القلوب وتجفف عواطف الود منها • وقد قصرنا الحديث الماضى على اساءة الظن بالمسلم ونصل الحديث عن بقيتها مبتدئين بالتجسس حيث ورد النهى عنه فى الحديث فقال ﷺ : (**ولا تجسسوا ولا تحسسوا**) والمعنى بين التجسس بالجيم والتحسس بالحاء متقارب من حيث اللغة والقصد يقال تجسس الأخبار والأمور بحث عنها والجاسوس هو الذى يتجسس الأخبار ثم يأتى بها ـ ويقال تحسس الخبر بالحاء المهملة سعى فى إدراكه وكلا المعنيين لا يبعد عن الآخر وقيل التجسس يكون بتتبع الأخبار عن طريق الاستماع إلى رواتها والتحسس عن طريق العين ورصد أحوال الناس واحصاء حركاتهم لنقل ذلك عنهم إما للإضرار والنكاية بهم أو للتزلف بذلك او لمجرد التفكه بنقل أخبار الناس وكشف ما ستروه من عيوبهم. وكل ذلك دليل على تفاهة الشخصية وهبوطها وهو محرم لا يصح أن يجترىء عليه المسلم فى أى مجال مهما كانت الحوافز والاغراءات فلقد ورد الوعيد الصارخ فى ذلك بما يردع أرباب العقول المستقيمة والضمائر اليقظة عن ان ينزلقوا إلى دركات التجسس أو يتحسسوا عورات المسلمين وينشروها ، فعن ابن عمر رضى الله عنهما قال صعد رسول الله ﷺ المنبر فنادى بصوت رفيع وقال : (**يا معشر من أسلم بلسانه ولم يفض الايمان إلى قلبه ، لا تؤذوا المسلمين ولا تعيروهم ولا**

تتبعوا عوراتهم فانه من يتبع عورة أخيه المسلم يتبع الله عورته ويفضحه ولو فى جوف رحله) أى بيته ، وقال : ـ (من أكل برجل مسلم أكلة ـ أى جر الى نفسه بضرر أخيه مغنما فان الله يطعمه مثلها فى جهنم ، ومن كسا ثوبا برجل مسلم فان الله يكسوه من جهنم) • واذا كان الاسلام قد حظر على المحتسب أى من أنيط به أمر تغيير المنكر وأعطى السلطة لذلك حظر عليه أن يتجسس ليتعرف المنكر وليعاقب أهله ليحول دون استفحال خطره وامتداد شره ـ فلقد نص العلماء رحمهم الله فى باب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر أن طلب المعرفة بجريان المنكر منهيّ عنه لأنه من التجسس وقالوا : لا يجوز له أى المحتسب أن يسترق السمع على دار غيره ليسمع صوت الاوتار ولا ان يستنشق ليدرك رائحة الخمر ولا أن يتحسس ثوب المتهم ليعرف شكل المزمار ولا أن يستخبر من جيرانه ليخبروه بما يجرى فى دار جارهم من المنكر ، ولا يغربن عن الأذهان قصة الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضى الله عنه مع الرجل الذى تسلق عليه داره ورآه على منكر فأنكر عليه وحاجه الرجل بقوله : يا أمير المؤمنين إن كنت أنا قد عصيت الله من وجه واحد فانت قد عصيته من ثلاثة أوجه يقول الله سبحانه ولا تجسسوا وقد تجسست علىَّ ويقول وأتوا البيوت من أبوابها ، وقد تسورت علىّ من السطح ، ويقول :

﴿ يا أيها الذين آمنوا لاتدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تسأنسوا وتسلموا على أهلها ﴾

ولا استأذنت ولا سلمت • فلم يكن من الخليفة وقد حجه الرجل الا أن تركه دون أن ينزل به عقابا بل شرط عليه التوبة • وقد استشار الخليفة عمر رضى الله عنه الصحابة رضى الله عنهم وهو على المنبر وسألهم عن الامام اذا شاهد بنفسه منكرًا فهل له إقامة الحد فيه فأشار الامام على رضى الله عنه بأن ذلك منوط بعدلين فلا يكفى فيه واحد • وجملة القول أن العلماء رحمهم الله بما لهم من ملكة الاستنتاج وفهم النصوص الشرعية لم يتركوا فى باب إنكار المنكر ثغرة لمحاولة

التجسس والكشف عن عورات الناس وتتبع أحوالهم وأخبارهم وابداء ما يسترونه بدعوى الغيرة على محارم الله أن تنتهك ، نعود فنقول إذا كان الاسلام لم يرخص لمن أنيط به أمر إنكار المنكر تفاديا من تدهور المجتمع أن يسلك أى سبيل للتجسس فهل يصح شرعا أن يتجسس أى مسلم على أخيه ليهتك ستره ؟ اللهم لا ٠

وإذن فالتجافى عن التجسس مما يأمر به الدين وعلى العكس من ذلك التردى فى دركاته والأخذ به فى أى مجال مما نهى عنه الدين وهو دليل على تفاهة الشخصية وانحلالها وهبوطها عن المستوى الرفيع الذى يجب أن يكون فيه المسلم ٠

الفصل الثاني

في محيط الأسرة

- إباحة الإسلام تعدد الزوجات .
- بعض حِكَم تعدد الزوجات .
- الوصيّة بالزوجات عند قيام عارض النفور .
- استيفاء المطلقات حقوقهن المالية .
- الطموح !
- القوامة على النساء !
- حديث عن النشوز !
- مع واقع المرأة في هذا الدين .
- النشوز أيضاً .
- في دروب العدل بين الزوجات .

إباحة الإسلام تعدد الزوجات

من المواضع التى أثارت حفائظ خصوم الاسلام ، واتخذوها وسيلة للقدح فيه موضوع اباحة الاسلام لتعدد الزوجات ، ونحاول فى هذه السطور أن نلمع إلى وجهة نظر الاسلام فى ذلك ، دحضا لفرية المفترين ، المتجنين عليه من خصومه •

قال الله تعالى :

﴿ وان خفتم ألَّا تقسطوا فى اليتامى ، فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع ﴾

وهذه الآية نص فى الوصية ، بحفظ حقوق اليتيمات ، ويدخل ضمنا ، كل النسوة ، إذ أن الوصية بحفظ الحقوق ، عدل ، والعدل شريعة الله لن يجانبه ، الا معتد آثم ، وخاصة بالنسبة للضعفاء فى الأمة ، كالنساء واليتامى • وقد كان أولياء اليتيمات فى الجاهلية ، يغمطونهن الحقوق ، ويتجنون عليهن ، كما جاء فى الصحيحين وغيرهما ، عن عروة بن الزبير ، أنه سأل خالته أم المؤمنين عائشة عن هذه الآية فقالت : ـ هذه اليتيمة تكون فى حجر وليها تشركه فى ماله ، ويعجبه مالها وجمالها فيريد أن يتزوجها فلا يعطيها صداقا فنهوا ان ينكحوهن الا أن يقسطوا اليهن ، ويبلغوا بهن ، أعلى سنتهن فى الصداق ، وأمروا أن ينكحوا ما طاب لهم من النساء سواهن •

غير أن هذه الاباحة فى نكاح ما يطيب للرجال من النساء لم تكن على

اطلاقها بل قد وضع لها الاسلام حدوداً ، وقيوداً تتفق مع الحكمة من اباحة التعدد ، أما الحدود فقد أوضحت الآية الكريمة ، أن تعداد من يصل المرء حبالهن بحباله ، فى عقد الزوجية يجب الاّ يتجاوز الأربع ، وأوضحت السنة ذلك عمليا ، فقد جاء فى الحديث ، عن ابن عمر رضى الله عنهما (أن غيلان بن سلمة كان عنده عشر نسوة فأسلم وأسلمن معه فأمره النبى ﷺ أن يمسك منهن أربعا ويطلق سائرهن) وفى ذلك رد صريح على من يزعم جواز الجمع بين أكثر من أربع نسوة .

وأما القيود التى فرضها الشرع لاباحة التعدد فى الزوجات ففى طليعتها بل هو عصبها ومحورها العدل بينهن .. فى كل ما هو مفروض على الزوج لزوجه ، من المأكل والمشرب والمسكن والملبس والمبيت وما إليه مما يكون فى التسوية فيه حفظ التوازن بين الزوجات ، والتجافى عن الحيف ، فى كل مظهر من مظاهره ، ولقد ضرب رسول الهدى ﷺ للأمة ، المثل الواضح الرفيع فى ذلك ، بالعدل بين زوجاته ، حتى فى مرضه الذى توفى فيه كان يحمل إلى صاحبة النوبة للمبيت عندها ، وعندما أثقله المرض استأذن زوجاته فى أن يمرض فى بيت عائشة فاذنّ له ولم ينتقل إليها الا بعد أن قال لهنّ : ـ هل رضيتُن بذلك ، فقلن : ـ نعم .

ونص الفقهاء رحمهم الله أن على ولي المعتوه أن يطوف به على نسائه لضمان العدل بينهن فى المبيت ، وقالوا : ـ لايجوز للزوج الدخول على إحدى زوجاته فى نوبة الأخرى الا لضرورة مبيحة ، بل ذهب بعضهم إلى أبعد من ذلك ، حيث يقول : ـ اذا لم يعدل الزوج بين نسائه ، ورفع أمره إلى القاضى وجب نهيه وزجره ، فان عاد أى إلى عدم العدل ، عزرّ بالضرب لا بالحبس ، وكل ذلك مستوحى من شريعة الاسلام وروحه فى ضرورة التسوية ، وإقامة العدل بين النساء ، أما الميل العاطفى ، فليس على الزوج مأخذ ، فى انسياقه بعاطفته ، نحو بعض زوجاته ، دون البعض الآخر ، إذ أن ذلك شيء فوق ارادته ، ولا يمكنه التغلب عليه ، ولذلك ورد فى الحديث ان رسول الله ﷺ كان يقسم بين

نسائه ، ويعدل فى معاملتهن ويقول : ـ (اللهم هذا قسمى فيما أملك فلا تلمنى فيما تملك ولا أملك) • ويعنى بذلك الميل العاطفى ، وقد ورد الوعيد الصارخ ، فى حق المتجافى عن العدل ، فى قوله ﷺ (**من كان له إمرأتان ، فمال إلى احداهن دون الأخرى** وفى رواية **ولم يعدل بينهما جاء يوم القيامة وشقه مائل**) والمراد بذلك تعذيبه بهذا اللون من العذاب ، اقتصاصا منه ، وجزاء له من جنس عمله ، ودون هذه الحدود والقيود التى وضعها الاسلام للتضييق من دائرة التعدد ، لئلا يكون باعثه قضاء الوطر ، وتحقيق اللذة ، بل يعمد إليه كضرورة عند الحاجة ، دون ذلك ، فالتعدد محظور شرعًا اذ يكون مدعاة للعبث بالنساء ، ووسيلة للجور والظلم ، وافساد العشرة ، يؤيد الحظر قوله تعالى :

﴿ فان خفتم ألاَّ تعدلوا فواحدة أو ما ملكت ايمانكم ذلك ادنى ألاَّ تعولوا ﴾

أى الاقتصار على زوجة واحدة ، أو التسرى بملك اليمين ، أقرب إلى عدم الجور الذى يبغضه الله ولا يرضى أن يجنح العباد اليه •

وإن مما تجدر الاشارة إليه ومما يجب أن يتخذه المسلم ، أعظم برهان على الحقد المتأصل ، فى قلوب أعداء الاسلام ، الغارة الشعواء ، التى يشنونها عليه ليقللوا من أثره فى معالجة مشاكل الانسانية والأخذ بها إلى مدارج الكمال ، وزعمهم أن الاسلام دين لا يحقق العدالة ، بين الرجل والمرأة فلقد أجحف بها اذ جعل الرجل قيّماً عليها ، فسلبها الحرية الشخصية وأباح للرجل أن يقترن بأكثر من زوجة ، فى حين أنه لم يبح للمرأة ان تقترن بأكثر من رجل إلى غير ذلك من سلسلة الافتراءات على الاسلام والطعن عليه •

وليت شعرى أى دين أو تشريع يحقق العدالة إن كان الاسلام الدين الذى رضيه رب العزة لعباده لا يصنع ذلك ؟

وإن فيما قدمناه فى غضون هذا المقال من وضع الحدود والقيود لاباحة التعدد وجعله ضرورة لانزقا أو ترفا بالاضافة الى ما سنورده فى السطور التالية من إيضاح بعض حكم اباحة التعدد لأبرز دليل على أن الاسلام عالج مشكلة تعدد الزوجات علاجا فيه التنظيم والتقويم وقطع به دابر الفساد وضمن للمرأة حقوقها وصان عفافها وارتفع بها عن الانزلاق إلى مهاوى الرذيلة وحفظها من الابتذال والخلطة بالرجال فى مجالات كسب العيش ٠

بعض حِكم تعدد الزوجات

أولا ـ حفظ النوع البشرى واطراد الزيادة فيه بكثرة التناسل والاخصاب ٠

ثانيا ـ تضخم عدد النساء نتيجة للحروب التى كثيرا ما تنشب ويغدو الرجال ضحيتها ، فلولم يبح للرجل أن يتزوج بأكثر من زوجة لاضحى كثير من النساء عالة على المجتمع او ينزلقن إلى مهاوى الرذيلة بدافع البؤس والفاقة وكلا الأمرين خطير ٠

ثالثا ـ الحدّ من رذيلة اتخاذ الخليلات والخدينات المتعارف عليها فى بعض الأوساط غير الاسلامية ، فالغريزة الجنسية لابد من ارواء ظمئها وذلك شيء فطرى ، وكم للبيوت السرية ومواطن الرذيلة العلنية من مآسٍ تشهد بها الملاجيء المنتشرة لتلطيف المأساة والاخذ بيد الضحية ٠

رابعا : طرؤ الحمل والارضاع والحيض والنفاس على النساء والمرض مما يتعذر معه التغلّب على الدوافع الجنسية فلو لم يبح الاسلام تعدد الزوجات لانحرف عن الجادة فئات من الناس ٠

خامسا : المرأة بحكم وضعها كأنثى فى حاجة إلى حماية رجل تعيش فى كنفه يرعى مصالحها ويصون عفافها ويكفيها مؤونة الكسب لتفرغ لادارة البيت وتربية صغاره ، ولتنتقل بالذكور منهم إلى الاستعداد للرجولة وتهييء الاناث لما يجب أن يكنّ عليه مستقبلا من اللطف والاستعداد لحمل العبء كربات بيوت وزوجات ٠ فمن اين لمن هذا وضعها أن تكسب العيش وتوفر القوت والرجال

أقلية بالنسبة للنساء فلو لم يضم الرجل الواحد الى عصمته أكثر من زوجة لاضطر عدد هائل للنزول الى ميادين العمل طلبا للرزق وتوفيرا للقمة العيش كما هو ملاحظ فى بعض الأوساط الغربية حيث زاحمت المرأة الرجل فى مجالاته • هذه بعض حكم اباحة الاسلام لتعدد الزوجات فضلنا فى سردها الاشارة والالماع على الاطالة والإسهاب ونعرج بعدها على ما كتبه بعض المتزنات من كاتبات الغرب ونشر فى الصحف قبل أكثر من ربع قرن نقلا عن أوثق المصادر ولايزال على نهجهم فى الكتابة وابداء الأسى والألم على ما وصلت إليه الحالة فى الأوساط الغربية ، وما انحدر إليه الأكثرية من النساء فى الجرى وراء الرجل خليلا وخدينا بدلاً من أن يكون زوجا وقيما • لاتزال الكثيرات من المنصفات يكتبن فى ذلك ، جاء فى جريدة (لندن تروث) فى ٢٠ ابريل ١٩٠١م لكاتبة لم يظهر فى الجريدة اسمها : لقد كثرت الشاردات فى بناتنا وعم البلاء وقل الباحثون عن أسباب ذلك وانى أنظر إلى هاتيك البنات وقلبى يتقطع حزنا ، ماذا عسى ان يفيدهن حزنى وتوجعى ؟ لا فائدة الا فى العمل بما يمنع هذه الحالة الرجسة • ولله در العالم الفاضل (تومس) فانه رأى الداء ووصف الدواء وهو الاباحة للرجل فى التزوج أكثر من واحدة وبهذه الواسطة يزول البلاء لامحالة وتصبح بناتنا ربات بيوت ، فالبلاء كل البلاء فى اجبار الرجل الأوروبى على الاكتفاء بامرأة واحدة ، فهذا التحديد هو الذى جعل بناتنا شوارد وقذف بهن إلى التماس أعمال الرجال •

ونشرت جريدة (الاسترن ميل) فى العدد فى ١٠ مايو سنة ١٩٠١ للكاتبة (مس انى رود) ما ترجمته : لأن تشتغل بناتنا فى البيوت كالخوادم خير وأخف بلاء من اشتغالهن فى المعامل حيث تصبح البنت ملوثة بادران تذهب برونق حياتها إلى الأبد ـ الاليت بلادنا كبلاد المسلمين فيها الحشمة والعفاف والطهارة ـ انه لعار على بلاد الانجليز أن تجعل بناتها مثلا للرذيلة بكثرة مخالطة الرجال ، فما بالنا لا نجعل البنت تعمل بما يوافق فطرتها الطبيعية من القيام بأعمال البيت وترك أعمال الرجال للرجال سلامة لشرفها •

وكتبت جريدة (الايكو) للكاتبة (اللادى كوك) ما ترجمته : إن الاختلاط يألفه الرجال ولهذا طمعت المرأة بما يخالف فطرتها وعلى قدر الاختلاط تكون كثرة أولاد (....) وهنا البلاء العظيم على المرأة ، فالرجل الذى علقت منه يتركها وشأنها تتقلب على مضجع الفاقة والعناء وتذوق مرارة الذل والمهانة والاضطهاد بل والموت أيضا ، أما الفاقة فلأن الحمل وثقله والوحم ودواره من موانع الكسب الذى تحصل به قوتها ، وأما العناء فهو أنها تصبح شريدة حائرة لاتدرى ماذا تصنع بنفسها ـ وأما الذل والعار فأى عار بعد هذا ، وأما الموت فكثيرا ما تبخع المرأة نفسها .. أما آن لنا أن نبحث عما يخفف اذا لم نقل عما يزيل هذه المصائب العائدة بالعار على المدنية الغربية ، فالى عشاق هذه المدنية الغربية الزائفة الذين يتراكضون لتحقيقها فى المجتمعات الاسلامية مرة بالسفور وهتك الحجاب الشرعى ، وأخرى باختلاط النساء بالرجال ومزاحمتهم فى الأعمال ، إليهم نسوق هذه الكلمات التى تعبر عن آلام وآهات لنساء عاقلات مجربات قررنّ الحقيقة المؤلمة وتلمسن وطالبن بالحلول العاجلة لمشكلة الاختلاط بل وصرحت احدا هن بضرورة تعدد الأزواج مؤيدة رأى عالم من علماء أوروبا وكاتب من كتابها المفكرين فى أن هذا هو الحل أو الدواء الذى يرفع البلاء ـ وتمنت الأخرى أن تكون بنات مجتمعها أو بلادها كبلاد المسلمين فيها الحشمة والعفاف والطهارة .

والفضل فى ذلك للاسلام ونظامه الكافل لمصالح الأمة الشامل لعلاج أدوائها ، فهل من عودة إلى تحكيم الاسلام والتمشى طبق تعليماته وتشريعاته والأخذ به ككتاب هداية ودستور خالد لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ؟ نسأل الله التوفيق والهداية إلى ذلك ..

الوصية بالزوجات عند قيام عارض النفور

الأخذ بالعدل كمبدأ وكعقيدة متأصلة فى النفوس وكوسيلة تحفظ التوازن بين المجموع وتضمن السير فى ركب الحياة ، بعيدا عن المزعجات والقلق النفسى ، والاضطراب فى السلوك ، كل أولئك فى قائمة المخطط الاسلامى ، للمجتمع السعيد

﴿ ان الله يأمر بالعدل ﴾

﴿ واذا حكمتم بين الناس ان تحكموا بالعدل ﴾

﴿ يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنئآن قوم على ألَّا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى ﴾

ولئن كان العدل مطلوبا ان يأخذ به المسلم بعين الاعتبار كل اتجاهاته ، راعيا او مرعيا ، عظيما كان ام صعلوكا ، فان العدل فى محيط المجتمع الصغير ، اى الاسرة ، فى طليعة ما يجب ان يأخذ به الزوجان ، لضمان الانسجام التام بينهما ، والتوافق الذى يضفى على الأسرة الطمأنينة ويسود به التفاهم فتنعم بحياة الهدوء والسكينة،يصور اقامة العدل بين الزوجين بوضوح احسان العشرة ، لا من الزوج فحسب بل من الزوجة ايضا • فالزواج شركة تعاون ، يجب ان يخلص لها كل من الزوجين وهذا الاخلاص فى عرف الشرع ، يعبر عنه باحسان العشرة ، وبقدر التفانى فيه ، ورعاية جانبه ، يكتب لهذه الشركة النجاح والفلاح وليس

واقع احسان العشرة من قبل الزوجة ، اعداد الطعام وتنظيم مرافـق البيت ، وادارته او الاستجابة لرغبات الزوج ، والسير طبق توجيهه • إنها الى جانب ذلك ، امتزاج روحى ، وتوافق فى المشارب والنزعات ، يجد به الرجل ضالته ، وما ينشده من السكن بكل مافيه من معنى السكن الذى ترجمت عنه الآية الكريمة ، وهى آية من آيات الله ، ونعمة من نعمه على الزوجين كما قال تعالى :

﴿ ومن آياته ان خلق لكم من أنفسكم ازواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة ﴾

والسكن الذى يجد به الرجل ، الامتاع والسلوى عن كل متع الحياة وبهجتها كما يعبر عن ذلك الحديث الشريف (**الدنيا متاع وخير متاعها الزوجة الصالحة**) وفى حديث آخر (**إن نظر اليها سرته ، وإن أمرها اطاعته ، وإن غاب عنها حفظته فى نفسها وماله**) ذلك هو الاخلاص للعشرة واحسانها من قبل الزوجة ، وهو العدل المطلوب منها ، والمفروض ان تقوم به تجاه الرجل • اما الجانب الآخر جانب الرجل ، وما هو مطلوب منه ، من اقامة العدل فى شأن الزوجة ، واحسان عشرتها والوفاء بالحقـوق الـزوجية المفروضـة عليه كزوج ، فان التوجيهـات الاسلامية قد سبقت المتشدقين ، ومزاعمهم الطويلة العريضة ، فى انصافهـم للمرأة واستيفائها لحقوقها كاملة ورفع نير الظلم عنها ، من قبل الرجال ، بحكم ولايتهم وقوامتهم عليهن ، أقول قد سبقت التوجيهات الاسلامية هذه المزاعم باربعة عشر قرنا تقريبا •

فقول الله تبارك وتعالى :

﴿ وعاشروهن بالمعروف ﴾

الآية وما فى معناها مما فيه وصايا بحق المرأة وصيانتهـا واستيفائهـا حقوقهـا الاجتماعية كفرد فى المجتمع وكعضو له أثره فى بناء المجتمع الصغير ، الذى هو اللبنة الاولى فى صرح المجتمعات البشرية،كلّ اولئك مما يوحى بانصاف المرأة ولو

لم يكن من التوجيهات لحفظ حقوقها الا قوله تعالى :

﴿ ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف ﴾

لكفاهن ذلك صكا فى العناية بهن ، والمطالبة بحقوقهن كاملة من غير بخس او نقص ولقد روى عن بعض السلف تعليقا على قول الله تبارك وتعالى :

﴿ ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف ﴾

روى ضرورة معالجة الرجل ، لضروب من ألوان الزينة مما يقع فى نفس الزوجة موقعا حسنا مستظرفا ، واذا لم يكن ذلك فلا أقل من الاّ تقع عينها على ما تكرهه ، او تستقذره ، او تنفر منه طباعها فى الزوج ، ولقد جعل لها الاسلام الحق فى فسخ النكاح لو وجدت بالزوج عيبا كمرض سارأولوثة فى عقله ، كما جعل لها حق ابداء الرأى فيمن يطلب يدها ويرغب أن يصل حبالها ، بحباله فلا تجبر على من تكره الاقتران به والاستظلال وإياه بسماء واحدة •

نعود مرة أخرى الى استجلاء مبدأ العدل ، فى الوصية بالزوجة فى حالة الشقاق وتفاقم النزاع ، بينها وبين الزوج لدرجة تصبح معها الحياة الزوجية مهزوزة فنلحظ فى سياق الآية

﴿ وعاشروهن بالمعروف ﴾

قول الله تعالى :

﴿ فان كرهتموهن فعسى ان تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا ﴾

وفى ذلك توجيه الرجل للطريقة المثلى فى معاملة الزوجة ، والصبر عليها وامساكها ولو مع الكره لها لهنات فيها ، فقد يكون فى امساكها والصبر على مرارة العيش معها خير كثير ، بان تنجب ولدا تحمد عقباه ، ويكون من ابر الناس بوالديه

وذلك خير فى الدنيا والآخرة ، اما خيره فى الدنيا فالبر والعناية بامر الوالدين وخاصة فى حالة بلوغهما أو أحدهما الكبر واما فى الآخرة فبالدعاء لهما بالرحمة بعد وفاتهما ، فان العبد ينقطع عمله بعد وفاته ، الا من ثلاث صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له ، مقابلة للاحسان بالاحسان •

وجملة القول أن الاسلام حفظ للمرأة وخاصة الزوجة حقوقها وجعل لها دورها فى الحياة لا ينهض به غيرها واحاطها بجملة من الوصايا ضمنت لها الحياة السعيدة الرغيدة وكل ذلك مما يتجلى فيه عدل الاسلام وروعة تشريعاته •

استيفاء المطلقات حقوقهن المالية

يقول الله سبحانه :

﴿ وان اردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم احداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا ﴾

فى منظومات الحكم روائع للتوجيه المسلكى ، والسير فى معاملة الناس بالقسطاس المستقيم ، دون تطفيف فى حالة الهجر والقلى او مغالاة مع الانسجام والود والصفا ويحضرنى من ذلك قول بعضهم :

وعاشر بمعروف وسامح من اعتدى
وفارق ولكن بالتى هى احسن

ولئن كانت العشرة بالمعروف ، والاغضاء عن الزلة فى حالة الوصال لدوام الالفة والمفارقة باحسان عند الجفوة والقلى ، لئن كان ذلك معتدا به فى شرعة المحبين ومتعارفا عليه بين المنصفين العادلين فانه فى محيط الاسرة وبين الزوجين مفروض مطلوب ، اذ هو آية كرم الصحبة ، ودليل احسان العشرة التى وجه اليها العباد رب العزة بقوله :

﴿ فامساك بمعروف او تسريح باحسان ﴾

وقد عرضنا لجوانب اقامة العدل بين الزوجين وأوضحنا الغرض من احسان العشرة المفروض بالنسبة لهما ، ونعرض هنا لجانب التسريح بالاحسان او على حد تعبير

الآية التى توجنا بها البحث (**وان اردتم استبدال زوج مكان زوج**) اى اردتم مفارقة زوجة والاستعاضة عنها باخرى لا لشيء سوى عدم التوافق ، وتوفر الانسجام الذى هو العمدة ومحور الحياة الزوجية • فمن العدل والوفاء بحق الزوجة المسرحة الأيعمد الزوج الى سلبها شيئا من صداقها او يضايقها ويتجنى عليها ليكرهها على التنازل عن شيء منه سواء كان مقبوضا فيسترده او مؤجلا فى الذمة فتبرئه منه وهو توجيه كريم فى الوصية بالنساء للحفاظ على الحقوق المالية للزوجة المسرحة ترفع عنها الحيف وتقيم لها العدل ، فهل بعد هذا يصح لمتمشدق ان يتجنى على الاسلام بنسبة الجور اليه فى عدم انصاف المرأة وتسليط الرجل عليها يسومها الخسف ويضطهدها كصنيع الجاهلين ؟ لقد وبخ الاسلام ضمائر من تحدثه نفسه باستغلال الزوجة المهيضة الجناح وجاء القرآن بالقوارع تصطك باسماعهم لتردعهم عن بهت يبهتون به الزوجة او كذب يرمونها به كرميها بالفاحشه لئلا تطالب بحقها المستحق بعد ان تنفصم عقدة الزواج ، وهو دفاع عنها بعد الوصية بها كما يشير اليه القرآن

﴿ أتاخذونه بهتانا واثما مبينا ﴾

أتى بالانكار بشدة وفى اسلوب تعجبى يوحى بعظم الجناية وضخامة الجرم فى استلاب صداق الزوجة ، قال تعالى :

﴿ وكيف تأخذونه وقد افضى بعضكم الى بعض واخذن منكم ميثاقا غليظا ﴾

إنه لتنكر للعشرة وهضم للزوجة المفجوعة بقطع الصلة من العشير الذى وضعت بعد الله فيه آمالها ، قطع الصلة من العشير دون جناية عليه او تفريط فى حقوق الزوجية المفروضة عليها ، فاذا اضيف الى ذلك استلاب حقها ، واخذ شيء من صداقها اجتمعت عليها مصيبتان ، لقد فجعت فى آمالها بانفصال عقدة الزواج من الرجل الذى وهبته نفسها واستمتع امدا بالاتصال الجنسى بها وهو ما يعنيه

قوله تعالى :

﴿ وقد افضى بعضكم الى بعض ﴾

وامتزج احدهما بالآخر امتزاجا كليا ، افبعد هذا الوصال او على حد تعبير الآية الكريمة (**الإفضاء**) يبدو من الزوج الجناية والقطيعة ؟ ثم يردف ذلك بالطمع فى مال العشيرة المظلومة ويحاول التسلط عليها واسترجاع مابذل لها من صداق كيف يكون هذا ؟

وقد اعطى الزوج لقرينته الميثاق المؤكد على الوفاء بحقها والقيام بواجبها واحسان صحبتها وعدم التجنى عليها وكل ذلك مما يعنيه القرآن ﴿ **فامساك بمعروف اوتسريح باحسان** ﴾ كما قرره بعض مفسرى السلف · وكما يشير اليه رسول الهدى ﷺ فى خطبة حجة الوداع حين خص النساء بالوصية فقال : (استوصوا بالنساء خيرا فانكم اخذ تموهن بامانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله)· وجنح غيرهم إلى أن الميثاق المذكور فى الآية :

﴿ **واخذن منكم ميثاقا غليظا** ﴾

هو ميثاق فطرى مناسب لمعنى الافضاء بدليل قوله تعالى :

﴿ **ومن آياته ان خلق لكم من انفسكم ازواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة** ﴾

وهذه الألفة من آيات الفطرة الالهية هى أقوى ما تعتمد عليه المرأة فى ترك ابويها واخوتها وسائر اهلها وترضى بالاتصال برجل غريب ، تساهمه السراء والضراء لا جرم أن من ينصرف عن الوفاء لهذا الميثاق ويخيس بعهده ليس له فى دنيا الناس مقام وكتتمة،للحديث عن الآية موضوع البحث نورد قصة مشهورة لامير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه إن دلت على شيء فانما تدل على مبلغ التطامن والتواضع الجم الذى كان يتحلى به والمثالية التى ضرب بها المثل للأمة فى الرجوع

الى الحق بعد ان يظهر جانبه وتتضح حقيقته،روى أنه رضى الله عنه خطب قائلا : (**أيها الناس ما اكثاركم فى صداق النساء وقد كان رسول الله ﷺ واصحابه والصدقات فيما بينهم اربعمائة درهم فما دون ذلك ولو كان الاكثار فى ذلك تقوى عند الله ، او كرامة لم تسبقوهم اليها**) ثم نزل فاعترضته امرأة من قريش فقالت : (يا أمير المؤمنين نبهت الناس ألاّيزيدوا فى مهور النساء اما سمعت الله يقول :

﴿ وآتيتم احداهن قنطارا ﴾

الآية،فقال : (اللهم غفرا ، كل الناس افقه من عمر) ثم رجع وصعد المنبر فقال : (أيها الناس كنت نهيتكم الاّ تزيدوا النساء فى صدقاتهن فمن شاء ان يعطى من ماله ما أحب) وفى رواية (فمن طابت نفسه فليفعل) وفى رواية (انه قال امرأة خاصمت عمر فخصمته) أو قال : (امرأة أصابت واخطأ عمر) ٠

أما بعد ٠٠ فان الوصايا القرآنية بالزوجات قد سبقت حزب المرأة باربعة عشر قرنا وقبل ان يملأوا الدنيا ضجيجا بالمطالبة بحقوقها المزعومة تقليدا للغرب وتأييدا لمذاهبه لانه فى نظرهم المثل الأعلى فما قال او وضع فعن علم ودراية ووعى ومنطق سليم وليس هذا شأن من يعتز بدينه او تخالط قلبه بشاشته ٠

الطموح ؟

الطموح وعلو الهمة وابتغاء الفضائل والمحامد والتطلع الى الافضل والاكمل والامثل مما يكون للمرء به حظ وافر فى الدين والدنيا ، هو البرهان الساطع والدليل الواضح على الجوهر الطيب والمعدن الكريم للنفوس الزكية الصالحة الخيرة والقلوب الطاهرة ، وعلى العكس من خلال الخير التى اتصف بها الخيرون مثالب ومعائب ينزلق اليها الوضعاء من ساقطى الهمة ومحتضنى مبدأ التواكل الذين يقعدون عن طلب الخير ، ويعيشون على هامش الحياة ، يخدعون انفسهم بالأمانى ويضيعون فرص الحياة ، ومجالات الكسب والعمل ، فى التطلع الى الناس وما وهبهم الله من فيض النعم او التجنى عليهم بالحسد وتمنى زوال النعمة عنهم ، ولكلا الفريقين ، أرباب الطموح العاملين الكادحين المتطلعين الى الكمال والفاشلين الكسالى من ساقطى الهمم ، ومقترفى الزلل ارباب الحسد والضغائن لكلا الفريقين امثال مضروبة ونماذج فى الحاضر واعقاب الزمن ، كما كانت فى الماضى • ومن اجل ذلك كان من هدى القرآن توجيه الأنظار الى اقوم السبل واكمل الخصال وارفع المثل والتجافى عن الرخيص من المنازع والوضيع من الخلال والمناحى ، فمن طبيعة الاسلام فرض السلام بين المجموع وتهيئة الفرص لمحتضنيه حسب تكوينه واستعداده ومواهبه والمجال الذى يؤدى فيه دوره فى الحياة ليمضى المجتمع فى تساند وترابط وبعد عن الهنات ومنأى عن المهابط ومزلة الاقدام يوضح ذلك قول الله تعالى :

﴿ ولا تتتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض للرجال

نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن واسألوا الله من فضله ان الله كان بكل شيء عليما ﴾ ·

فقد ورد فى سبب نزولها روايات كلها تدور حول طموح النساء فى عصر التنزيل ليكون لهن نصيب مما للرجال فى ميدان النضال لحفظ الذمار ، والدفاع عن الحق بالقوة ، ليتساوين مع الرجال فى الفضل وجزيل الأجر ـ قالت ام سلمة : (يارسول الله ، يغزو الرجال ولا نغزو وانما لنا نصف الميراث) وعن عكرمة ان النساء سألن الجهاد فقلن : (وددن أن الله جعل الغزو فنصيب من الأجر ما يصيب الرجال) ·

وعن قتادة قال : ـ لما نزل قوله تعالى :

﴿ للذكر مثل حظ الأنثيين ﴾

قال الرجال : إنا لنرجو ان نفضل على النساء بحسناتنا فضلنا عليهن فى الميراث فيكون اجرنا على الضعف من أجر النساء وقالت النساء :إنا لنرجو أن يكون الوزر علينا نصف ما على الرجال فى الآخرة كما كان لنا الميراث على النصف من نصيبهم فى الدنيا ·

وفى رواية ـ قالت النساء : ـ إنا نريد أن يكون لنا أجر مثل أجر الشهداء فانا لانستطيع أن نقاتل ولو كتب علينا القتال لقاتلنا · إلى غير ذلك من الروايات المنقولة فى سبب نزول قول الله تعالى :

﴿ ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض ﴾

الآية ، فصرف رب العزة عباده عن هذه الامانى الى ما هو انفع وأجدى لكلا الفريقين وهو الكسب فى المجال الصالح المناسب لكل من الرجال والنساء حسب تكوينه واستعداده، والجهاد وإن كان فى ذروة العمل الصالح الا انه ليس مما يتفق واستعداد المرأة ومهمتها فى الحياة ، فالمرأة فى تكوينها لا تقوى على النضال وحمل السلاح فى المعركة ومصابرة العدو حتى النصر ، فذلك شأن الرجال فهم

عليه أقدر وأصبر وبجولات الحرب أخبر ، ومهمة المرأة فى الحياة ودورها الذى يتفق مع انوثتها ، وقد اودع الله فيها الركون اليه هو البيت وادارة مملكته وتدبير شؤونه فهى السكن الذى جعله الله للرجل يسكن اليه فيوفر له الراحة والهدوء والاستقرار بالاضافة الى دورها فى الاخصاب وتكثير النسل كما قال تعالى :

﴿ والله جعل لكم من انفسكم ازواجا وجعل لكم من ازواجكم بنين وحفدة ﴾

الآية •• وقال تعالى :

﴿ ومن آياته ان خلق لكم من انفسكم ازواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة ﴾

الآية ، فتمنى النساء أمورا لا تتفق وطبيعتهن والوضع الذى جعلن فيه ليؤدين دورهن فى الحياة هو خروج على النظام الذى جعل الله به عمارة الكون ، حيث خص كلا من الرجال والنساء باعمال ينفرد كل فريق فيها عن الفريق الآخر ، فلا يشارك النساء الرجال ، فى خصائصهم واعمالهم الشاقة المنوطة بهم وفى طليعتها ـ الجهاد وحفظ الذمار ولا يشارك الرجال النساء فيما هو وقف عليهن من الأمومة ورعاية شؤون المنزل وتربية الأطفال وما إليه ، ولكل من الفريقين نصيب من الأجر بقدر اخلاصه فيما اكتسبه من العمل فى حدود دائرة ما اختص به ، بل كل عمل يكتسبه إن خيرا فخير وان شرا فشر • ويسأل العباد الرب المعطى المانع من واسع فضله بدلا من التمنى والتشهى والنظر الى الغير فان الله لا يكرثه شىء وهو الكريم الوهاب •

ولئن كان سبب نزول الآية ما أوردناه من الروايات فى تمنى النساء قديما ما فضل الله به الرجال عليهن من الجهاد وغيره فان مدلولها عام شامل ، لكل امنية عمدة اهلها ذكورا كانوا أم إناثا ، التواكل والقعود عن بذل الجهد فى التكسب والسعى فى مناكب الأرض ، طلبا للرزق ، ديدنهم ان يحسدوا الناس على ما آتاهم

الله من فضله ، ويتمنوا زوال النعمة عن عباده لا لشيء سوى أنه لم يكن لهم مثل حظوظهم ولم يدركوا ما حظى به غيرهم من متع الحياة وخفض العيش ووفرة النعيم او امتداد الجاه والسلطان وذلك ما ذهب اليه ابن عباس رضى الله عنهما فى تفسير التمنى بالحسد ، فقد روى عنه انه قال فى الآية : (لا يقل احدكم ليت ما أعطى فلان من المال والنعمة والمرأة الحسناء كان عندى فان ذلك يكون حسدا ولكن ليقل اللهم اعطنى مثله)

وإلى هذا القول ذهب جمهرة من مفسرى السلف ، ولا تعارض بين هذا القول وما ورد فى الحديث (**لا حسد الا فى اثنتين : رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته فى الحق**) **فيقول رجل لو أن لى مثل ما لفلان لعملت مثله فهما فى الاجر سـواء فهذا من واد وذاك من واد آخر** ، فان المراد بالحسد فى هذا الحديث الغبطة بما لصاحب المال الباذل المتصدق والحض على تمنى مثل ما انعم الله به عليه ، اما ما حظرته الآية الكريمة من التمنى ونهت عنه فهو تمنى نفس الخير والنعمة التى حسد عليها الحاسد ، وزوالها عن المحسود ، وفرق بين هذا وذاك فان اسرف المرء فى هذا الانحدار والاسفاف واطلق لنفسه العنان فى التمنى المحظور دفعه ذلك الى التجنى وحمله على البغى فكان من الهالكين ، وخير من ذلك واكرم واشرف الأخذ بالتوجيه القرآنى ، سؤال الله من واسع فضله ، مع الأخذ بالأسباب المشروعة من الكد والعمل وترك الكسل ، فخزائن الله لا تنفذ وليس لجوده وعطائه وفضله من حدود ولا قيود ، وصدق الله اذ يقول :

﴿ وأسألوا الله من فضله ان الله كان بكل شيء عليما ﴾ .

القوامة على النساء !

يقول الله سبحانه :

« الرجال قوّامون على النساء »

القَوام والقيّم ـ المتكفّل بالأمر ، والمتولّى لشؤونه والقائمُ على تدبيره ومصالحه ، وضمانِ سلامتِه وحمايَته ، ـ ولما كانت المرأةُ بِحكْم تكْوينها وطبيعتِها ، وما جبلَت عليه بفِطْرتها ، وانوثَتِها ، لابدّ لها من وِلايةٍ ورعاية ، وحماية ، ولابدَّ لها من كفاية تصونُ عَفافَها ، وتُصلح شأنها ، وتدبّر امْرهَا ، وتمكّنُها من الاضْطلاع بُمهمَّتِها فى الحَياة ، ـ كان الرجل ، هو ضالتّها المَنْشودَة والركنَ الركين ، الذى تجدُ فى كنَفِه ما يحقّقُ لها الحِمايَة والصّوْن والرعاية وضمانَ السلامة وحفْظَ الحقوق ، فهو اصلبُ منها عوداً واشَدُّ بأساً واعظَمُ قِوامة وحْولا واوفر عقْلاً وأبعد نظَراً واصح تقديراً وتدْبيرا لذا كان اختيارُ الرّجُل قيّماً على المرأة من حِكمةِ الحَكيم الخَبير العالمِ بمصالحِ عِبادِه ، وكان تفْضيله علَيها لأمرين :

الأول ـ ما اخْتصّ الله به الرجال من الامامةِ العْظْمى والامامةِ فى الصلاة والقَضاء وإقامة شعائر الدّين وفى طليعَتها الجهاد ـ وكذلك ابرامُ عقْدِ النّكاح ، وحَلُّه ـ وكل ذلك مما اختصَّ الله به الرجال وجعلَ لهم به الفضل على النساء فلايزاحمنهم فيه ولايصحّ أن يتطلّعْنَ او يصبون إليه بثقافةٍ أو تعليم أو معرفة ـ ومنْ خطَل الرأى إذَنْ الاتجاهُ ببرامج تعليم المرأة ، لتأهيلها الى منْصب القَضاء او المحَاماة أو أيّ عمَلٍ تبرز فيه المرأة ، وتُهيمِنُ على الرَّجُل وتتسلَط عليه

كرئيسة يُقهَر بأمْرها ، ويُسيَّرُ بإرادتِها اذ أنّ ذلك انعكاسٌ لوضع الرجل وهبوطُ به عن المستوى الذى يجب ان يكون فيه ، والذى فضله الله به على المرأة وجعله مهيمنا عليها ولا عبرة أو حجة فيما جنحت اليه بعض الأوساط من مساواةِ المرأةِ بالرجل ـ ومزاحمتِها له فى الاعمال وتوجيهِها الى المناصب التى يجبُ أن تكون وقفاً على الرجال حتى كان فى النساء وزيرات يدرن الشؤون الداخليةَ والخـارجية (ومِلكات) يحكُم الرجالُ بأمرهنّ وربّاتُ مناصب رفيعة لها خطَرُها فى المجموع ـ لان الاسلام وهو دينُ الفطرة لايكون فى تعاليمه وتَشريعاتِه ماتنتفرُ منه الفِطَر السليمة او تسْتقْبحُه العُقول المُستَقيمة فحينَ جعلَ موضعَ المرأةِ فى مؤخّرة الصفوف فى الصلاة التى تتساوى فيها مع الرجل يهدف بذلك الى انّ مركزها فى المُجتمع ان تكونَ فى المؤخّرة تابعةً لامتبوعة وذلك ما يتمشّى مع الفِطرة ، وجعلهَا سكناً للرجل مجالهُا البْيتُ لا الشارع تمشّياً مع واقعِها إذ انّ مُهمّتهَا فى الحياة كما اسلفْنا تنظيمُ مملكةِ البَيت بالاضافة الى انْتاج النّسْل والحفاظِ على الذّريّة ـ فتغْييرُ هذا الوضع الذى قررّه الاسلام جرياً وراءَ المدنيّة الغربيّة الزائفة او تقليداً لانصارها هو خروجُ عن الفطرة واهدافِ الاسلام .

الأمر الثانى ـ الذى فضّل الله به الرجالَ على النساء مايبذلُه الرّجل للمرأة مما هو مَفروضٌ من الصداق لقاءَ دخولها فى عقْد الزّوجيّة وارتباطِها به ورضاها بقواميّته ودخولها تحت كنَفه زوجةً تقومُ بما افترضَ الله عليها من الطاعة وتوفيرِ الراحة وما إليه مما تستقيم به الحياة الزوجية ويتحقّقُ فيه معْنى الآيةِ الكريمة : ـ

﴿ ومن آياته أنْ خلقَ لكم من أنفسكم أزْواجاً لتسكنُوا إليها وجعل بينكم مودّة ورحمة ﴾

ويتقاضانا الحديثُ ان نلمع الى الصّداق المفروضِ للمرأة وهل يُقدّر بقَدْر لايصح ان يَعْدُوَه أو يُنقِصَ منه ، ويطالعنا فى ذلك قولُ الخليفةِ عمرَ بنِ الخطّاب رضى الله عنه قال : ـ (ألا لاتَغالُوا فى صداقِ النّساء فانهّا لو كانت مَكْرمة فى الدنيا

وتقوىٰ عند الله لكان أولىٰ بها نبيُّ الله ﷺ وما علِمتُ رسولَ الله ﷺ نكَحَ شيئاً من نِسائِه اى تزوج ولا أنْكَح اى زّوج شيئاً من بناتِه على اكثر منْ اثْنَتىِ عشرْة أوقية) وليس ذلك تحديداً ولكنّه الأوفقُ والأرفقُ بالرّاغبين فى الزواج الذين يطلبُون به الصّون والعَفاف واحصانَ الفرُوجِ عنِ الزّلة - بل لقد ذهبت السُّنّة الى ابْعدَ من ذلك فى تيسير أمر الصّداق وجوازِه حتّى بالتّافه من سقَطِ المَتاع ، زوّج رسولُ الله ﷺ رجلاً بخاتمٍ من حديد ، وما ذا عَسى ان يبلغُ خاتمُ الحَديد من القيمة فى ذلك العَهد الرخّىِ الخَصيب •

وروى عن امير المؤمنين عمرَ بنِ الخطّاب رضى الله عنه انه قال : (فى ثلاثِ قبْضات زبَيب مهرٌ) ولقد درَج السلفُ رحمهم الله فى عصورهم المفضّلة على تيسير المؤونة على راغبِ الزّواج حتى اصبحَ فى المتناول فتطهّرتْ أوساطُهم من الرّجس وكُلّ شُذوذٍ وأضحىٰ الاسْفافُ والتردّى فى حمْأة الرّذيلة ومعاشرة الخَليلاتِ والصّديقات على حدّ تعبيرهم نادرَ الوُجود ، وكان من عوامل هذا الطّهْر والتصوُّن تخفيفُ تكاليف الزواج ، تُرى كمْ يكونُ من الخيْر للمجتمع لو احْتذى الخلفُ حذْوَ السّلفْ فى تخفيف المُؤونة على راغبى الإحصان والتيْسير فى تكاليف الزواج والحدّ من ارتفاع المُهور والقضاءِ على التقاليدِ البالية التى لم تكنُ على نْهج هُدًى أو سبيلِ رَشاد ، نعود إلى سياق الآيات فنجدُ تفضيلَ النّساء بعضِهنّ على بعض بالنسبة لأمورٍ عليها مدارُ الحَياة الزّوجيّة واستقرارُها وهى طاعةُ الأزواج وحفظُ حُقوقهم الزّوجيّة فى غيْبتِهم بان لايداسَ حَريمُهم اويوطأ فَرشُهُم بالاضافة إلى حفظ ائتمنّ عليه من أموالهم ، فذلك شرطُ أساسى فى استقامةِ الحياة الزّوجيّة وعاملٌ قوىٌّ لاستدامَتِها وامتدادِ ظِلّها يوضّح ذلك قولُه ﷺ **(خيرْ النّساء امرأةُ إذا نظَرتَ إليها سرّتْك واذا امرْتَها اطاعتكْ واذا غِبْت عنْها حَفِظَتكْ فى نفْسها ومالك)**

قال تعالى ﴿ **فالصّالحاتُ قانتاتٌ** ﴾ قال ابنُ عبّاس وغيرُه من مُفَسرّى السلَف (مُطيعاتٌ لأزواجِهنّ) (حافظاتٌ للغيب) تحفظُ زوجَها فى غيْبته فى

نَفسها ومالِه ـ وقيل : حافظاتٌ لكلّ ماهُو خاصٌّ بأمور الزّوجيّة ومايكون سراً بين الزّوجَين ـ وقوله تعالى (بِما حَفِظَ الله) جاءَ فى تفسيرها حافظاتٌ للغيب بحِفْظ الله اى بالحِفِظ الذّى يُؤتيهنّ إيّاه بصَلاحِهنّ فان الصالحة يكون لها من مُراقَبةِ الله وتقواه ما يجعلها محفوظةً من الخيانة قويّةً على حفّظ الأمانة أو حافظاتٌ للزوج بسبَب امْر الله بحِفْظِه فَهَنّ يُطعْنه ويعْصينَ الهَوى •

أما الفريقُ الآخر من النساء وهُنّ على عكْس الفريق الأول مسلَكاً واتجّاهاً فسوفَ نعْرض لكلّ مايتّصلُ بهنّ وما رُخّص للرجال فى الأخذ على أيديهنّ ، وسوف نعرضُ لذلك إن شاء الله •

❋❋❋

حديث عن النشوز !!

قال الله تعالى :

﴿ واللاتى تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن فى المضاجع ﴾

الآية، أصل النشوز فى اللغة ، هو الارتفاع والامتناع . ومـن ذلك ما جاء فى الحديث فى قصة حج النبى ﷺ . انه كان اذا علا نشزا من الارض ، رفع صوته بالتلبية ، اى اذا صعد على ارض مرتفعة ، ونشوز المرأة بزوجها ، أو عليه أو منه ارتفاعها وتعاليها عليه امتناعها منه ، وخروجها على الحقوق الواجبة له ، وهذا الصنف الثانى من النساء ، وهو على العكس من الصنف الاول الذى سبق الحديث عنه ، المطيع للازواج ، الحافظ لغيبتهم ، وما ائتمـنّ عليه ، من اموال واسرار ، ونشوز الزوجة على الزوج ، وتعاليها عليه ، اماّ لحسبها ونسبها ، او لجمالها ومالها ، او لسوء معاملته لها ، او لتحكم اوليائه وذوى قرابته فيها ، اولاى غّرض من الاغراض ، او للمشاكل التى كثيرا ما تعرض للزوجين فيكون من أثرها فساد الصلات الزوجية ، وخراب البيوت ، وتشتيت الذرية ، فهو اذن ، بادرة سوء يجب القضاء عليها ، قبل استفحالها ولذلك وضع الشرع الحكيم ، علاجات حاسمة ، لاستصلاح الزوجة ، وقسرها على طاعة الزوج ، والحدّ من نشوزها ، إذ أن هذه الشركة شركة العمر التى يصطلح عليها الزوجان ، ويقبل كل منهما من يتعاون فيها مع الآخر على صلاحها ، واستدامة ظلها ، لابد لها من تضحيات من الجانبين ، ولايصح حل عقدتها ، وانفضاض الشركة ، الا بعد

بذل كل الجهود لتحسين امرها ، واتخاذ كل الوسائل ، للحيلولة دون تقصير امدها ، وانهيار قواعدها •

والوسيلة او العلاج ، الذى وصفه الشرع ، لاستصلاح الزوجة فيما إذا بدرت منها بوادر النشوز ، رتّبه بقدر الضرورة ، ونوّع فيه بحسب تفاوت درجات النشوز ، وبحسب نفسية المرأة ، واستعدادها ، للخير او الشر ، ففى النساء خيرات سلسات القياد ، لينات العريكة ، يكفى فى استصلاحهن ، الكلمة اللينة والوعظ دون العنف ، والزجر والوعيد ، فهؤلاء لوبدرت من احداهن بادرة نشوز ، أو خروج عن الطاعة أمكن أن يقتصر الرجل فى استصلاحها ، على التخويف بالله ، وتذكيرها بما افترض الله عليها ، من طاعة الازواج ، وعرض بعض ماورد من النصوص فى ذلك ، كحديث (**لو كنت آمر أحداً ان يسجد لاحد ، لامرت المرأة ان تسجد لزوجها ، لعظم حقه عليها**) وغيرها من الاحاديث التى تحملها على الارعواء ، وتقرب من شاردها ، فتنصاع لتعاليم دينها ، وتستجيب لطاعة زوجها ، ويعود امر الشركة الى خير مايرجوه ، كل من الرجل والمرآة ، حباً ووئاما ، واستقامة على الجادة ، وحفظا للحقوق الواجبة ، ازاء كل منهما ، وفى النساء جامحات صلفات ، يمقتن الازواج ، ويكفرن العشير ، لايرد عهن أو يلوى عنان انفسهن ، الا الشدة ، الى حدّ ما ، فهؤلاء قد رخص الشرع الحكيم ، للازواج فى اتخاذ خطوات حاسمة ، لاعادتهن لبيت الطاعة ، أولاها الهجر فى المضاجع ، وللعلماء رحمهم الله فى تفسيره اقوال ، وقد ذهبوا فيه مذاهب ، منها مايتنافى مع كرامة المرأة وما لها من حقوق على الزوج ، ومايجب لها عليه من حق الرعاية ، وذلك كتفسير بعضهم الهجر بالتقييد ، من هجر البعير اذا شده صاحبه بالهجاء ، وهو القيد ، الذى يقيد به ، وقالوا : قيدوهن لاجل الاكراه على ماتمّنعن عنه ، واحسن ماوقفت عليه ، فى تفسير الهجر ، قول من يقول : لايتحقق الهجر فى المضاجع إلا بهجر المضجع نفسه ، وهو الفراش ، ولايهجر الحجرة ، التى يكون فيها الاضطجاع وانما يتحقق الهجر فى الفراش نفسه ، وتعمد هجر الفراش

أو الحجرة زيادة فى العقوبة ، لم يأذن بها الله تعالى وقد يسرف البعض فى الهجر ، فيهجر البيت ويقطع الصلة ، ويمنع الرفد ، ويتوقف عن النفقة وكل ذلك تجن على المرأة ، تزداد به الجفوة ، ولايكون به الا اتساع شقة الخلاف وثمة خطوة أخرى ، ووسيلة قد تكون انجع فى العلاج ، حين لايجدى الوعظ والهجر فى المضاجع ، وهى الضرب شريطة أن يكون غير مبرح ، اى غير مؤذ ، ولاشديد يكون منه كسر عظم ، أو تشويه خلقة ، فان ذلك لايكون الا عن تشف ، وشدة نقمة ، وذلك كالضرب بالسوط ، أو العصا أوالحبل ، أو بأى وسيلة ، تمتهن بها المرأة وهو مايترفع عنه الخيرون ، الحصفاء النبلاء ، انسانية ، لو لم يكن ثمة وصية من رسول الهدى ﷺ بالنساء ، حيث قال فى خطبة حجة الوداع التى وضع بها اسس العدالة واوضح فيها الحقوق فقال : (اتقوا الله فى النساء فانهن عندكم عوان) أى أسيرات (لكم عليهن أن لايوطئن فرشكم أحدا تكرهونه فان فعلن فاضربوهن ضربا غير مبرح) وقال فى تقبيح مسلك المتجانفين عن الرشد ، المتجنين على النساء بالضرب ، (اما يستحى أحدكم ، أن يضرب امرأته كما يضرب العبد ، يضربها أول النهار ، ثم يضاجعها آخره) بل لقد يلحظ خطر الضرب ، المرخص فيه وعند الضرورة من قوله ﷺ فى حديث أم كلثوم ، رضى الله عنها قالت : (كان الرجال نهوا عن ضرب النساء ثم شكوهن الى رسول الله ﷺ فخلى بينهم وبين ضربهن) ثم قال : (ولن يضرب خياركم) مما يتضح منه أن الضرب وان كان رخصة محددة مقيدة ، إلا أنه يترفع عنه الاخيار ، رفقا بالنساء ، ودرأ لما لعله ان يترتب عليه ، من كسر نفسية المرأة ، واذلالها وجرح شعورها وقد يفضل البعض الفراق ، وتسريح المرأة ، على اللجوء الى هذا المسلك ، عملا بقوله تعالى :

﴿ فامساك بمعروف أو تسريح باحسان ﴾

فاذا زالت هذه الحالة الطارئة ، حالة النشوز ، بالوسائل المشروعة ، الوعظ والهجر فى المضجع ، او الضرب غير المبرح ، واستقام امر النساء على الرشد وطاعة

الازواج ، فليس لهم عليهن بعد ذلك من سبيل ، لايذائهن ، والتجنى عليهن ، بالقول او الفعل ، حذرا من النكسة فى النشوز ، وفساد الحياة الزوجية التى باركها الله ، ولقد علق بعض العلماء رحمهم الله ، على ختام الله سبحانه الآية بقوله :

﴿ ان الله كان عليا كبيرا ﴾

فقال : ـ اتى بهذا بعد النهى عن البغى لان الرجل انما يبغى على المرأة بما يحسه فى نفسه ، من الاستعلاء عليها ، وكونه اكبر منها ، واقدر فذكره تعالى بعلوه وكبريائه ، وقدرته ليتعظ ويخشع ويتقى الله فيها ·

مع واقع المرأة في هذا الدين

﴿ ويستفتونك فى النساء قل الله يفتيكم فيهن ﴾

لم تكن المرأة فى اى دين او مجتمع من المجتمعات ، افضل ولا اكرم منها ، فى الدين والمجتمع الاسلامى ، فلقد خصها الاسلام بمجموعة من الوصايا ، واحاطها بالكثير من الرعاية والحفاظ حتى كان لها الشأن فى امتلاك حريتها ، والذود عن حقوقها ، والاضطلاع بمسؤولياتها فى الحياة ، كعضو فى المجتمع له اثره وفعاليته ، بعد أن كانت فى الجاهلية من سقط المتاع ، مهيضة الجناح توأد طفلة وتمتهن فى كل ادوار حياتها ، ولقد بلغ من رعاية الاسلام لشأن المرأة ان نزل فى القرآن سورتان فيها الكثير من الأحكام التى تتعلق بالنساء ، اولاها سورة النساء وهى ثالث السور فى ترتيب سور القرآن ، شرع الله فيها احكاما تتصل بالصداق والارث وتحريم ظلم النساء ، وعدم اباحة التعدد فى الزوجات الا فى اضيق الحدود ، بقيود وشروط ، مراعاة لشعورهن ، وعدم المضارة بهن ٠ والثانية سورة الطلاق اوضح الله سبحانه فيها العدة للمطلقات فى مختلف ألوان الطلاق الرجعى والبائن والسكنى والنفقة ، وغير ذلك مما يشعر بعناية الاسلام بالنساء ورفع نير الظلم عنهن وعدم غمطهن حقوقهن المفروضة المقررة لهن شرعا دون منة بها عليهن أو تبرع وتفضل ٠

وفى قوله تعالى :

﴿ ويستفتونك فى النساء ﴾

وآيات بعدها سوف نعرض للحديث عنها بايجاز ، ورد التشريع عنهن فى قالب

فتيا ، تفاديا لما لعله ان يقع بها من الحيف ، او غمط حق شرعى عن غير قصد او عن جهل بالواجب بعد ان شعر المسلمون وهم احرص على الاستجابة لأمر الله ورسوله شعروا بالحرج الذى قد يقعون فيه لو لم يكن لديهم مزيد من الايضاح فى حقوق النساء يعصمهم من التورط فى الإثم والتجنى عليهن ٠

ويقصر المفسرون سبب نزول هذه الآية على ميراث النساء لما روى أن رجلا قال للنبى ﷺ : بلغنا انك تعطى البنت والأخت النصف ، اى فى الميراث ، وانما كنا نورث من يشهد القتال ، ويحوز الغنيمة ، فقال له النبى ﷺ : (بهذا أمرت) أى ان الله قد تولى قسمة المواريث واعطاء كل وارث نصيبه ، لم يتركها لقسمة نبى ، او يجعل التوريث بحسب الاهواء ، أو تقديرات الناس وامزجتهم ، ولما روى البخارى بالسند الى ام المؤمنين عائشة رضى الله عنها فى كلام طويل استعرضت فيه صنيع الجاهلية فى اليتيمة تشرك وليها فى ماله ، فيرغب ان ينكحها ، ويكره ان يزوجها رجلا ، فيشركه فى ماله فيعضلها تشير الى قول الله تعالى :

﴿ وان خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى ﴾

قالت : ثم ان الناس استفتوا رسول الله ﷺ بعد هذه الآية فأنزل الله سبحانه :

﴿ ويستفتونك فى النساء قل الله يفتيكم فيهن وما يتلى عليكم فى الكتاب ﴾

الآية والذى ذكر الله انه يتلى فى الكتاب الآية الأولى :

﴿ وان خفتم ألاَّ تقسطوا فى اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء ﴾

غير أن بعض المفسرين يجنح الى الشمول فى تفسير الآية ولا يجعلها مقصورة على الميراث ، بدليل ان مجموع الآيات الأربع ، اى هذه الآية وما بعدها من

الآيات مترابطة فى الاحكام فتكون الفتيا ، شاملة فى بيان المشكل والغامض على المستفتين فى شأن النساء ، وبيان الأحكام بالنسبة لحقوقهن المالية ، والزواج لأجلها ، والنشوز والخصام والصلح والعدل ، والعشرة والفراق وكل ذلك مما تناولته الفتيا بالقسط والايضاح لا الميراث فقط ، وينقل عن هذا الفريق فى تفسير الآية قوله :

﴿ قل الله يفتيكم فيهن ﴾

بما ينزله من الآيات فى احكامهن ، وما يتلى عليكم فى الكتاب فى يتامى النساء اللاتى لا تؤتونهن ما كتب لهن من الميراث ، اذا كان فى ايديكم لولايتكم عليهن وترغبون ان تنكحوهن لجمالهن والتمتع بأموالهن او عن ألاّ تنكحوهن لدمامتهن وتعضلوهن ليبقى مالهن فى ايديكم ، وما يتلى عليكم ايضا فى شأن المستضعفين من الولدان الذين لا تعطونهم حقهم من الميراث .

والمراد بهذا الذى يتلى عليهم فى المستضعفين المرأة واليتيم الى آخر ما نقل عن هذا الفريق فى تفسير الآيات مما يجعل الاحكام فيها مترابطة كما اسلفنا ، وأيا ما كان الغرض من هذا الاستفتاء فى أمر النساء القصر على الميراث او الشمول والعموم فى الاحكام فهى عناية من الاسلام بالنساء ووصايا جامعة عن عدم التعدى عليهن وهضم حقوقهن والتلاعب بمصائرهن كصنيع الجاهليين ، فالاسلام دين العدالة لا يقر الظلم خاصة بالنساء اللائى وصف رسول الهدى واقعهن وشبههن بالاسير فى قبضة الآسر ، حيث قال فى خطبة حجة الوداع (**اتقوا الله فى النساء فانهن عندكم عوان**) وكرر الوصية فى نفس الخطبة بما يوحى بحتمية التجافى عن ظلمهن والتحيف عليهن ، فهل بعد هذه الرعاية لشأنهن يصح لمتمشدق يأتى آخر الزمان يزعم ان الاسلام قد تجنى على النساء وهضمهن الحق المشروع فى التسوية بينهن وبين الرجال ، حيث قد جعل للرجال القوامة عليهن ولم يجعل عصمة النساء بايديهن يحللن عقدتها كما يحلها الرجال ، ولم يبح لهن التعدد فى الأزواج كما اباحه للرجال ، الى غير ذلك من التهجم على

الاسلام بدعوى الانتصار للنساء واعطائهـن حقهـن المسلـوب وليس فى هذه المزاعم انصاف للنساء ولا عدل بل فيه الفوضى والفساد واختلال النسل وانسياق النساء مع العاطفة دون توخى الحكمة التى جعل الله من أجلها القوامة للرجال على النساء ، وجعل عقد الزوجية بعد ابرامه بالتوافق مع المرأة او وليها جعله بيد الرجل ٠

وبعد فان كل تحلل من القيود التى وضعها الاسلام لحفظ نظام الاسرة وكل حق مزعوم يطالب به البعض فى اعقاب الزمن لم يكن له من هدى القرآن أو سنة خير الانام دعم او سند ، فهو خروج على امر الله ومصادمة لشرعه ، وابتغاء الخيرة فى امر الله وحكمه ٠

النشوز أيضاً

يقول الله سبحانه :

﴿ وان امرأة خافت من بعلها نشوزا او اعراضا فلا جناح عليهما ان يصلحا بينهما صلحا ﴾

فى مجال التخطيط للحفاظ على الاسرة وعدم تصدع بنيانها ، وهى المجتمع الصغير الذى يبدأ بالزوجين ثم يتفرع الى شعوب وقبائل ، تلحظ عناية الاسلام فى ايجاد التوافق بين الزوجين والتوافق هو عماد الحياة الزوجية السعيدة ، والتجافى بها عن المنغصات وما يكون عاملا على فل الروابط وفصم عقدة الزواج وافساد حياة الزوجين والعشرة وطول الصحبة • ولقد عرضت الآية الكريمة لموضوع النشوز تلحظه المرأة من زوجها وتكشف فيه تصرفات واتجاهات تتوقع فيها الشر واتساع الفجوة بينه وبينها ، والنشوز هو التعالى والنفور وما ينشأ عنهما من الجفاء والتنكر وغمط الحق وسوء المعاملة والشقاق وما اليه مما يتعذر معه امتداد العشرة ودوام الألفة •

وعرضت الآية الكريمة ايضا لإعراض الزوج عن زوجته ولبسها ذلك بوقائع لا تحتمل الشك اذ لم يكن الاعراض مجرد ظن ليس له من واقع ، او كان لظروف تكتنف الزوج ، او لمشاغل استبدت بتفكيره او لمهام أمور متعلقةبه او للاشتغال بالدراسة والبحث العلمى او لغير ذلك فاذا لمست الزوجة من بعلها النشوز والاعراض عن واقع وخشيت مغبة ذلك فقد تفادى الاسلام فصم عقدة

الزواج بالمصالحة وتنازل الزوجة عن شيء من حقوقها المفروضة لها شرعـا ، كالنفقة والكسوة والمبيت او غير ذلك مما يدرأ عنها التجنى وسوء العشرة ويجعلها تعيش فى ظلال الزوج وعصمته مكرمة مرعية الحق مصونة عن الاهدار، ذلك ان الاسلام كما اسلفنا فى غير حديث جعل المساواة بين الرجل والمرأة مرعية الاعتبار إلا ماكان من امر القوامة عليها فقد فضله الله بها على المرأة كما قال تعالى :

﴿ الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما انفقوا من أموالهم ﴾

فالرجل اقدر من المرأة على القيام بمصالح الاسرة والسعى فى سد مطالبها ، واكثر جلدا على الكدح والدأب فى مواصلة الكسب ، وما لنا نسرد العلل والمسوغات لاختصاص الرجل بالقوامة وقد قضى الله بذلك وارتضاه وقضاؤه عدل ليس لأحد ان يكون له الخيرة فيه ، فهو سبحانه اعلم بمصالح عباده يربيهم بالتشريع كما يربيهم بالنعم ، ومن واجب المسلـم ان يكون هواه تبعـا لما جاء به هدى الوحى ، ودعك من الغثاء ممن يزعم الاسلام دون تطبيق قواعده واحكامه ويطلب هديا معاكسا لهدى الله ورسوله لمزاعم لا ترتكز على منطق او لمجرد تقليد الغرب والانضمام الى زمرة التقدميين على زعمه •

وقد اردف سبحانه بعد تقرير مبدأ المصالحة بين الزوجين بقوله فى الآية :

﴿ والصلح خير ﴾

تغليبا لجانب الصلح على الفرقة وترجيحا لكفته لما يكون من ورائه من الحفاظ على ميثاق الزوجية الذى ارتبط به الزوجان ، وتفاديا لحل عقدته ، فان الطلاق كما جاء فى الحديث ابغض الحلال الى الله ، فلا يلجأ اليه الا لضرورة وعند تعذر الوفاق وتفاقم السلب ، وفى ترجيح كفة الصلح على الفرقة يورد المفسرون سبب نزول الآية الكريمة ، إن ام المؤمنين سودة بنت زمعة عندما تقدم بها السن وشعرت بزعزعة مكانتها وان رسول الله ﷺ يريد طلاقها فصالحته على النزول عن

ليلتها لعائشة ، وقنعت ان يكون لها شرف النسبة الى الرسول وان تغدو فى عداد امهات المؤمنين ، ورسم الرسول بذلك للامة طريقا لاحباً وخطا واضحا يجعل للازواج المندوحة عن طلاق الزوجة لو رغبت البقاء فى كنف الزوج بأى وسيلة أو اسلوب يصطلحان عليه ولما كان كل من الزوجين حريصا على حقه ، شحيحا ان يسخوبه وان يبذله للآخر فالرجل شحيح بنفقته يبذلها لمن يكره من زوجاته ، والمرأة شحيحة بنصيبها من المبيت والنفقة وما اليه ، اوضح سبحانه ان هذا الشح من أقبح ما يتصف به المؤمن من خصال الذم فقال : (**واحضرت الأنفس الشح**) أى فلا يصح التخلق به وخاصة بالنسبة للزوجين اللذين ارتبطا بأفضل رباط واقدسه وكان بينهما من الصلات والود والرحمة ، ما لا ترتقى اليه اية صلة ، مهما توشجت الوشائج بين الناس ، واذن من المفروض على كل من الزوجين ان يتسامح فى بذل طرف من حقه ، وان يتنازل ولو بالكثير منه لدوام ظل الزوجية ممدودا ، وبيت الود عامرا فذلك خير من الشح البغيض الذى تنشأ عنه الفرقة ، وافضل من ذلك أى من الفرقة أو التنازل عن الحق بالمصالحة ان يحسن كل من الزوجين العشرة للآخر ، ويتجافى عن الشقاق ويترفع عن النشوز والاعراض والمضارة ويغضى عن هنات الآخر ، وتلك هى المثالية المتسعة الابعاد وصدق الله اذ يقول :

﴿ وان تحسنوا وتتقوا فان الله كان بما تعملون خبيرا ﴾ .

وبعد فهذه حلقة اخرى من التوجيهات الاسلامية للحفاظ على حقوق المرأة وابتغاء العزة والصون والكرامة لها مما اعلن عنه الاسلام قبل ان يعلن اى قانون او تشريع وضعى يزعم انصاف المرأة ، فهل آن للمسلمين ان يأخذوا بتربية الاسلام وتوجيهه ؟ ذلك هو الجدير بهم .

في دروب العدل بين الزوجات

يقول الله سبحانه :

﴿ ولن تستطيعوا ان تعدلوا بين النساء ولو حرصتم ﴾

وتمضى التوجيهات الاسلامية فى تسلسل وتنويع وربط اللاحق بالسابق فى شأن النساء ورعاية حقوقهن والتجافى عن ظلمهن والتحيف عليهن ، فقد مضت التوجيهات فى رسم اعدل منهج لضمان الانسجام بين الزوجين والابقاء على عقد الزوجية موصولا ولو مع التضحية بشيء من الحقوق المفروضة لكلا الزوجين على الآخر صلحا يصطلحان عليه او تبرعا تلتمس الزوجة مرضاة شريك حياتها واحسان عشرته لها .

وتنتقل التوجيهات فى تقرير واقع قد يغالط فيه البعض من الازواج ، ممن يجمع بين اكثر من زوجة ، وهو واقع خروج الزوج عن قاعدة العدل فى التسوية بين نسائه فى الحقوق بحيث يجعلهما كالعدلين المتساويين ولاتزيد احداهما عن الاخرى وقد كشفت الآية الكريمة ان ذلك مستحيل ، مهما حاول الزوج ، وكان تقيا ورعا ، مالكا زمام نفسه صارما معها فى ضرورة اقرار العدل وعدم الميل مع احدى الزوجات دون ضراتها . ومن ذاالذى يزعم العصمة عن الوقوع فى الجور المحظور ولو عن غير عمد ؟ فالزوج بحكم بشريته لابد وان تكون له هنات تخرجه عن قاعدة العدل ولذلك كان أحكم وسيلة للحد من الاندفاعات حبس النفس عن شهوة تعدد الزوجات والاقتصار على واحدة وخاصة مع عدم العذر

الذى يبيح التعدد كما قال تعالى :

﴿ فإن خفتم ألَّا تعدلوا فواحدة ، أو ما ملكت ايمانكم ، ذلك أدنى ألَّا تعولوا ﴾

اما الميل المحظور الذى تعنيه الآية الكريمة لمن اخذ بالتعدد فبالنسبة للحقوق التى يجب فيها التساوى بين الزوجات ، كالقسم فى المبيت ، والنفقة والسكنى ، وما اليه ، فلا **يطغى** الزوج مع المحظية لديه من زوجاته ويندفع اندفاعاً كليا **يطغى** على كل حق مفروض بذله للاخريات ويذرها كما قال تعالى فى وصف واقعها (**كالمعلقة**) قال جمهرة من المفسرين : اى لاذات زوج ولا مطلقة ، وذلك ظلم يؤاخذ عليه المتحيف ويعاقب عليه عقابا من جنس عمله •

كما جاء فى الحديث (من كان له امرأتان فمال الى احداهما جاء يوم القيامة وأحد شقيه ساقط وفى رواية وشقه مائل) ولا تعنى الآية الكريمة الميل العاطفى ميل القلب فهو فوق طاقة البشر وليس فى مقدور أحد ان يتحكم فيه ، بصرف او توزيع بين من يميل اليه بعاطفته من زوجاته وبين من يستثقل ظله منهن إما لدمامة او لنقد فى خلق وعشرة او لتقدم فى السن او لمجرد عدم الاستلطاف او للنفرة فى الطباع ، ولذلك لن يحرج الزوج باعتبار هذا الميل جورا يجب ان يتحاماه ، وقد جاء فى الحديث عن أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها قالت : كان رسول الله ﷺ يقسم بين نسائه فيعدل ثم يقول (**اللهم هذا قسمى فيما املك فلا تلمنى فيما تملك ولا أملك**) ويعنى بذلك ميل القلب والانسجام العاطفى ، فاذا كان اتقى العباد لربه ، ورسول الهداية المبلغ شرائع الله والذى اتخذ العدل قسطاسا يسير عليه كما امره الله،اذا كان هذا شأن صفوة الخلق وهذا دعاؤه فما بالك بمن دونه بمراحل من عامة الأمة لا جرم ان تكون له من ميول القلب ما يخشى معه التطرف ؟ ولذلك جاء عفو الله شاملا عن كل ما يخرج عن اختيار العبد من أثر الميول العاطفية التى تتطلب ترديد هذا الدعاء النبوى الكريم •

وقد ختمت سلسلة هذه التوجيهات فى شأن النساء بالعلاج الحاسم الذى يفض النزاع ، ويقضى على السلب القائم بين الزوجين فى حالة تعذر الانسجام وعدم تضحية احدهما فى سبيل الآخر بالحق الواجب ، والمصالحة على تحسين العلاقة ، ختمت التوجيهات بالتلويح بالفراق او فصم عقدة الزواج تفاديا لما لعله ان يقع من المحذور من عدم اقامة حدود الله ، فى احسان العشرة ، ودوام الالفة فقال تعالى :

﴿ وان يتفرقا يغن الله كلا من سعته ﴾

والطلاق وإن كان أبغض الحلال الى الله إلا انه اصلاح جذرى يقطع مادة الخلف ويتيح الفرصة لكل من الزوجين فى حياة افضل وعيش ارغد ، فيغنى الله الزوج بان يعوضه خيرا من زوجته المفارقة واكثر ملاءمة وامتاعا وايناسا له ، ويغنى الله الزوجة عن مطلقها بآخر تعيش واياه فى ظلال المودة والرحمة ، يهتصران السعادة معا •

وكم تحقق هذا الواقع للكثير من الازواج والزوجات بعد الطلاق والفراق ذلك لأن الله واسع الفضل عظيم المن على عباده ، حكيم فى أقداره وشرعه ولا يكون افتراق اثنين او اجتماعهما الا بقضاء وقدر (**وكان الله واسعا حكيما**) •

الفصل الثالث

في دروب الانحراف عن الحق

- أفحكم الجاهلية يبغون ؟!
- العبادة قوام العقيدة .
- بين الأسباب والمسببات .
- التحاكم إلى الطواغيت .
- التحاكم إلى الطواغيت أيضًا !
- مزاعم باطلة .

أفحكم الجاهلية يبغون ؟!

موضع الغرابة فى النفس البشرية ، انها غالبا ما تحتفظ فى قرارتها برواسب لما ألفته ودرجت عليه من تقاليد وعادات وما احتضنته من مبادىء وعقائد ونظم واتجاهات تحتفظ بها اما لقداستها واثرها واما لمجرد التقليد والمحاكاة او حذر من جلب السبة والعار لو ترك المألوف ونبذت العادة كما قال ابوطالب فى قصيدته المشهورة التى يمتدح فيها الرسول ودينه ويقول فيها :

ولقد علمت بان دين محمد من خير أديان البرية دينا
لولا الملامة او حذار مسبة لوجدتني سمحا بذاك مبينا

وكذلك كانت الجاهلية فى عكوفها على عقائدها ومذاهبها ، لم يكن لها العذر فى ذلك بعد ان وضح السبيل وقامت عليها الحجة الا التقليد الأعمى الذى حملها على المكابرة حتى فضلوا ان يمطروا بحجارة من السماء ويسحقهم العذاب على ان يتبعوا الهدى الذى جاء به المصطفى من عند الله وحيا يوحى كما قال تعالى حكاية عنهم :

﴿ واذ قالوا اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فامطر علينا حجارة من السماء او ائتنا بعذاب اليم ﴾

وتلك هى سنة الهالكين ممن ضل عن سبيل الهدى . يعكفون على الرواسب من

دين الاسلاف كما قص الله اخبارهم فى محكم التنزيل فقال :

﴿ وكذلك ما أرسلنا من قبلك فى قرية من نذير الا قال مترفوها : انا وجدنا آباءنا على أُمة وانا على آثارهم مقتدون ، قال اولو جئتكم باهدى مما وجدتم عليه آباءكم قالوا انا بما ارسلتم به كافرون ﴾

ومن الرواسب المنتقدة احكام الجاهلية المتواضع عليها وقوانينها التى غدت لديهم كتشريع ودستور لا يقبل المناقشة ، وما هى فى الواقع غير سيف مسلط فى يد القوى على الضعيف ومعيار جائر لا يقيم العدل او ينصف المظلوم ، ولما جاء الاسلام باحكامه العادلة وتشريعاته الحكيمة الرشيدة المسددة الصالحة وحارب الفساد وقمع الظلم والبغى والطغيان ومشى الذئب فى ظلال عدالته الى جانب الحمل لا يخشى سطوته ، أو يرهب عدوانه لم يرق لأولى القلوب المريضة ان تصافحه او تستسلم لحكمه او ترضى بمعاييره ووضعه الحق فى نصابه وتقريره العدالة الاجتماعية ورفع نير الظلم والاستعباد ، بل بقيت على رواسب الماضى المظلم تقيم الحد على الضعيف وترفعه عن الشريف والوجيه والحسيب والنسيب ، وتصطلح على اوضاع كدساتير تتبع فيها الأهواء وتضعها موضع التنفيذ وهى بعيدة كل البعد عن شريعة الله مجانبة للعدل قاضية بالظلم : ومن تلك الرواسب التى قضى عليها الاسلام الحكم بالعوائد القبلية كالحكم بعدم توريث الاناث وتضعيف دية الشريف على غيره • وفى معناها الحكم بالأنظمة العصرية كالتسوية بين الرجال والنساء فى الحقوق ومساواة المرأة للرجل فى الميراث وجعل عصمة المرأة بيدها لكى تفصم حبالها من الزوج متى شاءت وغير ذلك مما لا تستوعبه الأمثلة ، كل أولئك وما فى معناه مما يجانب الحكم فيه العدل ، ويختلف عن شريعة الله التى جاء بها محمد بن عبدالله ﷺ ، كان السلف رحمهم الله يرونه احكام جاهلية •• صح عن احد التابعين رضى الله عنه وقد سئل عن

الرجل يفضل بين اولاده فى العطاء فلم يجب الا بقول الله تعالى :

﴿ افحكم الجاهلية يبغون ومن احسن من الله حكما لقوم يوقنون ﴾

وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ (**ابغض الناس الى الله عز وجل من يبتغى فى الاسلام سنة الجاهلية وطالب دم امرىء بغير حق ليريق دمه**) وحكم الجاهلية الذى ذمه الله وندد بمن يبتغيه فى الاسلام ليس مقصورا على فترة معينة فى التاريخ ولا على اناس معنيين دون سواهم ولا على قاعدة ونظام خاص دون غيره ولكنه عام لكل الأزمنة والناس والقوانين الوضعية ·· فكل فترة من الزمن يكون فيها الحكم السائد المتواضع عليه قانونا او تقليدا مرعيا فهو حكم جاهلية ، وكل أمة يحمل افرادها رواسب للماضى السحيق تناهض الدين فالحكم بها حكم جاهلية ، وكل نظام او تشريع او دستور لا يستمد روحه ولا تقوم اسسه على كتاب الله وسنة رسوله فالحكم به حكم جاهلية يجب ان يجانبه المسلم مكتفيا بحكم الله وبما انزله على رسوله من الوحى ، لا يحيد عنه الى غيره فهو أحسن وأعدل حكما كما قال تعالى فى ختام الآية :

﴿ ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون ﴾

والمعنى الذى يقرر واقعا لا مرية فيه انه لا أحد احسن حكما من حكم الله تعالى لقوم يوقنون بدينه ، ويذعنون لشرعه · قال بعض المفسرين فى تعليل ذلك : لان حكم الله يجمع الحسنيين منتهى العدل والتزام الحق من الحاكم ومنتهى القبول والاذعان من المحكوم عليه وهذا مما تفضل به الشريعة الالهية القوانين البشرية ·

وكم جرت القوانين البشرية من ويلات على الحاكمين والمحكومين لما فيها من

القصور فى معالجة مشاكل الانسانية التى تتجدد وتتطور بتجدد الزمان وتطور احوال البشر .

وفرق بين تشريع نزله الخبير العالم بأمور عباده وما يصلحهم ويربى فيهم النزوع الى الخير او يزجرهم عن المزالق والمهابط ومزلات الاقدام وبين قانون من وضع البشر القاصرين ليس له من الفعالية الا بقدر ما للبشر من محدودية فى العلم والمعرفة والفهم والادراك .. وان المزاعم التى يزعمها البعض ويقدم بها الحكم بالقوانين الوضعية على حكم الشرع لانها أخف وطأة واكثر ملاءمة للعصور المتحضرة على زعمه ما هى الا مغالطة لا تقرر واقعا صحيحا ، فالعقوبة ان لم تكن رادعة زاجرة مقدرة بنسبة الجرم تهدف الى اصلاح الجانى وحماية المجموع لا يكون لها اثر ، ولقد انفرد دين الاسلام بميزاته عن سائر الاديان ، وأثبت بمعالجته لقضايا البشر انه الدين الصالح لكل زمان ومكان ، وقد تكفل الله بحفظ كتابه ليبقى الى الابد دستورا للتحاكم وكتاب هداية وارشاد الى التى هى أقوم من المناهج والمسالك ، وحظر سبحانه التحاكم الى غيره لعموم الهداية وكفايته التامة عن اى قانون وضعى او جاهلى او تشريع لا يحقق للبشر سعادة او يدرأ عنهم الضير وصدق الله اذ يقول :

﴿ ما فرطنا فى الكتاب من شىء ﴾ .

العبادة قوام العقيدة

يتقاضانا الحديث عن عبادة المسلم وهى العنصر الثانى ـ الذى يربى الاسلام عليه اتباعه ، أن نشير إلى أن كل جزء من الركائز التى يعتد بها المسلم ترتبط تمام الارتباط مع بقية الأجزاء ، بمعنى أن الحديث عن العقيدة ، يدخل فى إطاره العبادة ، فهى قوام العقيدة وأُسُّها ، فعبادة دون عقيدة مردودة على صاحبها إنها عبادة المرائين والمنافقين ، والحديث عن اسلام الوجه لله ، الذى هو عصب العقيدة ، يتناول العبادة فى أدق بنودها كما جاء فى الحديث (**ليس الايمان بالتمنى ولا بالتحلى ولكن ما وقر فى القلب وصدقه العمل**) والعمل فى خطوات إيجابية يشعر بوضوح بمطابقة مظهر المسلم لمخبره ، اذ يندفع بما وقر فى نفسه من الايمان للأخذ بكل ما يفرضه الاسلام من أعمال وتكاليف ووظائف فى مجموعها يتحقق اسلام الوجه لله ، فليس الاسلام مجرد عواطف طيبة كما يزعم البعض ولو لم يلتزم المسلم ما يفرضه عليه الاسلام ، بل الاسلام قول وعمل فالجاهليون عندما طلب اليهم الرسول ﷺ أن يقولوا لا إله الا الله أدركوا بوعيهم أهداف هذه الكلمة وأنها تفرض التزام نهج معيّن يصور حقيقة اسلام الوجه لله ـ فقالوا ما حكاه الله عنهم:(أجعل الآلهة الهاً واحدا ان هذا لشىء عجاب) والمسلمون فى الصدر الأول عندما آمنوا الايمان الواقعى الذى يقضى بقرن العلم بالعمل ، اندفعوا نحو الذروة ، فى إخلاص العمل ونبذ رواسب الجاهلية وتقيدوا بشريعة الاسلام فانطبق عليهم الوصف الكامل لحقيقة إسلام الوجه لله اذ يقول رب العزة :

﴿ ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن ﴾

أى أخلص لله العمل محتسبا بدافع إيمانه ، وكان فيه متأسيا بشريعة الاسلام ، وما أرسل الله به رسوله من الهدى ودين الحق ، أى ومن كان على العكس من ذلك لم يكن محسنا ، لأنه جانب الاخلاص فى العمل وكان إسلامه مجرد انتساب فقط ٠

وإذن فاسلام الوجه لله الذى يتناول العبادة لايعدو أمرين :ـ

أولهما ـ إخلاص القصد فى عبادة الله وحده ٠

ثانيهما ـ ألاّ يعبد الله إلا بما شرعه على لسان رسوله بل على لسان سائر رسله كما قال تعالى :

﴿ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا اليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ﴾

الآية ، فشريعة الله متسلسلة فى الأنبياء جميعا منذ نوح إلى خاتم الأنبياء نبينا محمد عليه وعليهم أفضل الصلاة والتسليم ، فكل تشريع أو قانون أو نظام لم يكن على غرار ما شرعه الله على لسان رسوله ، والدستور الذى وضعه لعباده ، هو مناهض لشرع الله ، الذى شرعه ، وفى اتباعه اتباع لغير سبيل المؤمنين الذين اسلموا وجوههم لله ، والتزموا كل التزام فرضه الاسلام عن واقع ، قال الحافظ ابن كثير رحمه الله تعليقا على قول الله تعالى :

﴿ بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولاهم يحزنون ﴾

إن للعمل فى المستقبل شرطين أحدهما أن يكون خالصا لله وحده ، والآخر ان يكون صوابا موافقا للشريعة ، فمتى كان خالصا لله ولم يكن صوابا لم يتقبل ، ولهذا قال ﷺ (من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد) فعمل الرهبان ومن شابههم وإن فرض أنهم مخلصون فيه لله فانه لا يتقبل منهم ، حتى يكون ذلك متابعا للرسول ﷺ المبعوث للناس كافة وأما العمل إذا كان موافقا للشريعة فى

الصورة الظاهرة ولم يكن يخلص عامله فيه القصد فهو أيضا مردود على فاعله ، وهذا حال المرائين والمنافقين ـ كما قال تعالى :

﴿ ان المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ولا يذكرون الله الا قليلا ﴾ ٠

قال شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله : ـ وهذان الأصلان ويعنى إخلاص العمل لله والانتهاج فيه نهج رسول الله ، هما تحقيق للشهادتين اللتين هما رأس الاسلام شهادة أن لا اله الا الله ، وأن محمدا رسول الله ، فان الشهادة لله بأنه لا إله الا هو ، تتضمن الاخلاص فى الالوهية لله ، فلا يجوز أن يؤله القلب غيره ، لابحبّ ولا خوف ولا رجاء ولا إجلال ولا إكبار ولا رغبة أو رهبة بل لابد أن يكون الدين كلّه لله ٠

والشهادة بأن محمدا رسول الله تتضمن تصديقه فى كل ما أخبر به ، وطاعته فى كل ما أمر به فلا دين الا ما شرعه الله على لسان رسوله ٠

وليت شعرى ماذا عسى أن يقرره شيخ الاسلام ابن تيمية واسلافه من أئمة الهدى ، فى التدين بميثاق ماركس والأخذ بمبادىء لينين ، وستالين ، وهو فى واقعه ، يهدم العقيدة والعبادة والخلق المتين ، ولندلل على ذلك إلى حد ما فى بحث اسلام الوجه لله ، ليقف المسلمون على الفرق العظيم بين الواقع الصحيح لدين الاسلام ، وبين ضلالات ماركس وستالين ولينين وانتصار البعض لهم بل وحمل الناس عليها ترويجا لباطلهم ٠

يقول صاحب كتاب بلشفة الاسلام نقلا عن مجلة (كومونيست) السوفيتية : ـ إن الذين نشطوا للدعوة بان الاسلام دين العدالة الاجتماعية ، يجب أن يكونوا دائما على حذر فلا نفع فى هذه الدعوة إذا لم يصاحبها تحطيم للمنظمات الدينية ، وصهر بها فى بوتقة التحول ٠ إن التقبيح للأديان كما أوصى به لينين ،

يجب أن يصاحبه الهدم ، لكل قاعدة يمكن أن يتخذها الدين سبيلا إلى البعث والتضامن والتماسك •

ونقل عن مجلة سوفيتية أخرى تدعى (العلم والدين) ما نصه:- يجب ان نستعيض عما وعد به أرباب الأديان من فردوس فى العالم الآخر بالفردوس الذى تبنيه الشيوعية ، والذى تسميه العدالة الاجتماعية ، وصرحت المجلة نفسها فى موضع آخر بالآتى : إن بين الشيوعية والأديان السماوية صراعا مستمرا •

وحسبنا هذه الالمامة عن مذهب الضلال والالحاد والشيوعية التى يفرضها البعض ويسيرون فى ركابها ويعتمدونها كدستور يستعيضون بها عن دستور رب العالمين القرآن ـ وكفى بالقرآن هاديا ، وكفى بالاسلام الذى ارتضاه الله لعباده دينا ، كفى به سبيلا يهدى إلى المسيرة الخيّرة ويوصل إلى الغاية الحميدة •

بين الأسباب والمسببات

يقول الله سبحانه :

﴿ ولو أنهم أقاموا التوراة والانجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم ﴾

ربط الاسباب بالمسببات منطق معقول ، وعدل لا مرية فيه ·· فمن مسببات خفض العيش مثلا وترادف النعم : مواصلة السعى فى مجالات الكسب وميادين الرزق ، والدأب على العمل والكدح ، كما قال تعالى ممتنا على عباده ، موجها أنظارهم للعمل وترك التوانى والكسل :-

﴿ هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه واليه النشور ﴾

كما أن من مسببات الفقر والحرمان من رخاء العيش : الكسل فى طلب الرزق والقعود عن كل نشاط فى مجالات الحياة ، وثمة أسباب ومسببات وراء هذا الكسب المادى لها من التأثير الواقعى فى الحظوة ببلهنية العيش مالا يدركه الا المؤمن التقى الواعى الصالح البصير ، أسباب ومسببات تترجم عنها الآية الكريمة :

﴿ ولو أنهم أقاموا التوراة والانجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم ﴾

والمعنى بذلك أهل الكتاب ·· لو أنهم أقاموا أحكام الكتاب المنزل إليهم من ربهم فيه الهداية والرشاد ، وعملوا بما تضمنته من التشريع دون تحريف أو تبديل

وأقاموا أيضا حدوده دون تفرقة فيها بين شريف ووضيع ، وإلى جانب ذلك آمنوا بما أنزل إليهم من ربهم وهو القرآن ، ومن أنزل عليه القرآن وهو الرسول ﷺ سيد الأنام لو فعلوا ذلك لكان لهم سببا من أعظم الأسباب لرخاء العيش والتوسعة فى موارد الرزق ، ولأرسل الله عليهم الغيث مدرارا ، فأكلوا من ثمار الأرض وبركات السماء ، ولئن كان المعنى فى هذه الآية أهل الكتاب الا أن العبرة بالآية عامة شاملة لا تقتصر على أهل الكتاب دون غيرهم ، فكل أمة بعث الله فيها رسولا وأنزل عليه كتابا فان من الواجب المفروض عليها ، ومن الأسباب الناجحة الفعالة فى الامداد لها فى الرزق والبسطة فى النعيم العمل بكتاب ربها ، والأخذ به فى حزم وعزم دون التواء أو تفريط ٠٠ وإن واقع الرسل مع أممهم فى العصور الخوالى ليصورّ ذلك أوضح تصوير ، فلقد قص القرآن من أخبار نوح عليه السلام مع قومه أنه كان من أساليب دعوته التى انتهجها : توجيه أنظارهم إلى مجالب نعم الله ، وأسباب ترادف خيره وبره ، كما حكى الله عنه اذ يقول :

﴿ فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا يرسل السماء عليكم مدراراً ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً ﴾

وبنفس هذا الاسلوب دعا هود قومه كما حكى الله عنه فى سورة هود اذ يقول : ـ

﴿ وياقوم استغفروا ربكم ثم توبوا اليه يرسل السماء عليكم مدرارا ويزدكم قوة إلى قوتكم ولا تتولوا مجرمين ﴾

وفى هذا المعنى أيضا ما يرسم اتجاها واضحا أن الصلاح والتقوى والأخذ بتعاليم الدين وطاعة رب العالمين وسائل ومسببات تجلب النعم كما قال تعالى :

﴿ ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ﴾

أى تابعنا عليهم نزول الغيث من السماء فيه البركة والثمار والخير ، وانبتنا لهم من خيرات الأرض ما يكون لهم به سعة الرزق وخفض العيش ·· وفى هذا المعنى أيضا قوله تعالى :

﴿ من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ﴾

وتشمل الحياة الطيبة جميع أسباب الخير ووسائل النعيم فى الدنيا (**ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعلمون**) أى يحصى الله لهم أعمالهم ويجزيهم عليها فى الآخرة خير الجزاء وأجزله وأتمه وأوفاه ·· فتقرر من هذا العرض ما أسلفنا القول عنه فى صدر هذا الحديث وهو أن وراء الأسباب والمسببات المادية أسبابا لها أثرها الملحوظ فى كسب السعادة غير أن طغيان المادة فى أكثر المجتمعات الاسلامية كان له الأثر العكسى فى النفوس ، فلم يعد يوقن بفعالية هذه الأسباب الا الصفوة من عباد الله الأبرار ، والصالحين الأخيار الذين لا يخلو منهم زمان ولا مكان ولم يقف الأمر عند هذا الحد من تقديس المادة ، وربط كل المقدرات والأسباب والمسببات بها ، بل لقد أخذت بعض المجتمعات الاسلامية فى طريق معاكس لطريق الله السوى الذى أمر عباده بانتهاجه وحذرهم من الحيدة عنه حيث يقول :

﴿ وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ﴾

أجل لقد أصبح فى المجتمعات الاسلامية دعاة إلى الرذيلة ، والدعوة الى هذا الانحلال فى مجالاتها الواسعة حتى اتسعت الشقة ، وكان ذلك سببا للنكبات والمتاعب التى تعانيها الأمة فى أعقاب الزمن ، وتلك نتيجة طبيعية حتمية لامناص منها كما قال تعالى :

﴿ ظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدى الناس ليذيقهم بعض الذى عملوا لعلهم يرجعون ﴾

قال بعض المفسرين : الذنوب سبب الفساد والمراد به النقص والشر وأوضح ما يصورها : هذه الحروب التى لا تخمد جذوتها ، والفتن فى كل مكان ، والآلام التى يحدثها الله فى الأرض بمعاصى العباد ، فكلما أحدثوا ذنبا أحدث الله له عقوبة ، كما قال بعض السلف : كلما أحدثتم ذنبا أحدث الله لكم من سلطانه عقوبة ولذلك قال تعالى :

﴿ ليذيقهم بعض الذى عملوا لعلهم يرجعون ﴾

أى يبتليهم بنقص الأموال والأنفس والثمرات اختبارا منه ، ومجازاة على سوء صنيعهم (لعلهم يرجعون الى الله بالتوبة الصادقة من معاصيهم ، وفى الأحاديث النبوية مما يقررها الواقع ، مدٌ لا يكفكف غربه ٠

من ذلك قوله ﷺ فى حديث ابن عمر رضى الله عنهما ، قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : (**اذا ضنّ الناس بالدينار والردهم وتبايعوا بالعينة ، واتبعوا أذناب البقر ، وتركوا الجهاد فى سبيل الله أنزل عليهم بلاء لا يرفعه عنهم حتى يراجعوا دينهم**) وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ (**ما طفف قوم كيلا ولا بخسوا ميزانا إلا منعهم الله القطر أى المطر ـ وما ظهر فى قوم الزنا إلا ظهر فيهم الموت وما ظهر فى قوم الربا إلا سلط الله عليهم الجنون ـ ولا ظهر فى قوم القتل يقتل بعضهم بعضا الا سلط الله عليهم عدوهم ولا ظهر فى قوم عمل قوم لوط الا ظهر فيهم الخسف وما ترك قوم الامر بالمعروف والنهى عن المنكر إلالم ترفع أعمالهم ولم يسمع دعاؤهم**) ٠٠

وهكذا تتجدد المصائب والمتاعب على العباد بتجدد الجرائم واقتراف الآثام وهى مؤاخذة ببعض الجرم ، أما لو أخذ الناس بما اجترحوا وعوقبوا بكل ما اقترفوا لما ترك الله على ظهر الأرض من دابة كما قال تعالى :

﴿ ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى ﴾

وقال تعالى :

﴿ وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير ﴾

نسأل الله العفو والعافية

التحاكم إلى الطواغيت

يقول الله سبحانه :

﴿ الم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك يريدون ان يتحاكموا إلى الطاغوت ﴾

التناقض فى المذهب والتضارب فى الاتجاه ، دليل على تفاهة الشخصية وعدم النضوج ، أو على مدى فساد التصوّر والانقسام فى الرأى ، بحيث تكون النظرة إلى الشىء مزدوجة ، فهوزين وشين فى آن واحد ٠٠ وذلك شر واقع تعظم به البلوى ، وتختفى فيه الحقائق فالاسلام سفينة نجاة لمن عبر عليها توصله إلى مأمنه بعيدا عن المخاطر ، غير أن المتناقض فى مذهبه ، المتضارب فى اتجاهه ينظر إلى الاسلام من زاوية خاصة توحى بفساد تصوره ، وانقسام رأيه فالذين حكى القرآن تناقضهم وتضاربهم فى الأخذ بالاسلام والاهتداء باشعاع الهدى وقال تعالى :

﴿ واذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا واذا خلوا إلى شياطنهم قالوا انا معكم انما نحن مستهزئون ﴾

اولئك أبرز مثل للشخصية التافهة المضطربة التى فسد تصورها ، وانقسمت نظرتها إلى الاسلام فهو فى نظرها زين وشين : زين بالنسبة لما تتفيأ ظلاله من الأمن والطمأنينة على الأموال والأرواح ، ولما تستفيده من الكسب المادى والأدبى ٠ وشين فى نظرهم أيضا لأنه يلزمهم بالتزامات وتكاليف يستثقلونها

ويتهربون من الوفاء بها والقيام عليها كمبدأ وعقيدة لا مندوحة عنها ، وبذلك أخفوا حقيقة اسلامهم وراء مصانعتهم أو خداعهم ، وستروا واقعهم بستار التناقض الذى كثيرا ما كان يظهر فى فلتات السنتهم أو انحراف اتجاههم ، كما يصور ذلك القرآن فى غير ما آية ، منها قوله تعالى :

﴿ الم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت ﴾

قال الحافظ ابن كثير فى التفسير : هذا إنكار من الله عز وجل على من يدعى الإيمان بما أنزل الله على رسوله وعلى الأنبياء الأقدمين ، وهو مع ذلك يريد أن يتحاكم فى فصل الخصومات إلى غير كتاب الله وسنة رسوله . كما ذكر فى سبب نزول هذه الآية أنها فى رجل من الأنصار ورجل من اليهود ، وفى رواية (فى جماعة من المنافقين) ممن أظهروا الاسلام فجعل اليهودى يقول : - بينى وبينك محمد ، والآخر يقول : - بينى وبينك كعب بن الأشرف والآية اعم من ذلك كله ، فانها ذامة من عدل عن الكتاب والسنة وتحاكم إلى ما سواهما من الباطل وهو المراد بالطاغوت .

واذن وعلى حد تعبير ابن كثير رحمه الله فى تعميم الآية ، وعدم محدوديتها بسبب النزول - تتسع أمامنا النظرة وينفسح المجال لتطبيق كل تحاكم إلى غير دين الله وشرعه ، انه تحاكم إلى الطاغوت دون استثناء زمن عن زمن ، ودون تخصيص طائفة عن أخرى وما أكثر الطواغيت فى أعقاب الزمن ، وما أعظم بلوى المجتمعات الاسلامية بالتحاكم اليها ، والانصياع لأحكامها ، ولئن كان فى الماضى وفى أحياء العرب طواغيت تعارف المجتمع الجاهلى على التحاكم إليها ، وأتى الاسلام عليها من القواعد ، ليكون الدين لله ، فان مما يحز فى نفس المسلم الواعى ، أن ترتكس الفطر ، وأن تمنى بعض الاوساط الاسلامية بالوان من الطواغيت لا تحدد بلون ، بل هى شاملة شمول اللفظ والمدلول لكلمة (طاغوت) وهو أى الطاغوت مأخوذ من : الطغيان ، أى مجاوزة الحد والخروج

عن العدل ، وإن من مجاوزة الحد والخروج عن العدل فى أبشع صورة : العدل عن حكم الله ورسوله إلى حكم الأنظمة والقوانين الوضعية والتحكام إليهـا ، ووضع حيثيات الأحكام طبق بنودها ، ثم الرضاء والتسليم لأحكامها ، وانهـا لأخطر على الاسلام من طواغيت الجاهلية وأشد خطبا ، لأنها خطـوة جريئـة للتحلل من الاسلام والحكم به وعزل كتابه عن أن يكون دستورا تستمد منه الامة الحكم والتشريع ، أخذا بتوجيه ربها حيث يقول :

﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهـم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما ﴾

وحيث يقول أيضا :

﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقـد ضل ضلالا مبينا ﴾

وأى عصيان أعظم من أن يكون لمن يحتضن الاسلام أمر دون أمر الله ، وحكم غير حكمه ، وتشريع ينبذ من أجله الحكم بكتاب ربـه ، لم يكتف التـوجيه القرآنى بضرورة تحكيم الكتاب والسنة فيما يشتجر فيه المسلمون ويكون موضع نزاع بينهم ٠

بل جعل وراء ذلك : الرضا بالحكم ، والتسليم لقضاء الحاكم بالوحى :

﴿ ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما ﴾ ٠٠

روى أن الزبير رضى الله عنه خاصم رجلا من الأنصار قد شهد بدرا فى شراج فى الحرة اى فى مسيل الماء من الحرة إلى السهل كانا يسقيان به النخـل فقـال الأنصارى : سرح الماء يمر بى ، فأبى عليه الزبير فقال رسول الله ﷺ **(اسق يا زبير ثم أرسل إلى جارك)** فغضب الانصارى وقال : يارسول الله ، ان كان

ابن عمتك ، فتلون وجه رسول الله ﷺ ثم قال (**اسق يا زبير ثم احبس الماء حتى يرجع إلى الجدار**) فاستوعى رسول الله ﷺ للزبير حقه ، وكان قبل ذلك قد أشار على الزبير برأى فيه السعة له وللأنصارى ، فلما احفظ الأنصارى رسول الله ﷺ فاستوعى للزبير حقه فى صريح الحكم ، والعبرة من هذه القصة ما أسلفنا القول عنه من ضرورة التسليم والرضا بحكم الله ورسوله اى بكتاب الله وسنة رسوله فى أى زمن وفى أى بقعة ، من بقاع الدنيا تدين بالاسلام ، لامجرد قبول الحكم ضربة لازب لامفر من تنفيذه ، ولذلك جاء الوعيد الصارخ فى حق من لم يذعن لحكم الله ورسوله أو يخالف عن أمره كما قال تعالى :

﴿ فليحذر الذين يخالفون عن أمره ان تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم ﴾

أى فليحذر من خالف شريعة الرسول بقول أو فعل أو حكم أن تصيبه فتنة أى بلاء فى الدنيا وعذاب مؤلم فى الآخرة جزاء مخالفته لأمر رسول الله وحكمه وشرعه ، وكل حكم بالقوانين الوضعية والنظم الأرضية لا يستلهم حيثياته من كتاب الله او سنة رسوله فهو مخالفة لحكم الله ورسوله ومناهضة لشرعه ، يشمل الحاكم به والمحكوم له الوعيد الوارد فى الآية آنفة الذكر ٠

التحاكم إلى الطواغيت أيضاً

قلت فى حديث سبق عن شرح معنى الطاغوت إنه : مأخوذ من (الطغيان) وهو مجاوزة الحد ، والخروج عن العدل وإن من مجاوزة الحد والخروج عن العدل فى أبشع صورة : العدول عن حكم الله ورسوله إلى حكم الأنظمة والقوانين الوضعية ، إلى آخر ما تحدثت به وأزيده هنا بسطا وايضاحا ليستبين بوضوح أن كل خروج عن حكم الله إلى غيره فهو حكم بالطاغوت ٠

ولنعرض لقول الله تبارك وتعالى وأمره لرسوله فى دعوة أهل الكتاب إلى كلمة سواء هى عبادة الله وحده والاخلاص له فى التأليه والربوبية ٠٠ قال تعالى :

﴿ قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألَّا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله ﴾

فالشطر الأول من الآية (**الاّ نعبد الا الله**) يفيد حصر الالوهية وقصرها على الله جل جلاله والشطر الثانى :

﴿ ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله ﴾

وهو موضوع بحثنا ومجال بسطنا ٠ والرب هو الذى يربى عباده بالنعم ، كما يربيهم بالتشريع ، فله وحده حق التشريع يشرع لعباده من الشرائع ما فيه صلاحهم وفلاحهم وما يترتب عليه احراز السعادة فى العاجلة والآجلة ، فلو اتخذ الناس مشرعين كصنيع من يأخذ بتشريع القوانين الوضعية لاتخذوا من البشر

أربابا من دون الله ، يشرعون لهم مالم يأذن به الله كما قال تعالى ذامّا من يجنح إلى ذلك : -

﴿ ام لهم شركاء شرعوا لهم من الدين مالم يأذن به الله ﴾

ويوضح ذلك حديث عدى بن حاتم قال : أتيت رسول الله ﷺ وفى عنقى صليب من ذهب فقال : (**ياعدى اطرح عنك هذا الوثن**) ثم قرأ (**اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله**) قلت يا رسول الله لم يكونوا يعبدونهم : قال (**اليس يحرمون ما أحل الله فيحرمونه ويحلون ما حرم الله فيحلونه**) قلت : بلى قال (**فتلك عبادتهم**) أى كانت عبادتهم لهم بالتشريع الذى هو حق الرب جل جلاله وهو مظهر ربوبيته ، فكل من قدس تشريعا وضعيا وقانونا أرضيا ، وأخذ به وتحاكم إليه واستجاب له فقد اتخذ ربا من دون الله ، وأخذ بالطاغوت الحائد عن طريق الله ، المضلّ عن سبيل الله ، والذى أمر الله عباده ان يكفروا به اذ أن الكفر به ركن التوحيد الذى لا يقوم اسلام الابه ، كما قال تعالى :

﴿ فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها ﴾

ولذلك ، ندد القرآن فى آيات متتابعة بصنيع من يحكم بغير ما أنزل الله ، وجعله كافرا ، ظالما ، فاسقا كما قال تعالى :

﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ﴾ ،
﴿ فأولئك هم الظالمون ﴾ ،
﴿ فاولئك هم الفاسقون ﴾

وجعل الحكم بغير ما أنزل الله حكم جاهلية فاسداً ، لايذعن إليه أو يستسلم له الا من كان فى نفسه رواسب للجاهلية المتداعية ، كما قال تعالى بعد توجيهه

الرسول ﷺ للحكم بما أنزل الله وعدم اتباع اهواء المناهضين له :

﴿ وان أحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواء هم وأحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله اليك فان تولوا فأعلم انما يريد الله ان يصيبهم ببعض ذنوبهم وان كثيرا من الناس لفاسقون أفحكم الجاهلية يبغون ﴾

علق الحافظ ابن كثير على قوله تعالى (**أفحكم الجاهلية يبغون**) فقال : ينكر تعالى على من خرج عن حكم الله المشتمل على كل خير ، وعدل الى ما سواه من الآراء والأهواء التى وضعها الرجال بلا مستند من شريعة الله ، كما ذهب أهل الجاهلية وكما يحكم به التتار من السياسات المأخوذة ، عن جنكيز خان الذى وضع كتابا مجموعا من أحكام اقتبسه من شرائع شتى وفيها كثير من الأحكام أخذها بمجرد نظره ، وصار فى دولته شرعاً يقدمونه على الحكم بالكتاب والسنة ، ومن فعل ذلك فهو كافر حتى يرجع إلى حكم الله ورسوله ، فلا يحكم بسواه فى قليل أو كثير وليت شعرى ماذا عسى ان نقول وقد طغى سيل القوانين الوضعية على ديار الاسلام ، وغدا الحكم بالأنظمة والقوانين المقتبسة من القانون الرومانى والفرنسى وغيرهما من القوانين الوضعية مصدر التشريع ، واليها التحاكم وعليها المعول فى كل القضايا دون الرجوع إلى دستور السماء الذى حفظه الله من التبديل والتغيير والذى قال عنه سبحانه :

﴿ ما فرطنا فى الكتاب من شىء ﴾ .

وقال :

﴿ أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا ﴾

وهذا الاختلاف الكثير هو ما يوجد فى القوانين والأنظمة . فلكل قطر نظام ، ولكل صقع دستور ، وما حكم به اليوم يلغى فى الغد ، وما قدسه البشر فى الحاضر من

تشريع على اعتباره يعتمد المصالح ويحفظ الحقوق ، يقول بعض المفسرين فى تفسيره لقول الله تبارك وتعالى :

﴿ **وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا** ﴾ ٠

فاما القاعدة الثانية قاعدة تلقى الشريعة من مصدر واحد ﴿ **وما آتاكم الرسول فخذوه** ﴾ الآية فهى كذلك تمثل النظرية الدستورية الاسلامية ، فسلطان قانون الاسلام مستمداً من أن هذا التشريع جاء به الرسول ﷺ قرآنا أو سنة ، والأمّة كلها والامام معها لا تملك أن تخالف عما جاء به الرسول ، فاذا شرعت ما يخالفه لم يكن لتشريعها هذا سلطان ، لأنه فقد السند الأول الذى يستمد منه السلطان ، وهذه النظرية تخالف جميع النظريات البشرية الوضعية ، بما فيها تلك التى تجعل الأمة مصدر السلطان ، بمعنى أن للأمة أن تشرع لنفسها ما تشاء ، والأمة تقوم بهذه الشريعة وتحرسها وتنفذها والامام نائب عن الأمة فى هذا ، وفى هذا تنحصر حقوق الأمة ، فليس لها أن تخالف عما آتاها الرسول فى أى تشريع ٠

وبعد : فان هذه هى النظرية الدستورية الاسلامية لمن أسلم وجهه لله ، ورضى بالله ربا ، وقبل الاسلام دينا وآمن بمحمد ﷺ رسولا مبلغا عن الله شرعه الذى يتمثل فى كتابه وسنة رسوله ، أما ما عداها فيجب ألاّيقيم لها المسلم فى معياره حسابا ، وأما التناقض الذى يصوره الايمان ببعض الكتاب والكفر بالبعض الآخر وبعبارة اصرح : قصر الحكم بما أنزل الله على الأحوال الشخصية ، والأمور الزوجية والتحاكم فى غيرها إلى القوانين الوضعية فهو (رواسب جاهلية) وتحاكم الى طاغوت وصدق الله اذ يقول :

﴿ **فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ، ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما** ﴾ ٠٠

مزاعم باطلة

الخطأ والزلل عندما يكون فى أمر ليس بذى موضوع يهون فيه الخطب اذ لا يترتب عليه اخطار ولا اضرار ويمكن تداركه وتلافى الندوب التى تحدث منه ، فالتخلف عن نوافل العبادة مثلا وعدم حفز النفس للتسابق فى الباقيات الصالحات او حتى لو انزلق المرء الى ارتكاب صغائر الذنوب كل أولئك مما يمكن تداركه بمجاهدة النفس وحملها على الواجب او استصلاح الفارط منها بالتوبة وطلب الغفران ، اما الخطأ فى أمر جوهرى له خطورته ويترتب عليه انعكاس فى الأوضاع الصحيحة السليمة أو اختلال فى الموازين او التواء فى المذهب فهو خطأ يعظم به الخطب ويتفاقم الضرر ، أبرز الأمثال على ذلك المزاعم المضللة والدعاوى الباطلة دعاوى ومزاعم البعض : ان الماركسية من كمال الدين لأن من كمال الدين ان تحب لأخيك ما تحب لنفسك ، كبرت كلمة تخرج من أفواههم ان يقولون الا كذبا ، ان هى الا مزاعم مضللة انجرف اليها انماط من السطحيين الذين لم تكن لهم من دينهم ركائز يعرفون بها الحق من الباطل ، وان الماركسية ما هى الا مبدأ هدام لو أزيح عنه القناع لظهرت مساوئه ولعرف الناس انه الشيوعية الحمراء لحما وسدى ، عدوة الأديان ، هادمة الاخلاق ، مستلبة الأموال بسيف القانون ، فلم يعد أحد من العقلاء يستمع الى التغنى بهذه الماركسية فضلا عن ان يحتضنها • انها دعوة الى الالحاد السافر فليس فى الكون اله مدبر حكيم على مايزعم الماركسيون ، المادة وحدها هى الاله المسيطر على الكون ومن

ثم تلغى حقوق الملكية الفردية بدعوى انها فاسدة وسبب للشرور بين الطبقات وترتكب كل جريمة فى سبيل توفير المادة .

فالغاية لدى الماركسية تبرر الوسيلة ، فاين هذه الماركسية المضللة من سماحة الدين الاسلامى وسمو مبادئه وعدالة قضاياه ، وربطه بين قلوب المجموعة الاسلامية بفرض فرص التكافل الاجتماعى فى أوسع الحدود وندبه الى التعاطف والتراحم والايثار والتضحية ؟ فلا يرى المسلم نفسه أحق بدرهمه من أخيه المسلم ، واحترامه للملكية الفردية وتنظيم طرق الانفاق حتى لا يبقى جائع بين ممتلئين ولا عار بين مكتسين كما جاء فى الحديث (**ايما أهل عرصة بات بينهم امرؤ جائعاً فقد برئت منهم ذمة الله**) ويفرض الحصانة للمسلم فى الدم والمال والعرض كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه الى غير ذلك من التعاليم الاسلامية التى لا ينقذ البشرية غيرها ، واذا كان رب العزة قد حذر أهل الكتاب من الغلو فى الدين ، والغلو مجاوزة الحدود والقيود المشروعة المرعية .

فان المسلمين معنيون بذلك كما أسلفنا فى حديث سبق . فالعبرة فى نزول القرآن بعموم لفظه وشموله لكل قضية مماثلة ولكل مسلك يحذر منه القرآن ويتجافى بأهله عن الانخراط فيه لا بخصوص سبب النزول ، أقول اذا كان رب العزة قد حذر أهل الكتاب من الغلو فى الدين أفلا يجدر بالمسلمين وهم حملة التراث الاسلامى ان يربأوا بانفسهم عن كل مجاوزة لحدود الدين وكل ارتكاس عن مبادئه وتعاليمه ولئن كان فى النصارى من اله المسيح ابن مريم وعبده من دون الله أو مع الله غلوا وخروجا عن دين الله فان الماركسيين قد الهوا المادة وعبدوها من دون الله وانصرفوا الى الاستغلال وسلب الأموال واثاروا القلاقل فى المجتمعات فكان صنيعهم أخبث من صنيع النصارى وأشنع وأبشع ، ولقد كان غلوّ النصارى تدينا يزعمونه وقربى يلتمسون بها حسن العقبى على زعمهم اما الماركسيون فان غلوهم فى المادة تدين بدين ماركس الملحد عدو الاديان وقربى يلتمسون بها رضاء الشيطان وكم للشيطان من ضحايا فى دنيا الناس يقدمهم الى

الجحيم كما قال تعالى محذرا من اغوائه وتتبع خطواته

﴿ ان الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا انما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير ﴾

نعود بعد هذا الاستطراد الذى دعت اليه الحاجة وله ارتباط بموضوعنا اذ نتحدث عن الغلو فى الدين نعود فنذكر ما قرره علماء التحقيق فى قوله تعالى :

﴿ ياأهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم ﴾

اذ قالوا : إن الغلو هو الافراط فى التعظيم بالقول والاعتقاد ، والمراد منه مفهوما ومنطوقا عدم رفع المخلوق فوق منزلته التى انزله الله حيث يوصله الغلو الى منزلة الخالق جل جلاله • وقرروا ان الخطاب وان كان لأهل الكتاب الا انه عام يتناول كل فرد فى الأمة تحذيرا من أن يصنع بنبيه ﷺ ما صنعته النصارى فى عيسى واليهود فى العزير كما قال تعالى محذرا من مهابطهم

﴿ ألم يأن للذين امنوا ان تخشع قلوبهم لذكر الله ومانزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون ﴾

ولهذا قال ﷺ محذرا بعد تحذير القرآن موجها الأنظار الى حظر الغلو فيه (**لا تطرونى كما اطرت النصارى ابن مريم**) اى تتجاوزوا الحد فى مديحى لدرجة الارتفاع بل الى مقام التأليه (**وانما انا عبد فقولوا عبدالله ورسوله**) فكل اطراء للرسول ﷺ فهو خروج عن هديه مجاوز لشرعه وكم كان للغلو من آثار سيئة عبر عنها ﷺ بقوله (**اياكم والغلو فى الدين فانما اهلك من كان قبلكم الغلو فى الدين**) قال شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله : هذا عام فى جميع انواع الغلو فى الاعتقاد والاعمال فان المشارك لمن كان قبلنا فى بعض هديهم يخاف عليه الهلاك •

الفصل الرابع

من مناهج العارفين

- الإمام علي : المثل والأنموذج .
- في دروب مثالية الإمام .
- وصف الإمام للواقع الصحيح للعلماء .
- من توجيهات الإمام لعماله .
- طائفة من مواعظ الإمام وأطراف من زهده .
- طائفة من حلم الإمام وحديثه عن حق الراعي والرعية .
- وعظ الإمام ووصفه واقع الناس .
- من مناهج العارفين أيضاً (أبو حازم والخليفة سليمان بن عبد الملك)
- نقد أبي حازم للزهري .
- وصية القاضي أبي يوسف للرشيد .
- أحد العارفين يعظ المنصور في حجه .
- تأثر بعض العارفين بعظات القرآن (١ - ٢) .

الإمام علي : المثل والأنموذج

العارفون بالله لهم فى كل خطوة يخطونها وكل اتجاه الى الله ومراقبة لعظمته نهج سديد فهم بمنجاة عن دنيا الناس لا يشغلهم عن الله مباهج الحياة وزينتها ولا يصدهم عن الاتجاه الى الله مغريات المادة وفتنتها (**اولئك على هدى من ربهم واولئك هم المفلحون**) وان خير ما يصور واقعهم نعوت الجلال وصفات الحمد التى وصفهم بها رب العزة فى محكم الكتاب فقال :

﴿ وعباد الرحمن الذين يمشون على الارض هونا واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم ان عذابها كان غراما ﴾

الى غير ذلك من امثلة مناهجهم وما وصفهم الله به فى كتابه مما يتعذر عرضه فى سطور نكتفى منه بالالمامة ونقتصر على الاشارة لنتفرغ الى عرض بعض شخصياتهم والتحدث عن حياتهم املا فى اخذ القدوة عنهم ولتكون بهم الاسوة فى زمن احوج ما يكون الناس فيه الى القدوة الصالحة والاسوة الراشدة لكى يصلوا الى الغاية الحميدة فهى منتهى أمل المسلم الواعى الرشيد وأفضل ماَزّم اليه الخطى من مطالب ومقاصد

ونستهل الموضوع عن شخصية هى فى الطليعة وهى المثل الرائع والأنموذج الرفيع لصلاح الصالحين وتقوى المتقين ، شخصية شع فى جوانبها نور النبوة منذ النشأة فكان لهذا الاشراق اثره فى الهداية الى طريق الله السوى ، انها شخصية

الامام على بن ابى طالب رضى الله عنه وكرم الله وجهه ، رابع الخلفاء الراشدين وختن سيد المرسلين وأحد العشرة المبشرين بالجنة ووالد الحسن والحسين سبطى رسول الهدى رضى الله عنهما .

وان فى شخصية الامام جوانب للعظمة لن نوفيها حقها من البحث لو أردنا الاستيعاب والبسط ، وليس ذلك من اهداف حديثنا ولكنا سوف نتحدث عنها من الجانب الذى نأخذ منه قبسا فى الهداية ومثلا للقدوة الا وهو الجانب الروحى وهو الحلقة المفقودة فى اعقاب الزمن حيث طغت المادة على كل القيم الروحية واستبدت بالافكار واضحى الناس منها فى خطر يهدد كيانهم ويكاد يعصف بحضارتهم ويأتى على بنيانهم كما صور الله هذا الواقع المخيف بقوله :

﴿ إنما مثل الحياة الدنيا كماء انزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والانعام حتى اذا اخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها انهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس ﴾ .

وباكورة حديثنا عن الامام كرم الله وجهه فى وصفه الذى ينطبق على واقعه والذى يصور اخبات العابد وضراعة الخاشع وعزوف الزاهد عن متع الحياة وزينتها وعدل الوالى وحزمه وحصافته وبعد نظره واصالة رأى الحكيم ودقة تصويره .

جلس الخليفة معاوية رضى الله عنه فى مجلس الحكم بعد ان استتب له الأمر فدخل عليه ضرار بن ضمرة الكنانى احد اتباع الامام الذين سبروا غوره ، ووقفوا على مداخله وانعكست عليهم شخصيته فاذا تحدثوا عنه أو وصفوه لم يغلوا فيه او يجفوه بل يتحدثون عن حقيقة وعلم ودراية ، فطلب منه معاوية رضى الله أن يصف له الامام عليا وحاول ضرار ان يتهرب خشية ان يكون فى تقريره للواقع وحكاية وصف الامام ما يستثير الدفين او يحرك الشجن فقال : اعفنى يأمير

المؤمنين فقال : لا اعفيك ابدا لتصفنه · قال ضرار : اما اذ لابد من وصفه فانه والله كان بعيد المدى شديد القوى يقول فصلا ويحكم عدلا ، يتفجر العلم من جوانبه وتنطق الحكمة من نواحيه ، يستوحش من الدنيا وزهرتها ويأنس بالليل وظلمته ، وكان والله غزير العبرة طويل الفكرة يقلب كفيه ، ويخاطب نفسه أي يصنع صنيع المتفكر المقدر للعواقب ·· اشهد لقد رأيته فى بعض مواقفه وقد ارخى الليل سدوله وغارت نجومه قابضا على لحيته يتململ تململ السليم ويبكى بكاء الحزين فكأنى اسمعه الآن وهو يقول : ياربنا ياربنا ، يتضرع اليه ثم يقول للدنيا : الى تعرضت أم الى تشوقت هيهات هيهات ، غرى غيرى ، قد طلقتك ثلاثا لا رجعة فيها ، فعمرك قصير ، ومجلسك حقير ، وخطرك يسير ـ آه آه من قلة الزاد ، وبعد السفر ، ووحشة الطريق ، كان يعجبه من اللباس ما قصر ومن الطعام ما خشن ، كان والله كأحدنا يدنينا اذا اتيناه ويجيبنا اذا سألناه ، وكان مع تقربه الينا وقربه منا لا نكلمه هيبة له يعظم أهل الدين ويقرب المساكين لا يطمع القوى فى باطله ولا ييأس الضعيف من عدله فلم يتمالك معاوية رضى الله عنه ان هملت عيناه وتحدر دمعه على لحيته فأضحى المجلس وليس فيه الامن اختنق بالعبرة تأثرا من دقة وصف الامام وتصوير واقعه ، وقال معاوية مؤيدا هذه الحقيقة ومتسائلا عن شعور ضرار لطى صحيفة الامام ولحاقه بربـه ، قال : كذا كان ابوالحسن رحمه الله فكيف وجدك عليه ياضرار ؟ فقال رافعا عقيرته غير هياب لسطوة او مجاملا ، فى كتمان شعور يحس به فى قرارة نفسه : انه وجد من ذبح وحيدها فى حجرها فهى لا يرقأ دمعها ولا يسكن حزنها أى فهو الى الابد حزين كاسف البال ، لا يصفو له عيش ولا تقر له عين ، وانه لوفاء يعز مثاله ويندر فى دنيا الناس مثاله وفاء للشخصية العظيمة الفذة شخصية الامام رضى الله عنه قدوة الا نموذج الرفيع للسالكين وحسبنا ان نقف وقفة قصيرة عند المقطع الاخير من وصفه رضى الله عنه الذى يرسم افضل منهج للحاكم العادل والوالى القوى الحازم وهو الذى لا يطمع القوى فى باطله ولا ييأس الضعيف من عدله وما احوج

كل صاحب سلطان ان ينتهج هذه السياسة الراشدة فى قمع الباطل وان صال اربابه معتدين بالقوة ومعتزين بالعصبية أو مدلين بالقرابة والباطل يجب الاّ تخفق راياته والعدل يجب الاّ ييأس طالبه ولو كان ضعيفا مستضعفا لا ظهر يسنده ومكانة بين المجموع تعضده فهو قوى بحقه وعدالة مطلبه ، وصدق اللـه اذ يقول : (**ياأيها الذين امنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على انفسكم او الوالدين والأقربين**) ٠

❋❋❋

في دروب مثالية الإمام

فى دروب مثالية الامام على كرم الله وجهه التى اخذ بها نفسه وجهد ليحمل عليها الامة ، وخاصة من نصبه عليها وعهد اليه فى شأن من شؤونها من قضاة وولاة ، تطالعنا المصادر التاريخية عن محاسبته رضى الله عنه لقاضيه شريح حسابا عسيرا وغضبه وتبرمه من صنيع صنعه لم يكن فيه متجنيا على أحد أو مسيئا ، وحاشى شريحا العلم الخفاق والكوكب المتألق الذى اشرقت به العدالة فى دنيا الناس ستين عاما ولى فيها قضاء الكوفة منذ عهد الخليفة الراشد عمر رضى الله عنه لم يتكشف عن هنة ولم يطرق الاسماع عنه اسفاف أو تحيف أو حيدة عن الحق ، لم يشفع له عند الامام بلاؤه فى القضاء وطول معاناته ولا اصالة رأيه وسداد احكامه وحسن تصرفه ، لأن مثالية الامام تحتم عليه ان يأخذ ولاتـه وقضاته بسنته حتى يصل بهم إلى الله ، والكل قد وعى مسؤوليته فى كل مجال استعمله فيه واعد العدة للجواب يوم الحساب عن كل ما يناقش عنه من أمر الامة لكى ينجو كفافا أو يحرز فلاحا ونجاحا ، وهو غاية الاجتهاد فى النصح للأمة ومنتهى ما يطلب من الراعى من واجب الوفاء والقيام بحق الرعية ، ولقد اثر عنه رضى الله عنه فى تحديد مهمة الوالى أو الراعى : إنه ليس على الامام ما حمل من امر ربه الا البلاغ فى الموعظة والاجتهاد فى النصيحة ، والاحياء للسنة ، واقامة الحدود على مستحقيها ، واصدار السهمان على أهلهـا أى رد المظالـم ، واعادة الحقوق الى مستحقيها فهو يترسم هذا المنهج ويطبقه بدقة .

وقصة مؤاخذة الامام لقاضيه وتبرمـه من صينعـه تتلخص فى أنـه ـ أى

القاضي ـ اشترى له دارا بثمانين دينارا من ماله ، ومما لعله ان يكون اقتصده من نفقاته فاستدعاه الامام وجابهه بقوله : بلغنى انك ابتعت دارا بثمانين دينارا وكتبت لها كتابا ، فاشهدت فيه شهودا أى لتوثقة البيع كما هو المفروض شرعا ـ فقال القاضي : قد كان ذلك ياأمير المؤمنين • فنظر اليه الامام مغضبا ثم قال له معنفا ومستثيرا فى نفسه الشعور بالخوف من الله ، ومتهما اياه الاّيكون قد دفع ثمن الدار من ماله كأن يكون قد اختلس له ما دفعه فيه ثمنا فى أى وضع للاختلاس أو قدمت اليه هدية ، وكل ما اهدى لصاحب سلطة أو جر اليه مغنما فهو (سحت) يحرم تعاطيه تخف به موازينه وتعظم مسؤوليته امام المنتقم الجبار الذى لا تخفى عليه خافية ، أو تنطلى عليه حيلة ، ولذلك ناقش الامام قاضيه وحذره وخوفه بالله قائلا : ياشريح اما انه سيأتيك من لا ينظر فى كتابك ـ اى فى صك البيع الذى كتبه ـ ولا يسألك عن بينتك حتى يخرجك منها شاخصا ويسلمك الى قبرك خالصا فانظر ياشريح لا تكون ابتعت هذه الدار من غير مالك أو نقدت الثمن من غير حلالك فاذا أنت خسرت الدنيا والآخرة •

وكان هذا الاتهام والمؤاخذة والناس مابرحوا يستضيئون بهدى النبوة وفيهم اعلام الهدى والدعاة الى الخير ، ولم تفسد فيهم الفطر فليت شعرى ماذا عسى ان يكون الحال فى اعقاب الزمن وقد طغت المادة واستبدت بالافكار ، وضعف الوازع الدينى فى النفوس ؟ ثم ماذا عسى ان يكون الحال لو وجد فى المجتمعات الاسلامية من حكام المسلمين من ينتهج منهج الامام رضى الله عنه فى مناقشة ولاته وقضاته ومن ينصبهم على الرعية ويستعملهم على مصالحهم ؟ ماذا عسى ان يكون الحال لو جعلهم متهمين عنده فى كل ما يبدو عليهم من مظاهر الابهة ورخاء العيش ، واحصى عليهم الصادر والوارد ؟ وبعبارة اصرح لو أخذهم بمبدأ (من أين لك هذا ؟) ونمضى قدما مع الامام رضى الله عنه فى دروب مثاليته وضروب من زهده وكمال عفته ومؤاخذته لولاته ليسيروا على دربه أو يأخذوا ببعض نهجه ، فنثبت من ذلك كتابه لعامله على البصرة (عثمان بن حنيف الانصارى) رضى

الله عنه وقد بلغه ان فتى من الرعية دعاه الى مأدبة فتسرع بالاجابة دون تورع عما عسى ان تضمه المأدبة من محظور أو ما يكون من وراء الاجابة من اتخاذ يد عند الوالى تحمله على غض الجفن على القذى ، أو تدفعه لقبول الشفاعة فى اسقاط الحدود فكتب اليه يقول : ياابن حنيف قد بلغنى ان رجلا من فتية أهل البصرة دعاك الى مأدبة فأسرعت اليها تستطاب لك الألوان وتنقل اليك الجفان ، انظر الى ما تقضمه من هذا المقضم فما اشتبه عليك علمه فالفظه ، وما ايقنت بطيب وجوهه فاقبل منه ، الاوان لكل مأموم اماما يقتدى به ويستضيىء بنور علمه ، الا وان امامكم قد اكتفى من دنياه بطمريه[1] ومن طعامه بقرصيه ، الا وانكم لا تقدرون على ذلك ولكن اعينونى بورع واجتهاد وعفة وسداد ..

رحم الله الامام : مأدبة يجيب اليها الامير لم تكن مقامة من اجله ولا لمناسبة من المناسبات التى يتبارى الناس فيها عادة لاظهار شعورهم والحفاوة بأميرهم ، يعنفه الامام على التسرع فى الاجابة اليها ليوصد بذلك الطريق الى (رشوة الولاة) والتزلف اليهم . فالمآدب وإن لم تكن مقامة على شرفهم غير ان الملق يتقاضى الداعى ان يخص الوالى بالالطاف كما نوه الامام فى كتابه لواليه (**تستطاب لك الالوان وتنقل اليك الجفان**) وحسب الوالى ذلك رشوة .. رحم الله الامام ورضى عنه لقد كان يخاطب الفاروق عندما يلحظه يجهد نفسه فى تقصى احوال الرعية ومبالغته فى تقديره لعظم المسؤولية الملقاة على عاتقه كراع وقيامه منفردا باعباء الخلافة كان يخاطبه بقوله : لقد اتعبت من بعدك اى فلن يدرك احد ممن يلى الخلافة بعده شوطه او يجارى الفاروق فى خطوه ، وهاهو الامام على نفسه حين القى العبء عليه يسير على المخطط وينتهج طريق الفاروق متجشما المتاعب محاولا ان يبلغ بولاته ورعيته افضل المناهج ويسير بهم فى طريق السالكين لقد بات رضوان الله عليه فى توجع للماضين ممن طوتهم يد المنون من صحابة رسول ﷺ وأهل مدرسته وفى طليعتهم الصديق والفاروق وغيرهما ممن

---

(١) فى لسان العرب ٥٠٣/٤ « الطمر : الثوب الخلق » .

عرف الله فاكسبه ذلك تقواه وخشيته وكان كثيرا ما يحن اليهم ويمجد صفاتهم ويقول: كانوا مُره العيون من البكاء ـ اى ابيضت عيونهم خشية من الله ـ خمص البطون من الصيام صفر الالوان من السهر فى قيام الليل اولئك اخوانى، فحق لنا ان نظمأ اليهم ونعض الايدى لفراقهم رحم الله الامام ورضى عنه .

وصف الإمام للواقع الصحيح للعلماء

العلماء فى الأمة نجوم تتألق ، وشموع تحترق لتضىء للعباد طريق الهدى والرشاد ، وتحملهم إلى الجادة لئلا تضلّ بهم السبل فيهلكوا :

﴿ قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ﴾

ولن نذهب بعيدا فى تعداد أوصافهم ومواهبهم ، وذكر مناهجهم ، ولنا عن ذلك غنية بما وصفهم به الامام على كرم الله وجهه ، وإنا لنسجل عنه هذه المحمدة للعلماء والنعوت الجليلة التى وصفهم بها لتكون كمنهاج للعلماء - فى أعقاب الزمن يأخذون به أنفسهم ويتحلون بنعوت العلماء فى عصور النور ، لتكون لهم فضائل ومحامد ترتفع بهم فى دنيا الناس هم بها جديرون ، يقول الامام على كرم الله وجهه فى حديث طويل مع أحد أتباعه : لا تخلو الأرض من قائم لله بحجة ، لئلا تبطل حجج الله وبيناته ، أولئك والله الأقلون عددا والا عظمون عند الله فوزا ، يحفظ الله بهم حججه وبيناته حتى يودعوها نظراءهم ، وباشروا روح اليقين واستلانوا ما استوعره المترفون - وأنسوا بما استوحش منه الجاهلون ٠٠ صحبوا الدنيا بأبدان أرواحها متعلقة بالموضع الأعلى ، أولئك خلفاء الله فى أرضه والدعاة إلى دينه ٠

وقال أيضا - فى وصف مناهجهم ورقة شعورهم ورفيع أخلاقهم : يتواصلون بالولاية أى بالموالاة والمصافاة - لا يضطغن بعضهم على بعض لفضل وهبه الله اياه ، ويتلاقون بالمحبة ، لا تشوبهم الريبة ولا تسرع إليهم الغيبة ، على ذلك عقدت أخلاقهم فعليه يتحابون ، وبه يتواصلون ٠

وإلى جانب هذه الأضواء التى كشف بها الامام واقع العلماء ، نقد لاذع صوبه إلى فريق من العلماء ، تشعبت به المسالك ، واتجه بالفتوى فى قضايا الناس اتجاهات متناقضة فيحكم فى قضية واحدة أحكاما معاكسة ، مع أن مصدر التشريع ومعينه واحد لا يتجدد بتجدد الزمان .

يقول رضى الله عنه فى وصف واقع هذا الفريق منددًا به ، ذامّا لصنيعه : ترد على أحدهم القضية فى حكم من الأحكام فيحكم فيها برأيه ، ثم ترد القضية بعينها على غيره فيحكم فيها بخلافه . والههم واحد ، ودينهم واحد ، وكتابهم واحد ، أفأمرهم الله سبحانه بالاختلاف فأطاعوه ؟

وإذا كان هذا واقع حملة العلم والمعرفة ، وهذا قول الامام فيهم ، فليت شعرى ماذا عسى أن يقول رضى الله عنه لو رأى ما وصل إليه البعض من رواد الطريق فى أعقاب الزمن من مجانبة الحق واتباع الهوى ، ونبذ الحكم بالكتاب والسنة الصحيحة ، وتحميل النصوص الشرعية مالا تحمله من المفاهيم ؟ وإن للاقدام على الفتوى لرهبة لا يستشعرها إلا من خاف مقام ربه ومناقشة الحساب يوم الحساب ، ولذلك كان الكثير من اجلاء الصحابة يتحاماها مع علمه تورعا ، ويود لو انصرف المستفتى بفتواه إلى غيره ، ليسلم من التبعة ، ولينجو من مسؤولية فتوى قد يجانب فيها الحق مجتهدا ، وخطأ المجتهد مغفور .

وإن من أبواب الفتيا : القضاء وفضّ الخصومات بين الناس بتقرير الواقع الشرعى ، فهو من الفتيا الا أن فيه الزماً للخصوم بقبول الحكم الشرعى ، ولقد كان الامام على رضى الله عنه على عصر سلفه من الخلفاء المفتى اللامع والقاضى الحكيم البارع ، كيف وقد قرر ذلك من لا ينطق عن الهوى فقال فى حديث أنس (أقضى أمتى علىّ) ، وشهد الخليفه الراشد عمر بن الخطاب رضى الله عنه والصحابى الجليل عبدالله بن مسعود بأنه البصير فى الحكم ، العليم بأمور القضاء . ومن أمثلة أقضيته المسددة الموفقة : قضاؤه فى قصة أربعة وقعوا فى حفرة حفرت لصيد الأسد ، فسقط أولا رجل فتعلق بآخر وتعلق الآخر بآخر حتى

تساقط الأربعة فجرحهم الأسد وماتوا من جراحته ، فتنازع أولياؤهم حتى كادوا أن يقتتلوا ، وكان قضاء الامام أن طلب من القبائل الذين حفروا الحفير جمع ربع الدية وثلثها ونصفها ودية كاملة ، فللأول ربع الدية لأنه أهلك من فوقه ، وللذى يليه ثلثها لأنه أهلك من فوقه وللثالث النصف لأنه أهلك من فوقه وللرابع الدية كاملة ، وبلغ هذا القضاء رسول الله ﷺ فأجازه ، اذ كان منطقيا معقولا عادلا مسددا • وقد أوضح الامام أن أكبر عامل فى تسديده فى القضاء ، ونجاحه فى الحكم بين الخصوم : دعاء الرسول ﷺ •

يقول رضى الله عنه : ـ لقد بعثنى رسول الله ﷺ إلى اليمن قاضيا وأنا حديث السن ، فقلت : يا رسول الله تبعثنى إلى قوم يكون بينهم أحداث ولا علم لى بالقضاء ؟ فقال ـ أى رسول الله ﷺ ـ إن الله سيهدى لسانك ويثبت قلبك • قال الامام : فما شككت فى قضاء بين اثنين •

يضاف إلى دعاء الرسول ﷺ للامام بالتسديد والتوفيق : علمه الغزير رضى الله عنه ، فلقد كان كما وصفه ضرار بن ضمرة (يتفجر العلم من جوانبه) وهذا الجانب فى حياة الامام يعطى الصورة الواضحة أن المؤمن لم يكن جهده قاصرا محدودا على تنظيم الصلة بالله ، والتفرغ لعبادته ، بل كان إلى جانب ذلك له نشاط فى العمل لصالح المجموع ووضع اللبنات فى بناء المجتمع الصالح ، فليس المسلم الذى يعيش لنفسه فى عزلة عن المجموع لا يكون له اسهام ملحوظ فى تدعيم صرح المجتمع الاسلامى وأثر فى أى مجال من مجالات الاصلاح العام معلما او قاضيا أو حاكما أو تاجرا أو صانعا أو غير ذلك مما فيه دعم للمجتمع ، ذلك أن الإصلاح لا يتم الا بالتضامن والتعاون ومساندة الجهود وليس من شك أن القاضى أعظم مسؤولية من غيره فى المجموع ، ولذلك يجب أن يكون فى طليعة الذين امتلأت قلوبهم بالخشية من الله ، وكان لهم فى كل خطوة يخطونها نحو تقرير شرع الله والحكم به مراقبة لله وتقدير لموقفهم أمام الله ، فلا غنى للناس عن قضاة يفصلون فى خصوماتهم وينهون منازعاتهم إلى حكم الله ، فاذا لم يكن

القاضى ممن عرف الله والتمس فى أحكامه وأقضيته رضاه ، استشرى الفساد وطغى الباطل ، وتنكّست اعلام الحق ، وتدهور المجتمع ، وسادت فيه الفوضى ، وانى لمجتمع هذا شأنه أن يسود ويبلغ الأمل المنشود ؟

من توجيهات الإمام لعماله

أشرنا فيما سلف إلى المخطط الرائع الذى خططه الامام على رضى الله عنه من حيث الزهد ، والعفاف والورع والقناعة بشظف العيش ، والأخذ من الدنيا بالبلاغ ، والذى كان يجهد أن يحمل ولاته عليه ، أو يأخذهم ببعضه ، لتكون بهم القدوة فى الرعية ـ وفى هذا نحاول أن نلمع فيه إلى جوانب أخرى من حياة الإمام رضى الله عنه ، تصور جانبا آخر من مؤاخذاته لولاته على هنات بدرت منهم ، أو توجيهه إياهم للأخذ بالأفضل والأمثل فى سياسة الرعية ، والأرفق بهم فى جباية الأموال وغيرذ لك من وصاياه وقضائه ٠

نستهل ذلك بكتابه رضوان الله عليه إلى بعض عماله يرسم له فيه السياسة الحكيمة فى ادارة عمله ، بالطريقة المثلى فى أخذ الرعية بالحزم والعزم ، وخلط اللين بالشدة يقول فيه : أما بعد فانك ممن استظهر بك على إقامة الدين ، وأقمع بك نخوة الأثيم ، فاستعن بالله على ما أهمك ، واخلط الشدة بشىء من اللين ، وارفق ما كان الرفق ، واعتزم الشدة ، واخفض للرعية جناحك ، وابسط لهم وجهك ، والن لهم جانبك ، وواس بينهم فى اللحظة والنظرة والاشارة والتحية ، لئلا يطمع العظماء فى حيفك ، ولا ييأس الضعفاء من عدلك ٠

وتلك هى السياسة الحكيمة الراشدة قوامها العدل حتى فى النظرة والاشارة ، والتحية لسائر أفراد الرعية دون تفريق بين عظيم وحقير . فالناس فى نظر الاسلام سواسية وكلهم إخوة فى الله ، وما الوالى بينهم الا كفرد منهم تعظم مهمته لأنه

ممسك بقائم الميزان لئلا ترجح احدى الكفتين على الأخرى ، وكراشد لطريق الحق لئلا تضل بالرعية السبل ، فإن قام بهذه المهمة فقد رعى ما استرعاه الله إياه من رعية ، ومن أرفع توجيهاته رضى الله عنه لواليه على مصر فيما يصلح شأن الرعية قوله : ليكن أبعد رعيتك منك وأشقاهم عندك أطلبهم لمعائب الناس ، فان فى الناس عيوبا الوالى أحق من يسترها فلا تكشفن عما غاب عنك منها فإنما عليك تطهير ما ظهر لك والله يحكم على ما غاب عنك •• ومنها أيضا فى التوجيه إلى تقدير الجزاء على الأعمال ، وعدم التسوية بين المحسن والمسيء : ـ ولا يكونن المحسن والمسيء عندك بمنزلة سواء فان فى ذلك تزهيدا لأهل الاحسان فى الاحسان ،وتدريباً لأهل الاساءة ، وألزم كلا منهم ما الزم نفسه ، أى المسيء الزم نفسه بالاساءة والمحسن الزم نفسه الاكرام باحسانه ، ومنها فى إيضاح طبقات الناس ، وأنهم أجزاء متضافرة ، متعاونة تعمل لصالح المجموع ، لاغنى لأى جزء عن الآخر •

قال رضى الله عنه : (وأعلم ان الرعية طبقات لا يصلح بعضها الا ببعض ، ولا غنى لبعضها عن بعض فمنها جنود الله ، ومنها كتاب العامة والخاصة ، ومنها قضاة العدل ومنها عمال الانصاف والرفق ، ومنها التجار والصناع ، ومنها الطبقة السفلى من ذوى الحاجة والمسكنة) ثم اخذ رضى الله عنه يحدد ويعين مجال كل منها ووظيفته فى المجموع ، وخص الطبقة السفلى بمزيد من الرعاية ، حيث أوصى الوالى بها قائلا :

(الله الله فى الطبقة السفلى من الذين لا حيلة لهم من المساكين والمحتاجين وأهل البؤس والزمنى ، فان فى هذه الطبقة قانعا ومعترا ، فاحفظ الله ما استحفظك من حقه فيهم واجعل لهم قسما من بيت مالك ، وقسما من غلاّت صواف الاسلام فى كل بلدة ـ ولا يشغلنك عنهم بطر ، فانك لاتعذر بتضييعك التافه لاحكامك بالكثير المهم) •

وفى ذلك رسم لمبدأ الضمان الاجتماعى ، للقضاء على المبادىء الهدامة ، ولئلا تبذر بذورها بين الطبقة الكادحة التى عناها الامام ، ثم يستشرى خطرها ، ويعم ضررها ، وكتب رضوان الله عليه إلى عماله على الخراج ، يحدد مهمتهم ويشرح لهم أنجح السبل لاستيفاء الخراج ، دون إحراج للرعية أو ارهاقها من أمرها عسراً ، فقال : (انصفوا الناس من أنفسكم ، واصبروا لحوائجهم ، فانكم خزان الرعية ، ووكلاء الأمة ، وسفراء الائمة ، ولا تحسموا أحدا عن حاجته ، ولا تحبسوه عن طلبته ، ولا تبيعن للناس فى الخراج كسوة شتاء ، ولا صيف ولا دابة يعتملون عليها ولا عبدا) يقصد بذلك رضى الله عنه لاتضطروا الناس ان يبيعوا لأجل الخراج المضروب عليهم من كسوتهم ولا من الدواب اللازمة لأعمالهم فى الزرع والحمل (ولا تضربن أحدا سوطا لمكان درهم ، ولا تمس مال احد من الناس ولا مال معاهد) ، وتلك تعاليم الاسلام دين الرحمة والسلام ، يأبى الظلم ويكره الحيف والعدوان حتى على المعاهد ، اذ قد أعطى الطاعة ، واحتمى بعهد الاسلام يوجه اليها الامام فى أوضح بيان ويأخذ بها عماله ليسلكوا الجدد فى أمن من العثار ، ومنجاة من المؤاخذة التى لايخلى الامام منها كل من تنكبّ السبيل مهما ارتفع مقامه ، وعلا كعبه ، وامتد فى العالمين نفوذه وسلطانه ، فالكل أمام العدالة سواء عند الامام ، وذلك نهجه وسنته كتب ذات يوم إلى عامل من عماله بلغه أنه أساء التصرف فيما تحت يده من مال المسلمين فقال له : (بلغنى أنك جردت الأرض ، فاتخذت ما تحت قدميك ، وأكلت ما تحت يديك فارفع إلىّ حسابك وأعلم أن حساب الله أعظم من حساب الناس) وكتب إليه ثانية يهدده ويتوعده لخيانته ونكوصه عن عهده : (كأنك لم ترد الله بجهادك ، وكأنك إنما كنت تكيد هذه الأمة عن دنياهم ، وتنوى غرّتهم عن فيئهم ، فلما أمكنتك الشدة فى خيانة الأمة عاجلت الوثبة ، واختطفت ما قدرت عليه من أموالهم المصونة لأراملهم وأيتامهم ، فسبحان الله أما تؤمن بالمعاد ؟ أوما تخشى مناقشة الحساب أيها المعدود عندنا من ذوى الألباب ؟ اتق الله واردد إلى هؤلاء القوم أموالهم ،

فانك إن لم تفعل ثم أمكننى الله منك لأضربنك بسيفى والله لو أن الحسن والحسين فعلا مثل الذى فعلت ما كان لهما عندى هوادة حتى آخذ الحق منهما) .

وهكذا يمزج الإمام حلمه بالشدة ، ولا يخلى أحدا ممن ضلّ عن السبيل من مؤاخذة ، ولو كان القريب المحظى ، والصديق الحميم .

طائفة من مواعظ الإمام وأطراف من زهده

ما برح الحديث موصولا عن الامام على كرم الله وجهه ورضى الله عنه ، بوصفه فى طليعة الأعلام الذين وضعوا مناهج العارفين ، وعنه تؤخذ القدوة ، وهذا فيض من توجيهاته رضى الله عنه ، ومواعظه وحكمه فى مختلف المناسبات ، مما يتجه بالمسلم إلى مناح من السمو ، ويرسم له طريق النجاة ، ويبصرّ بالعواقب ويذكره بختام المرحلة : مرحلة الحياة ونهاية الأشواط بها ، وما يجب لذلك من الاستعداد وأخذ الأهبة وعدم الاغترار بطول الأمل دون أن يتخذ إلى ربه سبيلا بصالح العمل ، ومما أثر عنه فى ذلك قوله فى أحد خطبه الهادفة (اتقوا الله عباد الله ، وبادروا آجالكم بأعمالكم وابتاعوا ما يبقى لكم بما يزول عنكم واستعدوا للموت فقد أظلكم ، وكونوا قوما صيح بهم فانتبهوا ، واعلموا أن الدنيا ليست لهم بدار فاستبدلوا ، فان الله لم يخلقكم عبثا ، ولم يترككم سدى ، فتزودوا فى الدينا ما تحرزون به أنفسكم غداً ، فمن اتقى ربه نصح نفسه ، وقدم توبته ، وغلب شهوته ، فان أجله مستور عنه ، وأمله خادع له ، فيالها حسرة على ذى غفلة أن يكون عمره عليه حجة ، وان تؤديه أيامه إلى شقوة) .

ولن نمضى طويلا فى سرد النماذج لهذا اللون من المواعظ والتوجيهات فهى بحر لا يحُجَّر مدّه .. ولنتجه إلى مزيد من الحديث عن زهده رضى الله عنه وورعه وأخذه بذلك الرعية وخاصة عماله وولاته ، وقضاته ، فلقد كان يجهد أن يحملهم على سنته ، ويأخذهم بمنهجه ويسير بهم على الجادة دون انحراف إلى اتباع الهوى ، أو انجراف مع طول الأمل ، فأخوف ما كان يخافه عليهم ذلك ـ وقد أثر

عنه : (أخوف ما أخاف عليكم اتباع الهوى ، وطول الأمل : فاتباع الهوى يصدّ عن الحق ، وطول الأمل ينسى الآخـرة) ولقـد بلـغ من زهـده وتقشفه وورعه أنه لم يرزأ بيت مال المسلمين بشيء فيه قوام أوده وله به البلاغ إلى الضرورات من حاجات نفسه ، خطب الناس ذات يوم وقال فى خطبته : (والله الذى لا اله الا هو ما رزأت فيئكم الا هذه ، وأخرج قارورة من كم قميصه وقال : ـ أهداها إلى مولاى دهقان) ودخل عليه أحد خلصائه اذ كان فى العراق فوجده يرتعد من شدة وقع البرد عليه ، فقال له : (يا أمير المؤمنين ان الله قد جعل لك ولأهل بيتك فى هذا المال وأنت تصنع بنفسك ما تصنع ؟ فقال : والله ما رزأتكم فى شيء ، وانها لقطيفتى التى خرجت بها من منزلى او قال من المدينة) ودعا أحد ولاته ليشركه فى طعامه ، فلما قدم عليه دعا بجراب صغير مختوم فكسر الختم فاذا فى الجراب سويق ، فأخرج منه فى قدح ثم صبّ عليه ماء فشرب وسقى ضيفه ، فلم يتمالك ان جاهره بقوله : يا أمير المؤمنين اتصنع هذا بالعراق وطعام العراق أكثر من ذلك ؟ قال : ـ أما والله ما أختم عليه بخلا ، ولكنى ابتاع بقدر ما يكفينى وأكره أن يدخل بطنى إلاّ طيب .

هذه نماذج ثلاثة تحكى روعة مثالية الإمام فى ارفع ذروة ، وتصوّر مدى أخذه النفس بالزهد والعفاف وعيش الكفاف وهو أمير المؤمنين ، تجبى اليه الصفراء والبيضاء حتى فهق بيت المال ، ولم يعد يحمل ما يجبى اليه ، فهلا كان لولاة الاسلام فى أعقاب الزمن بعض هذا العفاف عن بيت المال ، بله الكفاف فى العيش والقناعة منه بالبلاغ ؟ دخل عليه عبدالله بن زمعة يوما يطلب مددا من المال ، فصارحه بقوله : (إن هذا المال ليس لى ولا لك وانما هو فىء للمسلمين وجلب اسيافهم ، فان شركتهم فى حربهم كان لك مثل حظهم ، والا فجناة أيديهم لا تكون لغير أفواههم) .

يا لها من مثالية ، ويا له من عدل اخذ الامام به نفسه ، فكان الطابع الذى يتسم به ، ولقد عوتب رضى الله عنه فى المفاضلة بين الناس فى العطاء على قدر

البلاء ، واتخاذه قاعدة للتفاضل فاسكت من عاتبه بقولة الحق أطلقها مدوية قائلا : (أتأمرني ان اطلب النصر بالجور فيمن وليت عليه والله ما آمربه ما سمرَ سمير أو امّ نجم فى السماء نجما ، لو كان المال مالى لسويت بينهم ، فكيف وانما المال مال الله ، الا وإن اعطاء المال فى غيرحقه تبذير واسراف • وهو يرفع صاحبه فى الدينا ، ويضعه فى الآخرة ، ويكرمه فى الناس ، ويهينه عند الله)

ولقد أتاحت هذه السياسة الحكيمة الراشدة فى دفع المال لوجوهه المشروعة دون تبديده وتبذيره ، أتاحت لأمين بيت المال أن يجمع الكثير منه ، حتى امتلأت الخزائن ولم تعد تتسع لفيض أكثر ، ولم يشعر بذلك الإمام حتى اعلن عنه الأمين يقرر الواقع ويقول : (يا أمير المؤمنين امتلأ بيت مال المسلمين من صفراء وبيضاء) فاستعظم ذلك الإمام ، وخشى أن يكون استدراجا يخرجه عن طبعه فى الزهد ، او هو مما تعظم به مسؤوليته أمام ربه ، فكبر مستعظما ذلك ، وقام على الفور وأمر بأن ينادى فى الناس وهو اذ ذلك بالكوفة (ان هلموا للعطاء) فما أمسى وفى بيت المال درهم أو دينار ثم أمر بنضحه وصلى لله ركعتين شكرا لاستنفاذه وعدم الاغترار به ، وما كان يدور بخلد احد فى يوم ما ان الامام وهو على جانب عظيم من المثالية والزهد وعيش الكفاف ان يغتر بالمادة أو يصرفه اليها بريقها عن خط سيره الكريم ، وان المثالية لتقضّ مضجع صابحها ، وتأبى عليه الا أن يكون فى الذروة ، عزوفا عن دنيا الناس ، لكى يغدو النجم المتألق الذى ينير السبيل ويهدى الى الجادة ، واذا كانت الصحفة من الطعام الشهى اللذيذ توضع بين يديه رضى الله عنه فيستبدّ به زهده عن أن تمتد اليها يده ، ويقول عندما نازعته نفسه : (إنك طيب الريح حسن اللون ، طيب الطعم غير أننى أكره أن أعود نفسى مالم تعتده)

أفيظن بمن هذا شأنه أن يغريه تراقص صور المادة امام عينيه ؟

لقد قنع بشظف العيش مستبدلا به نضرة النعيم فى الآجلة ، والزهرة الذاوية

أملا فى حياة أرحب وعيش أرغد ، ونعيم لا ينفذ ، ومتعة لا تزول ، وتلك سمات السالكين إلى الله فى خطى ثابتة حتى يصلوا إلى الغاية ، وصدق الله اذ يقول :

﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات فى روضات الجنات لهم ما يشاءون عند ربهم ذلك هو الفضل الكبير ﴾ .

طائفة من حلم الإمام وحديثه عن حق الراعي والرعية

لئن كان فى الماضين عبر القرون أفذاذ موهوبون ملهمون ينطقون بالحكمة ، ينظرون النظرة الثاقبة ، فان الأمة الاسلامية لتسعد وتفخر أن كان فى رجالاتها أعلام تتفجر فيهم ينابيع الحكمة ، ولا يخطئون النظرة إلى الحقيقة ولهم من ثاقب الرأى ، وسداد المنطق ، وبعد النظر ما يلتمس فى ظلاله الهدى والرشاد ، نخص من بينهم وهم بحمد الله كالنجوم عددا وتألقا الإمام عليا كرم الله وجهه ورضى عنه • ولقد عشنا معه نستعرض جانبا من مناهجه ، ونسجل له فيضا من الروائع ، تجلت فيها الحكمة ، والنظرة الثاقبة المسددة والمنحى الموفق الراشد ، وما برحنا نتابع عرض النماذج من حكمه ، وأمثاله تنطبق على حقائق وأوصاف تصدق فيها النظرة ولا تخطىء الحقيقة ، نلتقى به فى غرر من حكمه يحدد فيها حق الراعى على الرعية ، وحق الرعية على الراعى مما يضمن الانسجام بينهما واقامة دعائم الحق والدين فى المجتمع الاسلامى ، ويخفض اعلام الجور •

قال رضى الله : (إن أعظم ما افترض الله سبحانه من الحقوق : حق الوالى على الرعية ، وحق الرعية على الوالى ، فريضة فرضها الله ، فجعلها نظاماً لألفتهم ، وعزاً لدينهم فليست تصلح الرعية الا بصلاح الولاة ، ولا تصلح الولاة الا باستقامة الرعية ، فاذا أدتّ الرعية إلى الوالى حقه • يقصد رضى الله عنه بذلك السمع والطاعة وعدم الخروج على الولاة مالم يأمروا بمعصية الله والخروج على شرعة فلا سمع اذن ولا طاعة ـ وإذا أدى الوالى إليها حقها ـ أى فى

النصح لها ، وإقامة شرع الله ، ونصب راية العدل ، وتنفيذ الحدود ـ عزّ الحق بينهم ، وقامت مناهج الدين فصلح بذلك الزمان ، وطمع فى بقاء الدولة ، وإذا غلبت الرعية واليها ، أو أجحف الوالى برعيته ، اختلفت هناك الكلمة ، وظهرت معالم الجور ، وتركت السنن ، فعمل بالهوى وعطلت الأحكام ، وكثـرت علل النفوس) وانه لنهج سديد راشد رسمه الإمام رضى الله عنه للراعى والرعية ، تتجلى فيه الحكمة وبعد النظر وسداد الرأى فليت فى الناس من يقف عنـده ويأخذ به ، اذن لأضحى المجتمع فى منجاة عن الانهيار وعن حدوث فجوات بين الراعى والرعية لا تأتلف معها مصلحة أو يستقيم بنيان ٠٠ ومن نماذج حكمه وأمثاله التى صور واقعها رضى الله عنه : حديثه عن الظلم وايضاح بشاعته وتحديد مناحيه ، واختلاف درجاته ، وبيان عاقبته ٠٠ قال رضى الله عنه (الا وان الظلم ثلاثة : فظلم لايغفر ، وظلم لا يترك ـ أى لابد فيه من الاقتصاص من الظالم ـ وظلم مغفور لا يطلب ، فأما الظلم الـذى لايغفـر كالشرك بالله قال تعالى :

﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء ﴾

وأما الظلم الذى يغفر فظلم العبد لنفسه عند بعض الهنات اى عند ارتكابـه لبعض الذنوب الصغارـ وأما الظلم الذى لايترك فظلم العباد بعضهم بعضا ، القصاص هناك شديد ليس هو جرحا بالمدى ، ولا ضربا بالسياط ولكنـه ما يستصغر ذلك معه أى هو العذاب الذى يعد الجرح والضرب صغيرا بالنسبة إليه ، وحسبنا بالظلم سبيلا إلى سوء المصير أنه ظلمات تعترض سبيل المرء فى فتـرة أحوج ما يكون فيها إلى النور يهديه سبيل النجاة ، كما جاء فى الحديث : (**اتقوا الظلم فان الظلم ظلمات يوم القيامة**) أى سواء كان ظلما موجها إلى الخالق باتخاذ الشريك له ، أو إلى المخلوق بالجناية عليه فى نفس أو عرض أو مال ، فكل المسلم على المسلم حرام دمه ، وماله وعرضه ٠٠ وان من نضوج الوعى ، بل ومن بوادر السعادة ، أن يتحلل المؤمن من المظالم فى دنياه قبـل أن ينـاقش

الحساب يوم الحساب ، حين يقتص المظلوم من الظالم ، ويأخذ من حسناته ، فان فنيت طرح من سيئات المظلوم على الظالم حتى تثقله فيلقى فى النار ، وذلك ما أشار إليه الامام بقوله (القصاص هناك ليس جرحا بالمدى ولا ضربا بالسياط ولكن ما يستصغر ذلك معه) رحماك اللهم من الظلم وصولة الظالمين وان من ضروب الظلم ودروبه : التلون والتزيى بثوب الزور ، خداعا بالمظهر وسترا للمخبر ، انه سمة ضعة وصغار تنم ، عن تفاهة الشخصية ، وضعف الدين والخلق ، وحسب من اتصف بها أن يغدو فى عداد المنافقين الذين ذمّ الله صنيعهم فى محكم التنزيل وحكى واقعهم بقوله :

﴿ يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون الا أنفسهم وما يشعرون ﴾

وقد لا يبلغ المسلم هذه الدرجة درجة النفاق العملى بل قد يكون دون ذلك كما قال ﷺ (**أربع من كن فيه كان منافقا خالصا ومن كان فيه خصلة منهن كان فيه خصلة من النفاق حتى يدعها : اذا حدث كذب ، واذا أوتمن خان ، واذا عاهد غدر ، واذا خاصم فجر**) أو كما قال ﷺ **وليس الحديث عن النفاق والمنافقين من أغراض بحثنا** ، ولكنا عرضنا له فى جملة ما نسجله للامام من نماذج حكمه ، وروائع الأمثال التى تنطبق على حقائق الأوصاف التى تطابق الواقع ، لنستمع إليه رضى الله عنه وهو يصف واقع المنافقين ويحذر منهم فقال : (أحذركم أهل النفاق فانهم الضالون المضلون يتلونون الوانا حسدة فى الرخاء ، ومقطعو الرجاء ، لهم بكل طريق صريع قد أعدوا لكل حق باطلا ، ولكل قائم مائلا ، ولكل حى قاتلا ، ولكل باب مفتاحا ، يقولون فيشبهون ، ويصفون فيوهمون ، رقيتهم لمّة الشيطان ـ أى جماعته ـ وجحمة النيران ، أى معظم حرها ، اولئك حزب الشيطان الا إن حزب الشيطان هم الخاسرون) • رحم الله أمير المؤمنين ورضى الله عنه ، لقد أصاب المحزّ فى هذا الوصف الدقيق ، وأرهف الحسّ حتى ليكاد المستمع أو القارىء يتحسس أو يتوجس خيفة أن يكون قد

علق بأخلاقه هنة تلحقه بالمنافقين ، أو تجعـل فيه شبهـا منهـم ، وذلك شأن الحصيف الواعى •• يقول بعض السلف : (لقد أدركت ثلاثين من أصحاب رسول الله ﷺ كلهم يخاف النفاق على نفسه) وإذا كان هذا شأن أهل القرون المفضلة أفلا يجدر بمن تأخر به الزمان كثيرا عن عصور النور أن يرهب من هنات ليست بالهينات ينجرف اليها ، أو يتخلق بها ، فتجعل فيه شبها بالمنافقين او صورة من صورهم ؟ على حد قول الصادق المصدوق (**ومن كان فيه خصلة منهن كان فيه خصلة من النفاق**) اللهم سلم •

❋❋❋

وعظ الإمام ووصفه واقع الناس

قد نأتى على آخر هذه السلسلة بهذا الحديث ، اذ قد مضينا فيها أشواطا بعيدة المدى ، كان فيها التذكير وأخذ العبرة ، وهما الهدف الأسمى من هذه الأحايث وكان فيها الرد ضمنا على الحاقد المغرض الذى أكل الحقد قلبه على جيرة البيت ، ومن يتفيأ ظلال هذه المملكة السعيدة العزيزة بعزّ الاسلام ، واقامة شرع الله ورفع راياته بعيدة عن الزيف والبدع ومزالق الوثنية ، فلقد قال عنها مؤلف الكتاب ولا نرفع من شأنه بذكره ولكن نشير إلى الاثم الذى تولى كبره ، والشر الذى أذاعه فى كتابه ، بغية تفرقة صفوف المسلمين فى ظرف أحوج ما يكون فيه المسلمون إلى جمع الصفوف ، وتوحيد الكلمة ، ورأب الصدوع ، والقضاء على الأحقاد والإحن .

يقول المؤلف ، ويالعظم ما يقول : إن ذكر سيرة الامام على كرم الله وجهه ورضى عنه فى (السعودية) شىء ممجوج ، لا يستسيغونه ـ وها نحن نرد عليه فى هذا الكتاب بهذه السلسلة تحت هذا العنوان (من مناهج العارفين) وقد شغلت حيزًا كبيرا من أبرز صحيفة فى السعودية ، عرضنا فيها لجانب من سيرة الامام على كرم الله وجهه لغرض التوجيه ، والقدوة وأخذ العبرة من زهد الامام وورعه ، وتقشفه مع أن خيرات الدنيا كانت تجبى إليه حتى امتلأت خزائن الأموال ، وتحدثنا فيها عن طول عبرته ومحاسبته لنفسه ، وأخذه عماله وقضاته وولاته ، ونصبه راية العدل ، وانصافه حتى من ولديه الحسن والحسين فلذة كبده ، كما أوضحنا ذلك فى غير ما حديث ، تاركين التجنى على أهل هذه المملكة ،

ووصمهم بماهم منه براء من بغض الامام ، وعدم السماح بعرض سيرته ومرور اسمه على الألسنة نترك هذا يحكم الله فيه بحكمه متأدبين بأدب الاسلام ، حيث وجه رب العزة عباده فى محكم الكتاب إلى نهج الصواب فقال مخاطبا صفوة خلقه بقوله :

﴿ خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين ﴾ .

وانا لنورد فى هذه النهاية بعضا من توجيهات الامام ، لتكون مسك الختام ، وكوسيلة للنجاة وحافزا للهمم فى السير قدما نحو مناهج العارفين ، والثبات على نهج الصالحين نعرض أول ما نعرض له لوعظه رضى الله عنه لمن سأله الوعظ والتذكير ، فقال له فى وضوح وكأنه رضى الله عنه يسرد واقع الناس فى أعقاب الزمن : (لا تكن ممن يرجو الآخرة بغير عمل ، ويرجىء التوبة ، بطول الأمل ، يقول فى الدنيا بقول الزاهدين ، ويعمل فيها بعمل الراغبين ، ان أعطى منها لم يشبع ، وان منع منها لم يقنع ، ينهى ولا ينتهى ، ويأمر بما لا يأتى ، يبالغ فى الموعظة ولا يتعظ ، يستعظم من معصية غيره ما يستقل أكثر منه ، فهو على الناس طاعن ولنفسه مداهن ، اللهو مع الأغنياء أحب إليه من الذكر مع الفقراء) .

وكفى بذلك موعظة وتذكيرا وتشخيصا للداء ووصفا للدواء ، اليس هذا الواقع المرير الذى يستدعى من اليقظ اللبيب أن يفتش وينقب فى نفسه لينجو بالاقلاع عن الهنة ، ويستصلح من أمره بالتوبة ، فالتوبة تجبر الكسر ، وتمحو أثر الزلة .

وقال أيضا ـ يصف واقع الناس جملة فى دنياهم وما هم عليه من المفارقات والاتجاهات نحو الأخذ باشعاع العلم والمعرفة والركون إلى التقليد دون أصالة فى الرأى واستنارة بالحكمة ، (الناس ثلاثة فعالم ربانى اى عارف بالله ملهم موهوب ومتعلم على سبيل نجاة ، وهمج رعاع اتباع كل ناعق ، يميلون مع كل ريح ، لم يستضيئوا بنور العلم ، ولم يلجأوا إلى ركن وثيق) .

رحم الله الامام ورضى عنه ٠٠ لقد كان هذا الوصف الدقيق لمواقع الناس فى عهده ، فكيف بالناس وقد تأخر بهم الزمن كثيرا عن زمنه واضحت المادة هى محور النشاط ، ودعامة الأمال ، حتى أصبح المتعلم الذى نعته الإمام بأنه على سبيل نجاة لافكر له الا فى الحصول على المادة عن طريق العلم استبدت بفكره وطغت على القيم عنده ، هجيراه بناء مستقبله ، وكسب الوقت لتوفير المادة والحرص على المؤهل الذى يوصله إلى تضخيم رصيده فيها ، انصرف إلى الثقافة الغربية يأخذها بأوضارها وخبائثها ولو كانت على حساب دينه وأخلاقه الاسلامية الرفيعة ، فلئن كان فى الماضى وعهد الامام رضى الله عنه متعلم على سبيل نجاة ، فانه قد أضحى فى الحاضر وفى أعقاب الزمن على شفا جرف هار يتوقع له فيه الانهيار ثم يكون ممن خسر الدنيا والآخرة فلم يحصل فى دنياه على مبتغاه ، ولم يظفر فى آخرته بمناه ، وذلك هو الخسران المبين ، واذا كان هذا خطر المتعلم ، فما بالك بمنهج الرعاع اتباع كل ناعق الذين يميلون مع كل ريح انهم يرجمون اليوم ، من كانوا يصفقون له بالأمس ويفتدونه بالمهج على زعمهم ، انهم همج رعاع وحسبك بهذا الوصف بشاعة وشناعة ٠

ومن طريف توجيهاته رضى الله عنه ، وجليل ارشاداته : كتابه لعامله على مكة قثم بن العباس يقول له فيه :

أما بعد ، فأقم للناس الحج ، وذكرهم بأيام الله ، واجلس لهم العصرين ، فأفت المستفتى ، وعلّم الجاهل ، ولا يكون لك إلى الناس سفير الا لسانك ، ولا تحجبن ذا حاجة عن لقائك ومر أهل مكة ألاّ يأخذوا من ساكن أجرا ، فان الله سبحانه يقول :

﴿ سواء العاكف فيه والباد ﴾

فالعاكف المقيم به ، والباد الذى يحج إليه ، من غير أهله وفقنا الله واياكم لمحابّه ، والسلام) ٠

ويستوقفنا فى هذا التوجيه : أمره رضى الله عنه لأمير مكة أن يلزم أهل مكة بعدم أخذ أجر من ساكن ، وهو رأى فى ان رباع مكة لا تملك ، يقابله العكس - بدليل قوله ﷺ عندما قيل له فى دخول مكة هل تنزل فى دارك غدا ؟ قال (**وهل ترك لنا عقيل من دار**) أى استولى عليها وباعها وتصرف فيها ٠

وحبذا لو أخذ من الحاج الأجرة على السكن ، مع الرعاية وحسن الصحبة والتعليم ، فإن الحاج فى أمس الحاجة الى الارشاد والتوجيه ، وخاصة فيما يتصل بأعمال النسك ، بل وفى توجيهه أيضا إلى أن الحج ما هو الا مؤتمر إسلامى ، يجمع القاصي بالدانى من أبناء الاسلام فى خير البقاع ، ليشهدوا منافع لهم ، أخبر عن ذلك رب العزّة ٠ وذلك شأن العلماء ووظيفتهم ، فهم عليها أقدر بما وهبهم الله من علم ومعرفة وبصيرة ، وهم دون سواهم المعنيون بقوله تعالى :

﴿ واذ اخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه ﴾

فالبيان مطلوب منهم والكتمان محرم محظور عليهم ، وفقنا الله جميعا الى السداد والرشاد ٠

من مناهج العارفين أيضاً

" أبو حازم والخليفة سليمان بن عبدالملك "

كم للسلف رضوان الله عليهم من مناهج كانوا بها على مفرق الطريق بين مناهج الناس ومسالكهم فى الحياة ، فغدوا أعلاما يهتدى الناس بهم فى الدياجير ، ويترسمون طريقهم للزوم الجدد خشية الانزلاق والعثار . كان مبدؤهم الايمان بأقدار الله ، والرضاء بقسمة الله ، (وأعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك جفت الأقلام وطويت الصحف) بين يدى مثل بارز وبرهان ساطع لما المعت إليه فى هذه المقدمة ، هو شخصية العالم (ابى حازم سلمة بن دينار) من صغار التابعين رحمه الله ورضى عنه ، نسبر غورها ونستشفّ جلالها وجمالها وقوتها وروحانيتها ، فى حوار مع الخليفة الأموى سليمان بن عبدالملك وفى عظته البالغة ، ووصيته له ، وقد مر الخليفه بالمدينة وسأل عن أحد أدرك أصحاب رسول الله ﷺ فقيل له : أبوحازم ، فأرسل فى طلبه فلما مثل بين يديه ارتفع بمقامه ، ثم قال له مداعبا : يا أبا حازم ما هذا الجفاء ؟ فرد عليه أبو حازم على الفور : يا أمير المؤمنين وأى جفاء رأيت منّى ؟ قال : أتانى وجوه أهل المدينة ولم تأتنى ؟ وكأنه يرى لزاما على الناس جميعا أن يقوموا بازجاء التهانى للخليفة والتبريك بسلامة القدوم فقال ابوحازم : أعيذك بالله أن تقول مالم يكن ، ما عرفتنى قبل اليوم ولا أنا رأيتك ـ فكيف اذن يكون الجفاء ؟ فالتفت الخليفة إلى محمد بن شهاب الزهرى وكان حاضرا وقال : أصاب الشيخ . رحم الله الخليفة سليمان ، لم يكن يعرض عن الحق إذ تبين ، بل اعترف بالخطأ ولم ير فى ذلك غضاضة عليه وهو خليفة المسلمين ، ولا بدع أن يكون كذلك وقد رسم السبل إلى

هذا النهج أمير المؤمنين عمر بن الخطاب حيث اعترف بالخطأ وهو على المنبر حينما اعترضته امرأة ترد عليه قوله فقال : أصابت امرأة وأخطأ عمر ، ثم وجه سليمان خطابه إلى أبى حازم مسترشدا قائلا : يا أبا حازم مالنا نكره الموت ؟ قال ابوحازم دون أية مجاملة فى تقرير الحق والواقع : ـ لأنكم خربتم الآخرة وعمرتم الدنيا ، فكرهتم أن تنتقلوا من العمران إلى الخراب • قال :ـ أصبت يا أبا حازم • ولم يكابر الخليفة اذ صدم بالواقع بل اذعن وصدق ، وتلك سجية أولى البصائر حينما تنكشف لهم الحقائق ، ويجابهون بالواقع المؤلم ، وقد قيل : الرجوع الى الحق فضيلة • قال الخليفه سليمان : فكيف القدوم غدا على الله يا أبا حازم ؟ قال : اما المحسن فكالغائب يقدم على أهله ، وأما المسيء فكالابق يقدم على مولاه ••

فبكى الخليفة وقال : ليت شعرى مالنا عند الله ؟ قال ابوحازم : اعرض عملك على كتاب الله • قال الخليفة : وفى اى مكان أجده ؟ قال ابوحازم ـ فى قوله تعالى :

﴿ ان الأبرار لفى نعيم وان الفجار لفى جحيم ﴾

قال : فأين رحمة الله يا أبا حازم ؟ قال (ان رحمة الله قريب من المحسنين) قال سليمان : فأى عباد الله أكرم ؟ قال:أولو المروءة والنهى ، قال سليمان:فأى الأعمال أفضل : قال : أداء الفرائض مع اجتناب المحارم قال سليمان : فأى الدعاء أسمع : أى يسمعه الله ويجيبه ، قال ابو حازم : دعاء المحسن إليه للمحسن •

قال سليمان : فأى الصدقة أفضل ؟ قال : للسائل البائس وجهد المقل ليس فيها منٌ ولا أذى • قال سليمان : فأى القول اعدل • قال : قول الحق عند من تخافه أو ترجوه • قال : فأى المؤمنين أكيس ؟ قال : رجل انحط فى هوى أخيه وهو ظالم ، فباع آخرته بدنيا غيره • قال سليمان : يا أبا حازم فما تقول فيما نحن فيه ؟ قال : يا أمير المؤمنين أو تعفينى ؟ توقف أبوحازم رحمه الله ـ لاخوفا من سطوة الخليفة ، أو تهربا من تقرير الواقع ، ولكن ورعا من أن يعرض لماض كان

فيه من الاخطاء ما يجب أن يترك الأمر فيه لله ، وتأدبا بأدب القرآن حيث يقول :

﴿ تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ﴾

فلم يعفه الخليفه من القول بل طلب إليه أن يقرر الواقع كنصيحة ليتجنب الخليفة الزلل مما لعله أن يكون قد انزلق اليه سلفه فقال أى الخليفة سليمان : لا أعفيك ولكن نصيحة تلقيها إلىَّ .

وكان من اتباع الخليفة من أحفظه قول أبى حازم ومصارحته لسيده بما يكره فتجهم لأبى حازم وقال له : كذبت ـ فالقمه أبوحازم حجرا ولم يعبأ به بل أوضح له ان موقفه كعالم من حقه الاّ يكتم ما علمه ويتغاضاه ، ان يقرر الحق ، وان شرقت به بعض النفوس ولم تهضمه ـ قال ابوحازم : إن الله أخذ ميثاق العلماء ليبيننه للناس ولايكتمونه ، واستمر الخليفة فى استرشاده وسؤاله ، قائلا : فكيف لنا أن نصلح يا أبا حازم ؟ قال:تدعون التصلفّ والعجب والتكبر على الناس ، وتمسكون بالمروءة وتقسمون بالسوية ، قال سليمان : كيف بالمأخذ أى مأخذ الأموال وجبايتها ؟ قال ابو حازم : تأخذه من حله ، وتضعه فى أهله ، قال سليمان : هل لك يا أبا حازم أن تصحبنا فتصيب منا ونصيب منك ؟ قال : أعوذ بالله • قال سليمان : ولم ذلك ؟ قال ابوحازم : أخشى أن أركن إليكم شيئا قليلا فيذيقنى الله ضعف الحياة وضعف الممات ، يشير إلى قول الله تبارك وتعالى مخاطبا رسوله ممتنا عليه ان ثبته على الدين وعدم الركون إلى المشركين ـ قال تعالى :

﴿ ولولا أن ثبتّناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلا : اذا لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ﴾

أى أضعفنا لك العذاب فى الدنيا والآخرة ـ ولم يضطغن الخليفة سليمان على أبى حازم لهذا التعريض به بل استمر فى حديثه معه قائلا : ارفع إلينا حوائجك يا أبا حازم قال : تنجينى من النار وتدخلنى الجنة • قال سليمان : ليس ذلك إلىَّ • قال ابوحازم : فمالى إليك حاجة غيرها ، ثم التمس الخليفة من أبى حازم الدعاء

اذ قد لمس من صراحته وصدق لهجته انه من العارفين بالله الذين يستجيب الله دعاءهم ، ويشمل العباد بالرحمة ببركتهم ، قال : فأدع لى يا أبا حازم فقال : اللهم إن كان سليمان وليك فيسره لخير الدنيا والآخـرة وان كان عدوك فخـذ بناصيته إلى ما تحب وترضى له • فقال سليمان : أوصنى يا أبا حازم ، قال : ـ سأوصيك وأوجز ، عظم ربك ونزهه أن يراك حيث نهاك ، أو يفقدك حيث أمرك • ثم سلم ابو حازم ورجع إلى سبيله فبعث الخليفة فى أثره بمائة دينار وكتب إليه ان انفقها ولك عندى مثلها كثير ، فردها ابوحازم فى إباء وكتب اليه بقصة نبى الله موسى مع ابنتى شعيب وسقايته لهما ودعوة شعيب لموسى أن يطعم من طعامه ، فقال موسى : أخاف أن يكون هذا عوضا لما سقيت لهما وإنا أهل بيت لا نبيع شيئا من ديننا بملء الأرض ذهبا ، وهذا هو بيت القصيد ، ثم قال ابو حازم فى كتابـه للخليفة : إن كانت هذه المائة دينار عوضا لما حدثتك به فالميتة والدم ولحم الخنزير فى حال الاضطرار أحل من هذه ، وإن كان لحق فى بيت المال فلى فيها نظر ، فان ساويت بيننا والا فليس لى فيها حاجة ، وردها عليه رحمه الله •

وإن أبا حازم لمثل رفيع فى زهد الصالحين ممن تأثروا بتربية هذا الدين ، وعلَم فى العاملين ، فهل تحظى الأمة الاسلامية فى أعقاب الزمن بهذا الطراز من عباد الله الذين بهم وبأمثالهم يستسقى الغمام فيسرع الغيث مدرارا أسرع من رد أكفّ الضراعة ، ويقسمون على الله فيصدق فيهم قول الصادق الأمين (**ان من عباد الله من لو اقسم على الله لابره**) •• **اننا لنأمل** ذلك فالخير والخيرون فى هذه الأمة إلى يوم القيامة •

نقد أبي حازم للزهري

عرضنا لوعظ أبى حازم سلمة بن دينار للخليفة الأموى سليمان بن عبدالملك ومحاورة الخليفة لأبى حازم . ولقد كان رحمه الله ورضى عنه سيء الرأى فى ولاة زمانه إما لهنات أخذها عليهم أولمثالية نزع إليها ، كان ابراهيم دونها بمراحل ، أو لاجتهاد فى الرأى دفعه اليه قرب عهده من الصدر الأول وما كان عليه أصحابه رضوان الله عليهم من نهج لا يدرك لهم فيه غبار ، ولم يكن نقد ابى حازم قاصرا على ولاة زمانه ، بل إنه يهاجم كل من جانب مسلكه حتى من العلماء بل عامة الناس ، لا حقدا عليهم ولكن لطلب الأمثل والأكمل والأفضل من المسالك فى نظره ، وحسبه ان كان قدوته فيها خيار الأمة ، فلابد اذن ان يحمل الناس جميعا على هذا الطريق ، بين يدىّ كتاب منه الى عالم دهره وراوية عصره الامام المحدث محمد بن شهاب الزهرى رحمه الله ، وحسبك بالزهرى حجة فى علمه وروايته لحديث رسول الله ﷺ ومثلا يحتذى به فى خلقه ودينه ، ومع ذلك كان متهما لدى ابى حازم اذ لم يختط خطته او يعتزل الدخول على السلطان كصنعه .

يقول ابوحازم فى كتابه للامام الزهرى رحمهما الله جميعا : عافانا الله واياك ابابكر من الفتن ورحمك من النار ، فقد اثقلتك نعم الله عليك بما اصح من بدنك وأطال من عمرك ، وبما علمت من حجج الله تعالى مما حملك من كتابه وفقهك فى دينه وفهمك من سنة نبيّه ﷺ انظر أى رجل تكون اذا وقفت بين يدى الله فسألك عن نعمه عليك كيف رعيتها ، ولا تحسبن الله راضيا منك بالتغرير ، ولا قابلا

منك التقصير ، هيهات ليس كذلك اخذ على العلماء فى كتابه اذ قال تعالى :

﴿ لتبيننه للناس ولا تكتمونه ﴾

اعلم أن ادنى ما ارتكبت ، واعظم ما احتقبت أن انست الظالم ، وسهلت له طريق الغى بدنوك حين ادنيت ، واجابتك حين دعيت ، فما اخلقك أن تسأل عما اردت باغضائك عن ظلم الظلمة ، إنك دنوت ممن لا يرد على احد حقا ، ولا ترك باطلا حين ادناك ، واجبت من اراد التدليس بدعائه اياك حين دعاك ، جعلوك قطبا تدور رحى باطلهم عليك ، وجسرا يعبرون بك الى بلائهم وداعيا الى غيهم ، ويدخلون بك الشك على العلماء ، ويقتادون بك قلوب الجهال اليهم ، فلم تبلغ اخص وزرائهم ، ولا أقوى اعوانهم – الا دون ما بلغت من اصلاح فسادهم واختلاف الخاصة والعامة اليهم ، فما أيسر ما عمروا لك فى جنب ما خربوا عليك ، وما اقل ما اعطوك من كثير ما أخذوا منك ، فانظر لنفسك فانه لا ينظر لها غيرك ، حاسبها حساب رجل مسؤول والسلام عليكم ٠

ونقل أن بعض ذوى السلطان بعث الى ابى حازم فلما غشى مجلسه التقى بالزهرى وغيره من العلماء عنده فسكت ساعة فقال له صاحب السلطان : تكلم يا أبا حازم ٠ فقال: خير الأمراء من أحب العلماء وان شر العلماء من مالأ الامراء وانه كان فيما مضى اذا بعث ذوو السلطان الى العلماء لم يأتوه ، واذا اعطاهم لم يقبلوا منه ، واذا سألهم اى ترخيص فى امر من أمور الدين ليس فيه رخصة لم يرخصوا له ، وكان الامراء يأتون العلماء فى بيوتهم فيسألونهم فكان فى ذلك صلاح للامراء وصلاح للعلماء فلما رأى ذلك بعض الناس قالوا مالنا لا نطلب العلم حتى نكون مثل هؤلاء فطلبوا العلم وأتوا الامراء فحدثوهم ورخصوا لهم واعطوهم فقبلوا منهم ، فاجترأ الامراء على العلماء واجترأ العلماء على الامراء ٠

وقال الزهرى مرة لسليمان بن هشام : الا تسأل ابا حازم ما قال فى العلماء ؟ قال ابوحازم:وما عسيت ان اقول فى العلماء الا خيرا ، انى ادركت العلماء قد

استغنوا بعلمهم عن أهل الدنيا ولم يستغن اهل الدنيا بدنياهم عن علمهم فلما رأوا ذلك قدموا بعلمهم الى اهل الدنيا ، ولم ينلهم اهل الدنيا من دنياهم شيئا ثم اشار الى الزهرى رحمهم الله جميعا وقال : ان هذا واصحابه ليسوا (علماء) وانما هم (رواة) ٠٠ رحم الله اباحازم لقد كان أمة وحده اذا كان الزهرى والعلماء فى عصره ليسوا فى نظر أبى حازم علماء لأنهم دخلوا على السلطان وتعاونوا معه ولم يقفوا منه موقفا سلبيا كأبى حازم أو لأنهم لم يبلغوا بما يجب ان يكون عليه العلماء من التقشف والزهد فى الدنيا والقناعة منها بالبلاغ وما يسد الرمق كما جاء فى كتاب ابى حازم للزهرى ايضا حيث كتب له بوصية أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه الى قائد الفتوحات الاسلامية فى القادسية سعد بن ابى وقاص قائلا : فهلا اذ عرضت عليك فتنتها ذكرت امير المؤمنين عمر رضى الله عنه فى كتابه الى سعد (اما بعد فأعرض عن زهرة ما انت فيه حتى تلقى الماضين الذين دفنوا فى اسمالهم لاصقة بطونهم بظهورهم ، ليس بينهم وبين الله حجاب) رحم الله اباحازم كيف به لو ادرك بعض حملة العلم فى اعقاب الزمن ، وفتنتهم بالدنيا ومزاحمتهم فيها سواد الناس حتى لم يعد لعلمهم فى نظر الأمة مقام ونعنى بالعلم : العلم الشرعى ميراث النبوة ولم يعد للعلماء اثر فى التوجيه والتقويم والاخذ بالسفينة الى ساحل النجاة ٠

وكيف بأبى حازم رحمه الله لو أدرك ان طلب العلم فى اعقاب الزمن اصبح للحصول على الرتبة والراتب ، ولحمل المؤهل الذى يوصل الى هذه الغاية ، ثم لا شىء بعد ذلك ٠

كيف بأبى حازم رحمه الله لو أدرك ان فى طلبة العلم من يسفّ بعلمه ويتخذ منه اداة للتخييل وقلب الحق والتلاعب بالنصوص والمفاهيم فيبيح للناس الفوائد الربوية البنكية ويسقط الزكاة فى عروض التجارة أو يبيح أمرا أجمع خيار الأمة فى عصور الهداية على تحريمه ، ليت شعرى ماذا عسى أن يقول أو يصنع ابوحازم

فى هذا الفريق من رواد الطريق وحملة مشاعل الهداية ـ اللهم سلم سلم ٠

سأل امير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه أحد أصحابه قائلا : هل تعرف ما يهدم الاسلام ؟ قال : لا ، فقال عمر رضى الله عنه : يهدمه زلة العالم ٠ نسأل الله العفو والعافية ٠

وصية القاضي أبي يوسف للرشيد

كان الحديث الماضى عرضاً لمنهج أبى حازم سلمة بن دينار أحد صغار التابعين رحمه الله ، وقد كوّنا به فكرة عن السلف ممن تأثر بالتربية الاسلامية ونظرتهم الى الولاة ، والزهد فى مناصبهم ودنياهم ، والعزوف عن الدخول عليهم وصحبتهم خشية أن يكون عليهم من الله ترة لاعتقادهم أن الولاة فى عهدهم قد جانبوا نهج الهدى فيما يأخذون ويعطون وفيما أحاطوا به أنفسهم من أبهة الملك ، بل فيما يحكمون به من الظلم والجور وجانبوا القسطاس المستقيم ، من أجل ذلك وقفوا منهم موقف السلب ، وجانبوهم ولم يقبلوا لهم صلة أو رفدا كما سبق ان عرضنا لذلك ، وأقرب عهدنا بها قول ابى حازم للخليفة سليمان بن عبدالملك حين طلب منه ان يصحبه فرد عليه ابوحازم فى صراحة واباء : أخشى أن أركن اليكم شيئا قليلا فيذيقنى الله ضعف الحياة وضعف المات ، ورد عليه رفده بقوله : (إن كانت هذه المائة دينار عوضا لما حدثت ، فالميتة والدم ولحم الخنزير فى حال الاضطرار أحل من هذه ، وان كان لحق فى بيت المال ، فان ساويت بيننا والا فليس لى فيها حاجة) كان هذا أسلوبهم واتجاههم من الولاة دون ان يستثيروا عليهم العواطف ، أو يخلعوا طاعتهم ، فهم أعرف الناس بما يجب للراعى نحو الرعية من السمع والطاعة الا أن يجدوا كفرا بواحاً أو يحملوا على معصية للخالق ، وثمة فريق من السلف والعلماء العاملين الموهوبين بعد هذه الطبقة السالفة طبقة ابى حازم وما بعدها وفى عهد الخلفاء العباسيين اختلفت نظرتهم تجاه الولاة ونظروا اليهم بمنظار غير منظار سلفهم ، وكان لهم نهج مغاير لما درج

عليه الأوائل فلم يروا بأسا او خدشا فى دينهم او مسؤولية امام الله من تجاوبهم مع الولاة والاخذ معهم فى دروب النصيحة وتوجيههم والجلوس اليهم بل وقبول مناصبهم والاستعانة برفدهم ، ولكل وجهة هو موليها يرمى الى السداد فى انتهاجها، وفى كل خير وبركة فلا عذل للسابق وقد دفعه ورعه ان يختط خطة يعتقد فيها سلامة دينه وخلوصه من المسؤولية العظمى امام بارئه ، ولا عيب على اللاحق فيما جنح اليه من التعاون مع الولاة على البر والخير والاصابة من رفدهم بقدر ما هو مفروض لهم من بيت مال المسلمين الذى يهيمن عليه السلطان ٠

ونقدم لهذا الطراز من السلف القاضى ابا يوسف رحمه الله فى وصيته للخليفة العباسى هارون الرشيد ، وقد رغب اليه الخليفة ان يضع كتابا فى جباية الخراج وغيره من أموال الرعية ليسير طبق ما يرسمه فلا يشذ عنه أو يحكم رأيه فيجور فأجابه القاضى ابويوسف برسالة نجتزىء منها بمايلى :

(إن أمير المؤمنين أيده الله سألنى أن أضع له كتابا جامعاً يعمل به فى جباية الخراج والعشور والصدقات والجوالى وغير ذلك مما يجب عليه النظر فيه والعمل به ، وانما اريد بذلك رفع الظلم عن رعيته ، والصلاح لامرهم وفق الله تعالى امير المؤمنين وسدده واعانه على ما تولى من ذلك ٠

يا أمير المؤمنين إن الله ـ ولله الحمد ـ قد قلدك امرا عظيما ثوابه أعظم الثواب وعقابه أشد العقاب قلدك أمر هذه الأمة فأصبحت وأمسيت وأنت تبنى لخلق كثير قد استرعاك الله وأئتمنك عليهم وابتلاك بهم ، وولاك امرهم ، وليس يلبث البنيان اذا أسس على غير التقوى ان يأتيه الله من القواعد فيهدمه على من بناه واعان عليه فلا تضيعن ما قلدك الله من أمر هذه الأمة والرعية فان القوة فى العمل باذن الله ٠

ولا تؤخر عمل اليوم الى غد ، فانك اذا فعلت ذلك اضعت ، إن الأجل دون الامل فبادر الاجل بالعمل فانه لا عمل بعد الأجل ، إن الرعاة مؤدون الى ربهم

ما يؤدى الراعى الى ربه ، فاقم الحق فيا ولاك الله وقلدك ولو ساعة من نهار فان اسعد الرعاة عند الله يوم القيامة راع سعدت به رعيته ، ولا تزغ فتزيغ رعيتك ، واياك والامر بالهوى والاخذ بالغضب واذا نظرت الى أمرين أحدهما للاخرة والآخر للدنيا فاختر أمر الآخرة على الدنيا فان الآخرة تبقى والدنيا تفنى ، وكن من خشية الله على حذر ، واجعل الناس عندك فى أمر الله سواء ـ القريب والبعيد ولا تخف فى الله لومة لائم ، ولا تلق الله غدا وانت سالك سبيل المعتدين ، فان ديان يوم الدين إنما يدين العباد باعمالهم ولا يدينهم بمنازلهم ، وإن الله سائلك عما انت فيه وعما عملت به ، فانظر الجواب فان عملت فاثبت فهو عليك غدا يقرأ فاذكر كشف قناعك فيما بينك وبين الله فى مجمع الاشهاد ، وانى اوصيك بحفظ ما استحفظك الله ورعاية ما استرعاك الله ، فانك الا تفعل تتوعر عليك سهولة الهدى وتتعفى رسومه ، فان الراعى المضيع يضمن ما هلك على يديه مما لو شاء رده عن اماكن الهلكة واذا اصلح كان اسعد من هنالك بذلك ، ووفاه الله اضعاف ما وفى له ، فاحذر ان تضيع رعيتك فيستوفى ربها حقها منك ويضيعك أجرك بما أضعت ، وإن الله بمنه ورحمته جعل ولاة الامر خلفاء فى أرضه وجعل لهم نورا يضيىء للرعية ما اظلم عليهم من الأمور فيما بينهم ، واضاءة نور ولاة الأمر : اقامة الحدود ، ورد الحقوق الى اهلها بالتثبت والأمر البيّن واحياء السنن التى سنها القوم الصالحون ، فان احياء السنن من الخير الذى يحيا ولا يموت ، وجور الراعى هلاك للرعية واستعانته بغير أهل الفقه والخير هلاك للعامة ، فاستتم ماآتاك الله من النعم بحسن مجاورتها والتمس الزيادة فيها بالشكر عليها ، وليس شيء أحب إلى الله من الاصلاح ولا أبغض إليه من الفساد ، والعمل بالمعاصى كفر بالنعم ، وما كفر قوم النعمة ثم لم ينزعوا الى التوبة الا سلبوا عزهم وسلط الله عليهم عدوهم ، وانى أسأل الله يا أمير المؤمنين الذى منّ عليك بمعرفته فيما أولاك الاّ يكلك فى شيء من أمرك الى نفسك ، وان يتولى منك ما تولى من أوليائه واحبابه فانه ولى ذلك والمرغوب اليه فيه) .

وإنها لنصيحة غالية ووصية من عالم واع أدى العهد الذى أخذه الله على العلماء فى التبيان وعدم الكتمان ، وأدى حق الوالى الواجب عليه بالنصح فى لين ورفق وتوجيه ودعوة بالحكمة الى النهج الراشد المسدد الذى يصل بالراعى والرعية معا الى خير وفلاح .. فاين فى الناس من يسلك مناهج السلف ويترسم خطاهم فيما ذهبوا اليه من وسائل اصلاح الراعى والرعية ، وبذل النصح الغالى فيما لا يحمد فيه السكوت بل يعتبر تقصيراً وتفريطا واخلالا بالأمانة الواجب اداؤها ، وخير الامانات علم مشاع فلا يكتم ، ونصيحة تبذل فتنير السبيل وتهدى الى الجادة ، وتبصر بمعالم الطريق ، وتذلل وعورته ، وأين فى الناس فى اعقاب الزمن من تأثرت نفسيته بتربية الاسلام فأخذ بها فى مجتمعه وكان نجما متألقا يهتدى بمسلكه ؟

أحد العارفين يعظ المنصور فى حجه

وصل هذا الحديث بما قبله فيما أخذنا النفس به من التنويع فى التذكير وطرق أبواب من العلم والمعرفة يتقاضانا المزيد من أقوال السلف وتوجيه الصالحين ، لنرسم بذلك أفضل سبيل للخلف اذا انتهجوه وساروا فى دروبه كان لهم من الله السداد والبلاغ الى رضوانه والحظوة بدار كرامته الى جوار من أخذوا النفوس بالاقتداء والاهتداء بهم ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه

﴿ أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أُولوا الألباب ﴾

وإنا لنورد هنا تذكير أحد العارفين للخليفة العباسى ابى جعفر المنصور وقد قدم حاجا ، وكان من عادته أن يخرج الى الطواف فى آخر الليل يطوف ويصلى ولا يعلم به أحد ، فاذا طلع الفجر واقيمت الصلاة صلى بالناس .. فخرج ذات ليلة وبينما هو يطوف اذ سمع رجلا عند الملتزم يدعو يقول : اللهم إنى أشكو إليك ظهور البغى والفساد فى الأرض وما يحول بين الحق وأهله من الظلم والطمع . فأسرع المنصور فى مشيته حتى ملأ مسامعه من قوله ، ثم خرج فجلس ناحية من المسجد ، وارسل الى الرجل فدعاه وقال له : ما هذا الذى سمعتك تقوله من ظهور البغى والفساد فى الارض وما يحول بين الحق وأهله من الطمع والظلم ، فوالله لقد حشوت مسامعى ما أمرضنى وأقلقنى ؟ فقال : يا أمير المؤمنين إن أمنتنى على نفسى أنبأتك بالامور من أصولها ، وإلا اقتصرت على نفسى ففيها لى شغل شاغل . فقال : انت آمن على نفسك . قال : ياأمير

المؤمنين الذى دخله الطمع حتى حال بينه وبين الحق واصلاح ما ظهر من البغى والفساد فى الارض أنت • فقال المنصور : ويحك وكيف يدخلنى الطمع والصفراء والبيضاء فى يدى ، والحلو والحامض فى قبضتى ؟ قال : وهل دخل أحدا من الطمع ما دخلك ؟ يا أمير المؤمنين إن الله تعالى استرعاك أمور المسلمين وأموالهم فاغفلت أمورهم ، واهتممت بجمع أموالهم وجعلت بينك وبينهم حجابا من الجص والآجر ، وأبوابا من الحديد ، وحجبة معهم السلاح ثم سجنت نفسك فيها منهم وبعثت عمالك فى جمع الأموال وجبايتها واتخذت وزراء واعوانا ظلمة ، إن نسيت لم يذكروك وإن ذكرت لم يعينوك ، وقويتهم على ظلم الناس بالأموال والكراع والسلاح ، وأمرت بألاّ يدخل عليك من الناس الا فلان وفلان ، نفر سميتهم ولم تأمر بايصال المظلوم ولا الملهوف ولا الجائع ولا العارى ولا الضعيف ولا الفقير ، ولا أحد الا وله فى هذا المال حق فلما راك هؤلاء النفر الذين استخلصتهم لنفسك وآثرتهم على رعيتك وامرت الاّ يحجبوا عنك، تجبى الأموال ولا تقسمها قالوا : ـ

وهذا قد خان الله فمالنا لا نخونه وقد سخر لنا، فائتمروا على ألاّ يصل إليك من علم اخبار الناس الا ما ارادوا والاّ يخرج لك عامل فيخالف لهم أمرا الا اقصوه حتى تسقط منزلته ، ويصغر قدره ، فلما انتشر ذلك عنك وعنهم أعظمهم الناس وهابوهم ، وكان أول من صانعهم عمالك بالهدايا والأموال ليتقووا بهم على ظلم رعيتك ، ثم فعل ذلك ذوو القدوة والثروة من رعيتك لينالوا ظلم من دونهم من الرعية ، فامتلأت بلاد الله بالطمع بغيا وفساداً وصار هؤلاء القوم شركاء فى سلطانك وأنت غافل ، فان جاء حيل بينه وبين الدخول اليك ، وان أراد رفع صوته اليك عند ظهورك وجدك قد نهيت عن ذلك ووقفت للناس رجلا ينظر فى مظالمهم ، فان جاءك ذلك الرجل فبلغ بطانتك سألوا صاحب المظالم الاّ يرفع مظلمته ، وان كانت للمتكلم به حرمة واجابة لم يمكنه مما يريد خوفا منهم ، فلايزال المظلوم يختلف اليه ويلوذ به ويشكو ويستغيث وهو يدفعه ويعتلُّ عليه فاذا جهد وصرخ بين يديك فيضرب ضربا مبرحا ليكون نكالا لغيره وانت تنظر

ولا تنكر ولا تغير ، فما بقاء الاسلام وأهله على هذا ؟ ولقد كانت بنو امية وكانت العرب لا ينتهى اليهم المظلوم الا رفعت ظلامته اليهم فينصف ، ولقد كان الرجل يأتى من اقصى البلاد حتى يبلغ باب سلطانهم فيبتدرونه (مالك ، مالك) فيرفعون مظلمته الى سلطانهم فينتصف • ولقد كنت ياأمير المؤمنين أسافر إلى أرض الصين وبها ملك ، فقدمتها مرة وقد ذهب سمع ملكهم فجعل يبكى فقال له وزراؤه : ـ ما يبكيك لابكت عيناك ؟ فقال : اما انى لست ابكى على المصيبة التى نزلت بى ، ولكن ابكى لمظلوم يصرخ بالباب فلا أسمع صوته • ثم قال :

اما ان كان قد ذهب سمعى فان بصرى لم يذهب ، نادوا فى الناس الا لايلبس ثوبا أحمر الا مظلوم ، فكان يركب الفيل ويطوف طرفى النهار يرى أمن مظلوم فينصفه •• هذا ياأمير المؤمنين مشرك بالله قد غلبت رأفته بالمشركين ورقته على شح نفسه فى ملكه ، وانت مؤمن بالله وابن عم نبى الله لا تغلبك رأفتك بالمسلمين ورقتك على شح نفسك حتى تعظم رغبة الناس إليك ، يا أمير المؤمنين انك لا تجمع المال الا لواحد من ثلاثة : إن قلت اجمعه لولدى فقد أراك الله عبرا فى الطفل الصغير يسقط من بطن أمه وماله على الأرض مال ، وما من مال الا ودونه يد شحيحة تحويه ، فمايزال الله يلطف بذلك الطفل حتى تعظم رغبة الناس اليه ، ولست الذى تعطى بل الله يعطى من يشاء ، وإن قلت اجمع المال لاشيد سلطانى فقد أراك الله عبرا فيمن كان قبلك ، ما أغنى عنهم ما جمعوا من الذهب والفضة وما اعدوا من الرجال والسلاح والكراع ، وما ضرك وولدك وأباك ما كنتم فيه من قلة الجدة والضعف حين أراد الله بكم ما أراد ، وإن قلت أجمع المال لطلب غاية هى أجسم من الغاية التى انت فيها فوالله ما فوق ما انت فيه الا منزلة لا تدرك الا بالعمل الصالح ، ياأمير المؤمنين هل تعاقب من عصاك من رعيتك باشد من القتل ؟ قال : لا ، قال : ـ فكيف تصنع بالملك الذى خولك الله وما انت عليه من ملك الدنيا وهو تعالى لا يعاقب من عصاه بالقتل ولكن يعاقب من عصاه بالخلود فى العذاب الأليم ، وهو الذى يرى منك ما عقد عليه

قلبك واضمرته جوارحك ، فماذا تقول اذا انتزع الملك الحق المبين ملك الدنيا من يدك ودعاك الى الحساب ، هل يغنى عنك عنده شيء مما كنت فيه ومما شححت عليه من ملك الدنيا ؟ فبكى المنصور بكاء شديدا حتى نحب وارتفع ثم قال : ليتنى لم اخلق ولم اك شيئا ثم قال : للعارف بالله واعظه : كيف احتيالى فيما خولت فيه ولم أر من الناس إلا خائنا ؟ قال : ياأمير المؤمنين عليك بالأئمة الاعلام المرشدين ٠ قال : ومن هم ؟ العلماء بعلمهم قال : فروا منى قال : هربوا منك مخافة أن تحملهم على ما ظهر من طريقتك من قبل عمالك ، ولكن افتح الباب وسهل الحجاب وانتصر للمظلوم من الظالم وخذ الشيء مما حل وطاب ، واقسم بالحق وأنا ضامن على أن من هرب منك أن يأتيك فيعاونك على صلاح أمرك ورعيتك فقال المنصور : ـ اللهم وفقنى أن أعمل بما قال هذا الرجل ٠ وجاء المؤذنون فسلموا على الخليفة ، واقيمت الصلاة فخرج فصلى بالناس ، وطلب بعد ذلك الواعظ فلم يقفوا له على أثر ٠٠

ترى هل كان ملكا من السماء هبط على الأرض لينير الطريق لأهل الأرض بعد أن ظهر فيها البغي وعم الفساد ، فضرب بوعظه أروع الأمثال ورسم طريق الهدى ومنهج السداد وحذر وانذر وخوف بالله حتى غدا من كانت ترتعد الفرائص منه هيبة لسلطانه وخشية من سطوته غدا وكأنه السليم يتململ من وقع ما داخله من السم ؟ ولم يكن فى الواقع غير تأثير الوعظ لاخلاص الواعظ ، ورقة قلب الموعوظ وتمثله رهبة المقام بين يدى الملك العلام ومناقشة الحساب :

﴿ يوم تأتى كل نفس تجادل عن نفسها وتوفى كل نفس ما عملت وهم لا يظلمون ﴾ ﴿ يوم لا ينفع مال ولا بنون الا من أتى الله بقلب سليم ﴾ ٠

تأثر بعض العارفين بعظات القرآن (١)

الحديث عندما يصدر من القلب تتلقاه القلوب وتتأثر به ويكون له أى الحديث فعالية الترياق فى الجسد المعلول ، بمعنى أن يصح به ويشفى من علته ٠

وعلى العكس عندما يكون مصدر الحديث اللسان فقط ، فهو لايتجاوز الآذان ، ولا يكون له من الأثر الطيب ما ينفع علة ويشفى غليلا ٠

لقد كان فى السلف رضوان الله عليهم من تتملكه العبرة اذا أخذ فى الوعظ ، فتتأثر الجماهير ببكائه ، كما تتأثر بوعظه ، وتقبل على الله فى توبة صادقة ، يكون بها غسل الخطايا ، واستصلاح الفارط مما كان منهم فى فترة غفلة من نزوات وشطحات ٠ روى أن بعضهم قال لرجل : ـ اقرأ أى شىء من القرآن فقرأ الرجل قول الله تبارك وتعالى :

﴿ وانذرهم يوم الأزفة اذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع ﴾

فقطع عليه قراءته ليعلق على الآية وكان من تعليقه : (كيف يكون للظالمين حميم أو شفيع والطالب لهم رب العالمين انك والله لو رأيت الظالمين وأهل المعاصى يساقون فى السلاسل والاغلال الى الحميم حفاة عراة مسودة وجوههم ، ينادون واسلاماه ماذا حل بنا ؟ وهم بين باك دما بعد انقطاع الدموع وبين صارخ طائر القلب ، والله لو رأيتهم على ذلك لرأيت منظرا لا يقوم له بصرك ولا يثبت له قدمك ، ولا يستقر لفظاعة هوله على قرار قدمك) ثم بكى تأثرا بما قال ، وكان بين

المجموعة شاب قد زلت به القدم ، فقال : ـ أكل هذا فى القيامة ؟ قال له : نعم والله ياابن أخى وما هو أكبر من ذلك ، لقد بلغنى انهم يصرخون فى النار حتى تنقطع أصواتهم فلا يبقى منها الاكهيئة الأنين من المدنف • فتأثر الشاب غاية التأثر ، وندم على ما فرط منه ، ثم بكى واستقبل القبلة واخذ يدعو فى حرارة قائلا : اللهم إنى أستقبلك فى يومى هذا بتوبة لك لا يخالطها رياء لغيرك ، اللهم فاقبلنى على ماكان منى ، واعف عما تقدم من عملى واقلنى عثرتى ، وارحمنى ومن حضرنى وتفضل علينا بجودك ياأرحم الرحمين ، اليك انبت بجميع جوارحى صادقا بذلك قلبى ، فالويل لى إن لم تقبلنى •• ثم سقط مغشيا عليه فحمل من بين القوم صريعاً يبكون عليه ويدعون له • ذلك هو أثر الكلمة اذا صدرت من القلب ، وأثر الموعظة اذا كان الواعظ مخلصا فى توجيهها ، مؤمنا بواقعها آخذا نفسه بالتربية على مناهجها • ترى لو كان بين المجموعة الاسلامية فى أقطار الدنيا موجهون ومرشدون على نمط الواعظ آنف الذكر ، كم تكسب الأمة من حشد بالمنتفعين بالوعظ ، المتأثرين بتربيته ، المستقيمين على نهجه ؟ اذن لصلحت الدنيا ، وتغلب الخير على الشر ، وانزوى الباطل بحيث لا يقبل عليه الا من سبق عليه الكتاب بان يكون من الغاوين •

لقد نعت بعضهم ذلك الطراز من الواعظين فى سالف العهد ، وسابق الزمان فقال : إن منهم من اذا أخذ فى وعظه غدا وكأنه رجل مذعور يخيفك امره ، وكان بعضهم اى الوعاظ اذا اراد الوعظ قال : هات جونة المسك والترياق المجرب ـ يعنى القرآن ـ فلايزال يقرأ ويدعو ويبكى حتى ينصرف من مكانه : اولئكم البررة الاخيار الذين كان لهم السهم الوافر فى إنارة السبيل أمام السالكين فقطعوا بتربيتهم المفاوز فى أمن من المخاوف ومنجاة عن المآخذ والحصيلة الاّ يركن المرء الى الغفلة ، وان يكون واكف العبرة كلما مرت به المواعظ فى مختلف دروبها ، سواء ما كان منها بالوعيد من مصير الظالمين ، وعاقبة الهالكين أو كان بالتفكير فى الذنوب وعاقبتها ، وما تجره على المذنب فى دنياه وعقباه من المآسى

والمنغصات وتقلبات الأحوال ، أو ما كان وراء ذلك فى القيامة والحشر والنشور ومناقشة الحساب ونزول الجزاء وما الى ذلك مما يتجافى بالمرء عن الغفلة ، وجعله مرهفا ، واكف العبرة ولقد وصف الله واقع الغافلين بما يجب أن يتفتح له وعى الراشدين • فقال تعالى :

﴿ ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والانس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها اولئك كالانعام بل هم اضل اولئك هم الغافلون ﴾

نسأل الله التوفيق والهداية الى أقوم سبيل •

تأثر بعض العارفين بعظات القرآن (٢)

فى دروب العارفين وبين مناهجهم ومذاهبهم ، نجد العجب العجاب ، وكأنهم بين من عاش على الغبراء فى منجاة عماهم فيه من متع وزخارف وبهجة ومتارف ، يشاركون الناس فى كسب العيش من عمل اليد لئلا يكونوا عالة على الغير ، وينعزلون عنهم فى اخباتهم وتوجههم الى الله وأخذ العظة من كتابه والتأثر بوعيده ، وكان أحدهم اذ تتلى عليه آية من كتاب الله أو يستمع الى وعظ واعظ يذكره بالله ، يتململ تململ اللديغ من الألم والحرقة ولا يدرى من حوله وقع مانزل به .

نزل بعض المسافرين على رجل من العارفين مغمور فى بعض الاحياء فى خص له (واصل الخص البيت من القصب ولعله مايسمى بالعشة) فاستأذنوا عليه ودخلوا فاذا به يعمل خرصا له فقرأ عليه بعض المسافرين قول الله تبارك وتعالى :

﴿ اذ الاغلال فى أعناقهم والسلاسل يسحبون فى الحميم ثم فى النار يسجرون ﴾

فشهق العارف شهقة فاذا هو قد يبس مغشيا عليه ـ فتركوه لحاله .

ثم انطلقوا الى آخر ، واستأذنوا عليه فقال : ادخلوا إن لم تشغلونا عن ربنا ، فدخلوا فاذا هو جالس فى مصلاه فقرأ عليه أحدهم :

﴿ ذلك لمن خاف مقامى وخاف وعيد ﴾

فشهق العارف شهقة وبدر الدم من منخره ، ومازال هذا النفر يتابعون الدخول على العارفين واحدا أثر الآخر ، يقرأون عليهم القرآن وينظـرون اثـر ذلك فى نفوسهم حتى دخلوا على سبعة من العارفين كلهم يصنع ضنيع صاحبه ، أى عندما يسمع القرآن وآيات الوعيد او الوعد يشهق شهقة ثم يخر مغشيا عليه تأثرا بكتاب الله واتعاظا بوعيده واملا فى وعد الله لعباده الاوابين اليه المقيمين على طاعته ، وانه لنهج سديد رشيد يوصل الى أكرم غاية من رضوان الله وعظيم جزائه ، وان من اغراض نزول القرآن بل من ابرزها التدبر والتذكر كما قال تعالى :

﴿ كتاب انزلنـاه اليك مبـارك ليدبـروا آياتـه وليتـذكر أُولوا الألباب ﴾

وعلى العكس هجر القرآن ٠٠ كما قال تعالى :

﴿ وقال الرسول يارب إن قومى اتخذوا هذا القرآن مهجورا ﴾ ٠

جاء فى معانى الهجر : هجر تدبره وتفهمه ومعرفة ما اراد المتكلم منه ٠ اما الشهقة عند سماعه شهقة التأثر والخوف من الله ووعيده ، فللعلامة ابن القيم رحمه الله بسط عنها لم يعدُ فيه الواقع ٠ يقول رحمه الله : الشهقة التى تعرض سماع القرآن أو غيره من المواعظ لها أسباب أحدها : أن يلوح له أى للسامع عند السماع درجة ليست له فيرتاح اليها ويتمنى بلوغها فتحدث له الشهقة ٠ فهذه شهقة شوق ٠٠ ثانيها : أن يلوح له ذنب ارتكبه فيشهق خوفا وحزنا على نفسه وهذه شهقة خشية ٠٠ وثالثها : أن يلوح له نقص فى نفسه لا يقدر على دفعه عنه فيشهق شهقة حزن الى اخر ما عرض له مما يصور الباعث على الشهقة عندما تعرض للمرء لتأثر القلب بأى سبب من الأسباب التى كشف عنها ابن القيم رحمه الله وتلك درجة لا يبلغها الا الافذاذ من عباد الله ، الذين اتصلت قلوبهم بالله ووظفوا جوارحهم فى طاعة الله واقبلوا عليه واعرضوا عن كل أحد سواه ،

كما قال تعالى فى وصفهم :

﴿ إنما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايمانا ﴾ الآية ..

وقال تعالى :

﴿ والذين اذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صما وعميانا ﴾

قال بعض المفسرين : ـ أى اذا وعظوا بالقرآن لم يقعوا عليه صما لم يسمعوه وعميانا لم يبصروه ولكنهم سمعوا وابصروا وايقنوا به .

وقال ابن عباس رضى الله عنهما : لم يكونوا عليها صما وعميانا بل كانوا خاشعين خائفين ، فالموعظة للعارفين وخاصة بآيات الله تبلغ منهم الشفافة ويتأثرون بها مالا يتأثر به غيرهم من سواد الناس أولئكم ممن يستمطر بهم الغيث وتستنزل الرحمات الا ليت لنا منهم الكثرة لتقوم على الناس بهم الحجة فانما خلق الله الخلق لعبادته والتفرغ اليه والاقبال على طاعته وقطع الصوارف والشواغل عنه وخاصة شواغل وصوارف المادة التى اضحت الشغل الشاغل عن العبادة للمعبود سبحانه الذى له خزائن السموات والأرض كما قال تعالى :

﴿ وان من شيء الا عندنا خزائنه ﴾

علق بعض المفسرين على هذه الآية بقوله : يتضمن ذلك ان كل شيء لايطلب الا ممن عنده خزائنه ومفاتيح تلك الخزائن بيديه وإن طلبه من غيره طلب من ليس عنده ولايقدر عليه . وفى قوله تعالى :

﴿ وان الى ربك المنتهى ﴾

يتضمن أن كل مراد ان لم يرد لأجله ويتصل به والا فهو مضمحل منقطع فانه ليس المنتهى ، وليس المنتهى الا الى الذى انتهت اليه الأمور كلها ، فهو غاية

كل مطلوب ، وكل محبوب لا يحب لأجله فحبه عناء وعذاب ، وكل عمل لا يراد لأجله فهو ضائع وباطل ، وكل قلب لا يصل اليه فهو محجوب عن سعادته وفلاحه فاجتمع مايراد منه فى قوله تعالى :

﴿ وان من شيء الا عندنا خزائنه ﴾

واجتمع مايراد له كله فى قوله تعالى :

﴿ وان الى ربك المنتهى ﴾

فليس وراءه سبحانه غاية تطلب وليس دونه غاية المنتهى ، ومن ثم كان سبيل العارفين هو السبيل القويم الذى يجب اليه المصير لكل من عاش على الغبراء الى أمد محدد ينتهى بانتهاء الأجل

﴿ كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام ﴾

ومهما طال هذا الأمد فإن المصير الى الله هو غاية كل حى (**وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفائن مت فهم الخالدون**) ٠

وإن متع الدنيا وشهواتها وبريق المادة فيها لا يقف عند حد ، فمن فطم النفس عن شهواتها ، وعلق أمله فى الله فى كل مرغوب ومطلوب وانصرف عن الشواغل عنه فقد سار على الدرب ، وكل من سار على الدرب وصل ٠ فان لم يبلغ شأو العارفين ويدرك سبقهم فله الحظوة إن سار على دربهم وانتهج بعض مناهجهم ٠

الفصل الخامس

اتجاهات إسلامية

- المستقبل للإسلام .
- الإسلام : قول وعمل واعتقاد .
- الإسلام نظام متكامل .
- الإسلام دين السلام .
- الإسلام دين العقل .
- طابع الإسلام : رفع الحرج عن الأمة .
- إقامة الحدود : صمام الأمان .
- شرطان لكسب معركة المصير .
- من الواقع الإسلامي .
- حقوق الإنسان .
- مهمة الداعي .
- عيدي مقيم وعيد الناس منصرف .
- إن من البيان لسحرًا .
- وصية الإمام جعفر الصادق لابنه .
- النزعة القومية .
- الاعتداد بالنفس بين الحظر والإباحة .
- الجدال عن المبطلين .
- ليلة النصف من شعبان .
- في رحاب رمضان .
- في دروب الموعظة .
- أثر تربية المسجد .
- الإحسان تتسع فيه الأبعاد

المستقبل للإسلام

المستقبل للإسلام ، ولم لا يكون المستقبل للإسلام ؟ وهو الدين الذى تكفل الله بحفظه ، على مرور الأزمان ، ورضيه لعباده ، وجعله مهيمنا على سائر الأديان ، كما قال تعالى :

﴿ هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، ولو كره المشركون ﴾ .

ولئن غشيته غواشى الباطل ، واكتنف المسلمين فى أعقاب الزمن ضروب من الفتن ، فان العاقبة للمتقين ، وإن حزب الله هم الغالبون .

أبرز برهان على ذلك ، أن الاسلام قد ابتلى فى سابق عهده ، بثلاث طوائف من خصومه ، كانت حربا عليه ، تكيد له ، وتتربص به الدوائر ، وتضع فى سبيل إشراقه العراقيل ، لتصد الناس عن الأخذ به ، المشركون فى مكة واليهود والمنافقون فى المدينة ، واضمحل كل كيد دبروه له :

﴿ وقل جاء الحق وزهق الباطل ، ان الباطل كان زهوقا ﴾

أما المشركون فقد دانوا لدولة الاسلام ، بعد فتح مكة ، وتحطيم الأصنام ، واذلال آلهة الشرك من الأوثان والأحجار ، وكل معبود من دون الله .

وأما اليهود ، فقد انتهى أمرهم ، إلى شر ما ينتهى إليه أمر صاحب فتنة ، محارب لله ورسوله ، انتهى أمرهم إلى الطرد ، والابعاد عن عاصمة الاسلام ،

والقتل والقضاء على البعض الآخر قضاء مبرما بحيث لم تعد تسمع له نأمة ، ومن أجل ذلك ، فهم موتورون حاقدون على الاسلام وأهله ، يريدون القضاء على العرب جميعا ، الذين نصروا الاسلام ، وأعز الله بهم الدين ، ويريد الخلف من اليهود فى أعقاب الزمن أن يثأروا من الاسلام ويستولوا على ديار المسلمين ، كما صرح بذلك موشى ديان ، فى إحدى تصريحاته قائلا : لقد استولينـا على أورشليم القدس ، ونحن فى طريقنا إلى يثرب ، وبابل • إن الأغراض التعسفية لليهود فى بلاد العرب ، وإعادة ما كان لاسلافهم من مقاعد ومساكن بجـوار المدينة ، عاصمة الاسلام الأولى ، حلم معسول ، يداعب كل فرد منهم ، يذكر بعض الكتاب الاسلاميين ، أن الملك عبدالعزيز رحمه الله ، عندما اجتمع مع الرئيس الأمريكى روزفلت ، عرض عليه ان يمنح اليهود بعض الأراضى المحيطة بالمدينة حيث كان يسكن جماعة خيبر ، وقينقاع ، وذلك مقابل مبلغ من ملايين الذهب ، وراع روزفلت أن يزأر الملك عبدالعزيز فى وجهه زئير الأسد مما اضطره إلى التراجع ، والاعتذار ، وعلى ذكر خيبر وقينقاع ، سوف نأتي بعرض لقصة اليهود ، مع رسول الهدى ﷺ ، وكيف كانوا حربا عليه ، ينقضون عهـده ، ويظهرون الشماتة به ، ويتربصون به الدوائر ، ويكيدون له ، ولدينه ، الأمر الذى اضطره بعد اذن الله له أن يقاتلهم ويخرجهم من جواره •

لقد صالح رسول الهدى ﷺ اليهود بالمدينة ، على ألاّ يحاربوه ، ولا يوالوا عليه عدوه ، وهم على كفرهم آمنون على دمائهم ، وأموالهم ، وبعد وقعة بدر ، وانتصار المسلمين فيها ، أخذ بنو قينقاع ، تبدر منهم بوادر السوء ، ويتحرشون بالمسلمين ، وأظهروا البغى والحسد ، ونقضوا عهد رسول الله ﷺ فحاصرهم أشد الحصار ، وقذف الله فى قلوبهم الرعب ، فنزلوا على حكم رسول الله ﷺ ، فى رقابهم وأموالهم ونسائهم وذريتهم ، وبعد أن هم بهم الح عليه عبدالله بن ابى ابن سلول ، وكانوا حلفاءه فى العفو عنهم ، ففعل ﷺ وأمرهم أن يخرجوا من جواره ، بالمدينة ، وكانوا أول من حارب المسلمين من اليهود •

وأما يهود بنى النضير ، فقد خرج إليهم رسول الله ﷺ ، فى نفر من أصحابه يستعينهم فى دية قتيلين ، فوعدوا خيرا ، ثم دبروا حيلة لاغتياله ، وذلك نقض للعهد الذى بينهم وبين الرسول ، وكان الوحى إلى الرسول من السماء أسرع من تنفيذ خطتهم الاجرامية ، فنهض سريعا إلى المدينة ، وتبعه أصحابه ، ثم بعث رسول الله إلى اليهود يطلب منهم أن يخرجوا من جواره ، فامتنعوا ، فسار إليهم رسول الله ﷺ وحاصرهم ، وقطع وحرق فى نخيلهم ، فنزلوا على حكمه ، فأمر أن يخرجوا بنفوسهم وذراريهم ، وأن لهم ما حملت الابل الا السلاح ، واستولى المسلمون على أرضهم ، وأنزل الله سبحانه سورة الحشر فى قصتهم ، درسا يتلى فى القرآن إلى الأبد ، يذكر بمخازى اليهود ، ونقضهم للعهود ·

وأما يهود بنى قريظة ، فقد كانوا أشد اليهود عداوة لرسول الله ﷺ ، ولذلك أصابهم مالم يصب أحدا من اخوانهم ، بنى قينقاع وبنى النضير ·

لقد انتهزوا تحزب الأحزاب من قريش ، وغيرها ، على رسول الله ﷺ ، وأظهروا سبه والعداوة له ونقضوا عهده ، ولما انصرف الرسول من غزوة الأحزاب إلى المدينة ، ولم يكن إلا أن وضع السلاح عنه ، جاءه جبريل ، وقال : ـ أوضعت السلاح والله ان الملائكة لم تضع أسلحتها ، فانهض بمن معك إلى بنى قريظة ، فإنى سائر أمامك أزلزل حصونهم ، وأقذف فى قلوبهم · فخرج إليهم رسول الله ﷺ ، ونازل حصونهم ، وحاصرهم خمسا وعشرين ليلة ، ثم نزلوا على حكم رسول الله ﷺ ، فحكم فيهم سعد بن معاذ رضى الله عنه ، فقال سعد : ـ انى أحكم أن يقتل الرجال وتسبى الذرية وتقسم الأموال فقال له رسول الله ﷺ :(**لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سموات**) وأمر رسول الله ﷺ بقتل كل من بلغ الحلم من الرجال فحفرت لهم خنادق فى سوق المدينة ، وضربت أعناقهم ، ويطول بنا البحث ، لو عرضنا لغزوة خيبر ، الا أننا نلمع إليها الماعا ، فلقد نكثوا عهد الرسول الكريم ، فقاتلهم ، وغلب على الزرع والنخل والأرض ، وأراد أن يجليهم عنها ، ثم اقتنع بفكرتهم ، فى أنهم يصلحون

الأرض ، ويقومون عليها ، فأعطاهم اياها ، على أن يكون لهم الشطر من كل زرع ، ومن كل ثمر ، ما بدا لرسول الله أن يقرّهم فيها ، تلك هى عاقبة الغادرين ، الناكثين للعهد ، لم يكن قتالهم تجنيا عليهم ، أو إخراجهم من جوار الرسول فى المدينة ، للتوسع فى أرضهم ، وإنما كان قصاصا عادلا وشرعة أنزلها رب العزة ، قائمة إلى قيام الساعة ، فمنازلتهم اليوم فريضة ، ووصل للحاضر بالماضى ، فاليهود إلى أبد الدهر ، أشد عداوة للمؤمنين ، وحسبنا برهانا على ذلك ، قول رب العزة :

﴿ لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ﴾ .

❋❋❋

الإسلام: قول وعمل واعتقاد

كل دعوى لا يقام البرهان على صدقها ، فهى زعم باطل ، وخداع للنفس والغير ، لايلبث أن ينكشف ، ولذا قيل فى تعريف الايمان ، ليرتفع عن الزعم الباطل : ـ إنه قول باللسان ، وعمل بالأركان ، واعتقاد بالجنان ، يزيد بالطاعة وينقص بالعصيان ، وجاء فى الأثر ما يوجه هذا التعريف ، ويجعل الأخذ به بعين الاعتبار أمرا لا مندوحة عنه (ليس الايمان بالتمنى ولا بالتحلى ، ولكن ما وقر فى القلب ، وصدقه العمل) والعمل برهان على الايقان ، لكل اتجاه تتسابق اليه الخطى ، وكل كسب يحرز به العبد ، رصيدا للعقبى ، ولقد نفى الله الايمان عن من زعمه من الأعراب ، دون أن يكون له واقع فى نفسه ، وحقيقة تدفعه إلى العمل ، تأييدًا لزعمه ، وقال تعالى :

﴿ قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الايمان فى قلوبكم ﴾

فمجرد دعوى الايمان ، دون انقياد إلى العمل ، بوحى الايمان ، والاطمئنان إليه ، والاخلاص فيه ، هو كما أسلفنا القول زعم باطل ، وخداع للنفس ، يوهمها أنها قد ارتفعت إلى ما يوجب لها النجاة وإن لم تأخذ بوسائل النجاة ، وهو أيضا خداع للغير ، حيث كان يدفع عن صاحبه القتل ، والسبى ، ويوجب له عصمة الدم والمال ، على اعتبار أنه دخل حظيرة الاسلام .

نسوق هذه المقدمة ، بين يدى الآية الكريمة

﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ﴾

حيث نفى الله فيها حقيقة الايمان ، عن كل من ينتحله ، مجرد دعوى ، دون اذعان نفسى كامل شامل ، يترجم عن هذا الاذعان •

أولا تحكيم الرسول ﷺ فى كل خلاف يطرأ أو نزاع يستشرى ، يتطلب الفصل ، •

ثانيا : الانقياد الفعلى للحكم ، وتنفيذه عن رضى واقتناع بأنه الحكم المسدد الراشد ، البعيد عن هوى النفس ، والميل عن الحق ، واذن فليس المحافظة على أحكام الدين ، والتزاماته الظاهرة ، وليس دعوى الايمان بالله ورسوله ، وحضور الصلوات فى الجماعة ، والجهاد تحت راية الاسلام ، ليس ذلك بالذى يعبر عن حقيقة الايمان ، أو يعطى الصورة الواضحة ، عن مدى تعمق الايمان ، واشراق القلوب به ، بل وراء ذلك ، الاذعان النفسى ، الذى يقوم على الثالوث آنف الذكر ويكون هذا الثالوث ، أعظم برهان عليه ، وأصدق ما يترجم عنه ـ ولقد كان المنافقون على عصر التنزيل ، يتفيئون ظلال الاسلام ، ويحضرون مجالس الرسول الكريم ، ويشهدون الجمع والجماعات ، وينضمون إلى صفوف المجاهدين ، حين لم يجدوا مناصا عن ذلك ، غير أن بشاشة الايمان ، لم تخالط قلوبهم ، فكان ما يؤدونه من شعائر مجرد التقية ، فلم ينفعهم ذلك ، ووصف الله واقعهم بقوله :

﴿ ان المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم ، واذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يرآءون الناس ولا يذكرون الله الا قليلا مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ﴾

ووصف مصيرهم فى الآخرة بقوله :

﴿ ان المنافقين فى الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيرا ﴾

وكذلك كل من قام به هذا الوصف ، أى النفاق فى أعقاب الزمن ، فزعم

الايمان ، ولم يؤيد القول ـ بالعمل ، ولم يلتزم ما يفرضه الايمان من التزامات ، أبرزها الكفر بالطاغوت ومجانبة دروبه ، والايمان بمحمد ﷺ ، ايمانا واقعيا ، وتقديم دينه وشرعه وحكمه ، على كل تشريع أو حكم ولم يخالف هوى النفس ونزعاتها ٠

كما قال ﷺ (**لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به**) بل يجب ألاّ يقع فى النفس حرج ، أو امتعاض ، لقضاء قضى به الرسول ﷺ ، أو حكم قرره ، ذلك لأن الله تعالى ، عصمه عن الخطأ فى الحكم ، فلا يحكم إلا بالحق ، ولا يقضى إلا بما يريه الله أنه الصواب عن طريق الوحى كما قال تعالى :

﴿ وما ينطق عن الهوى ان هو الا وحي يوحي ﴾

ومع أنه ﷺ مؤيد بالوحى ، الا أن أحكامه ، لم تكن الا بحسب الظاهر ، والله يتولى السرائر ، صح عنه ﷺ أنه قال (**انما أنا بشر وانكم تختصمون إلىَّ فلعل بعضكم يكون الحن بحجته من بعض ، فمن قضيت له بحق مسلم ، فانما هى قطعة من النار ، فليأخذها أو ليتركها**) وفى ذلك إيماء إلى أن حكم الحاكم ، لا يغير الحقيقة أما حين يكون أمره ﷺ ، أو رأيه فيما يتصل بأمور الدنيا ، فلا يكون ثمة عصمة ، وقد أعلن بذلك ﷺ أصحابه ، لئلا يخلطوا بين الرأى والوحى ، فقال (**إنما أنا بشر وان الظن يخطىء ويصيب ولكن ما قلت لكم قال الله فلن أكذب على الله**) ٠

وفى الآية الكريمة أى قوله تعالى (**فلا وربك لا يؤمنون**) الآية فيها الايماء إلى ابطال القياس مع وجود النص ، فلا يعارض النص ، ولا يخصص بالقياس ، فمن بلغه الحديث الصحيح ، ورده بمخالفة قياسه ، لم يكن مطيعا للرسول ، ولا ممن أذعن الاذعان النفسى الكامل ، الذى يبرهن عن صحة الايمان ، وصدق الله اذ يقول :

﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما ﴾ ٠

الإسلام نظام متكامل

لقد اختلفت نظرة الخلف للاسلام ، عن نظرة سلفهم الكرام ، إذ كانوا يفهمون ، أى السلف عن الاسلام ، أنه منهج للحياة ، بمعنى أنه يجب أن يكون المهيمن ، على كل تصرفات المسلم ، وشعوره ، ونزعاته ، وأفكاره ، وانفعالاته ، واتزانه ، وفى عسره ويسره ، ومنشطه ومكرهه ، تمشيا مع ما جاء به الاسلام ، ولا يكون له الخيرة من أمره بعد أن يقول الاسلام كلمته ، فى أى موضوع يتصل بحياة الانسان ، ذلك لأن الاسلام ، كما يقول أحد العلماء ، عن فهم السلف الاسلام الذى فهمه الرسول ﷺ ، وفهمه عنه أصحابه واتباعه : ـ هو اسلام النفس لله ، هو أن يكون كيان المسلم ، متوجها إلى الله ، هو أن تكون أفكار الانسان ومشاعره ، وسلوكه ، العملى ، محكوما بالدستور الذى أنزله الله ٠

إن الاسلام نظام متكامل ، فكما يشمل العبادات ، يشمل المعاملات ، وسياسة المال والحكم ، والحرب ، والسلم ، وينظم العلاقات ، بين المجموع ، ويقيم عدالة اجتماعية ، تحفظ التوازن ، فى الأمة ، وصدق الله اذ يقول :

﴿ ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شىء ﴾

نقل الحافظ ابن كثير رحمه الله قول الصحابى الجليل ، عبدالله بن مسعود رضى الله عنه حيث يقول : (قد سن لنا فى هذا القرآن علم كل شىء) ثم علق أى ابن كثير بقوله : ـ إن القرآن شمل كل علم نافع ، من خبر ما سبق وعلم ما

سيأتى ، وكل حلال وحرام ، وما الناس محتاجون إليه ، فى أمر دنياهم ودينهم ، ومعاشهم وسعادتهم ٠

أى ومن أجل ذلك ، كان الاسلام الذى اختصه الله بكتابه القرآن ، منهج حياة للبشر ، لا يصح العدول عنه إلى غيره ، ويتحتم على المسلم ، العمل من أجله ، تلك هى نظرة سلف الأمة للاسلام ، أما نظرة الخلف ، فتختلف كثيرا عن نظرة السلف ، انها نظرة سطحية ، يترجم عنها مذاهبهم ، واتجاهاتهم ، وفى نظرهم أن المرء يمكنه أن يكون مسلما بمجرد الانتساب للاسلام ، أو أن تكون عواطفه طيبة ، نحو الاسلام ، ولو لم يلتزم شعائر الاسلام ، أو يكون الاسلام فى نظر بعضهم مظهرا فقط ، وطقوسا دينية ، لا أقل ولا أكثر يمثلها أداء الصلوات ، الاكثار من الابتهالات ، فى وضع صورى كتقليد متوارث لكل من وجد فى بيئة اسلامية ، اما أن يكون الاسلام منهجا للحياة ، يتقيد به المسلم ، ويسير طبق ما يرسمه ، من مناهج ، فى كل مجاله ، فقد اسقطه هذا البعض من حسابه ، يقول بعض العلماء ، فى وصف واقع أصحاب ، هذه النظرة عن الاسلام : ـ لقد بلغ الانحراف فى المجتمع الاسلامى ، أقصى مدى ، حيث وجدت فيه الأفكار الغربية ، التى تقول ما للدين ونظام المجتمع ، ما للدين والاقتصاد ، ما للدين والمرأة ، وبالاختصار ما للدين والواقع الذى يعيشه البشر على الأرض ٠ ويقول البعض : ـ انا مسلم مادمت أصلى وأصوم ، ولكن لا علىّ أن أخذ النظام الاقتصادى من أية فكرة ، على الأرض ، غير إسلامية ٠ أى ومن ثم استبيح تعاطى الربا ، الذى قام عليه الاقتصاد فى بعض المجتمعات الاسلامية ، ويقول أيضا : ـ لا علىَّ أن أخذ أفكارى ، وتقاليدى من أى نظام على الأرض غير مسلم ٠

ومن ثم احتضن البعض الفلسفة الغربية ، وقلدها وسار فى ركابها ، ودعا اليها ، جريا وراء تحقق هذه الفلسفة ، وهى اخذ الأفكار ، والتقاليد من اى نظام على الأرض غير مسلم ، ومن ثمّ أيضا دخلت المبادىء الهدامة وعششت فى بعض

الأفكار بدعوى ان فيها عدالة التوزيع ، والمساواة ، بين الطبقات ، وما اليه • من العبارات البراقة الخادعة التى لا تصور حقيقة ، وهذه النظرة الخاطئة ، هى التى فصلت الحياة عن المنهج الراشد ، المسدد ، منهج الاسلام ، الذى يجب أن يسير عليه المسلم فى حياته ، وان يتقيد به ويعمل له ، إن الاسلام فى الواقع هو الموجه ، والرائد ، والقائد ، فاذا فقد المسلم الموجه ، والرائد ، والقائد ، كان كمن يقطع الطريق فى ظلام دامس ، لايتبين معالمه ، الاسلام هو المشعل الذى ينير الطريق ، فيأمن به السالك من العثار ، والتخبط فى أى مجال يسلكه ، فى حياته ، سواء كان دينيا أم سياسيا ، أم اقتصاديا ، أو غير ذلك من المجالات ، الاسلام هو الحياة ، فلا حياة دون اسلام ، فمن فصل الاسلام عن أن يكون منهجا للحياة ، فليس من الاسلام فى شيء ، إنه ممن اتبع الهوى ، وأعرض عن الهدى ، وممن وصف واقعه رب العزة بقوله :

﴿ فان لم يستجيبوا لك ﴾

أى فيما تدعو إليه من الاسلام ، وجعلته منهجا للحياة ، ومهيمنا على الشعور ، وخلجات النفوس

﴿ فأعلم انما يتبعون اهواءهم ومن اضل ممن اتبع هواه ، بغير هدى من الله إن الله لا يهدى القوم الظالمين ﴾ •

من أجل ذلك كان العمل للاسلام لدعمه ، ونصره ، وإشاعته والدعوة اليه ، والنضال فى سبيله مسؤولية لا يتخلف عنها الا المهازيل ، إذ لا يستقيم الاسلام لأن يكون منهجا للحياة ، الا بالعمل له ، فهو دين ودنيا ، ومصحف فى المحراب ، وسيف فى الميدان ، ولن تستقيم الدنيا الا بالدين ، كما لا تستقيم صلاة العابد فى محرابه ، الا بتلاوة الكتاب ، ولا النضال والجهاد فى ميدان الشرف ، والبطولة ، الا بعتاد ، يكون فصل الخطاب ، فالعمل للاسلام هو الدعامة التى لا تتزعزع وحجر الأساس الذى لا يقتلع سدد الله الخطى •

الإسلام دين السلام

الاسلام هو دين السـلام ، فى مفهومـه ، ومدلولـه ، ينشر الأمـن ويأبـى العدوان ، فحين يلقى المسلم أخاه ، شرع له أن يبدأه بالسلام ، ليبعث فى نفسه الأمن ، والطمأنينـة ، وليشعره أنـه سلـم له ، لاحـرب عليه ، وأن يده التـى تصافحه هى له ومعه ، لا تطعنه من خلفه ، ورسول الاسلام ، محمـد ابن عبدالله ، ﷺ ، هو رسول السلام ، هو الذى رفع راياته ، ودعا اليه ، وحقق أهدافه ، وكان فى طليعة وصاياه ، لامته ، وهو يودعها فى حجة الوداع :ـ (**الا لا ترجعوا بعدى كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض**) والسلام كما يكون من الفرد ، يشيع الأمن ، والطمأنينة ، كذلك يكون من المجمـوع فالمسلمـون فى مختلف أقطار الدنيا ، ومنذ عهد التشريع إلى أن يرث الله الارض ومن عليها ، بمقتضى شريعة الاسلام ، دأبهم إشاعة الأمن والسلام ، لا يثيرون عدوانا ، ولا يريدون فى الارض علوا ، ولا فسادا ، ولقد فتحوا البلاد فى الماضى ، بأخلاقهم ، وحسن معاملتهم ، قبل أن يفتحوها بسيوفهم ، وكثرة عددهم ، ووفرة عدتهم ، وكانوا فى مصاولتهم لاعداء الاسلام ، فى معركة الحق مع الباطل ، اذا لاحت من العدو بادرة الاستسلام أجابوه ، وكفوا عن قتاله حبا فى السـلام ، واستجابـة لتعاليم الاسلام ، حيث يقول رب العزة :

﴿ **وان جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله** ﴾

ولأن مصاولتهم وقتالهم للعدو لم يكن الا لنصرة دين الله ، واعلاء كلمة الله لم يكن قتالهم لجر مغنم ، بعد أن ندّدت شريعة الاسلام ، بمن يجنح إلى ذلك ، وبعد

أن أوضح القرآن للمسلمين قواعد السلم والحرب ، كما قال تعالى :

﴿ يا أيها الذين آمنوا اذا ضربتم فى سبيل الله فتبينوا ﴾

أى تثبتوا .

﴿ ولا تقولوا لمن القى اليكم السلام لست مؤمنا تبتغون عرض الحياة الدنيا فعند الله مغانم كثيرة ﴾

ولم يكن قتالهم لمجرد اذلال العباد ، فهم بوعيهم المتفتح يدركون أن ذلك من الافساد فى الارض • كما قال تعالى :

﴿ تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوّا فى الأرض ولافسادا والعاقبة للمتقين ﴾

ولم يكن للانتقام والتشفى ، والعدوان ، كصنيع اسرائيل فى الحاضر ، كما حذر رب العزة من ذلك فقال :

﴿ ولايجرمنكم شنئآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام ان تعتدوا وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان ﴾ .

ولذلك عندما نزحوا عن البلاد التى فتحوها وكان نزوحهم لظروف قاهرة بكاهم أهلها وتمنوا عودتهم إليها اذ عاشوا مع المسلمين ، فى ظلال عدالة الاسلام آمنين على أنفسهم وأموالهم ، وشرائعهم لم يغيروا عليهم فيها ، بعد أن أصبحوا فى ذمة المسلمين ، مما يقرر عن واقع ، أن دين الإسلام هو بحق دين السلام والسلام لايغيره تتابع الزمان ولا يفسد بنوده تقادم العهد وتقلبات الأيام ، وتنوع الحكام ، فهو دين يسير عليه اللاحق ، كما سار عليه السابق ، فكل مخطط يسير على غير هذا الوضع الذى قرره الاسلام ، من إشاعة الأمن ، فهو مخطط لايتفق مع دين الاسلام ، وكل فريق من الناس ينتهج مناهج الطغيان ، مما يثير الذعر ويقضى على الأمن ، الذى قرره الاسلام ، تجب مقاومته ، والحدّ من

طغيانه ، والتضامن على قمعه ، جريا على المخطط الاسلامى ، فى إشاعة الأمن والسلام ، فكل مدّ استعمارى أو اسرائيلى فى أى لون وبأى وسيلة وفى أى بقعة أو قطر من أقطار الاسلام يجب على المسلمين جيمعا ، الوقـوف فى وجهـه ، درءا لخطره ، ودفاعا عن حوزة الاسلام ، وكل عدوان اسرائيلى ، يجب الاّ يستنيم المسلمون ، ويغمضوا أجفانهم عنه ، استسلاما للأمر الواقع ، بل يجب أن يصدوا العدوان ، ويردّوا الطغيان ، لقوله تعالى حافزا همـم المؤمنـين ، لمنازلـة أعـداء الاسلام ، واعدًا بالنصر عليهم ، رافعا من معنوياتهم :

﴿ فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون والله معـكم ولن يتركم أعمالكم ﴾

يقول أحد علماء الاسلام ، تعليقـا على هذه الآية الكريمـة : ـ إن السلـم فى الاسلام ، لا يكون الا عن قوة واقتدار ولذلك لم يجعله الله مطلقا ، بل قيده بشرط أن يكف العدو عن العدوان ، وبشرط الاّ يبقى ظلم فى الأرض ، والاّ يفتن احد فى دينه ، فاذا وجد أحد هذه الأسباب فقد اذن الله فى القتـال ، وهـذا القتال ،وهو الذى تسترخص فيه الأنفس ويضحى فيه بالمهج والأرواح ، انه لا يوجد دين من الأديان دفع بأهله إلى خوض غمرات الحروب ، وقذف بهم إلى ساحات القتال فى سبيل الله ، وفى سبيل الحق وفى سبيل المستضعفين ومن أجل الحياة الكريمة إلا الاسلام • ومن استعرض الآيات القرآنية والسيرة العملية ، لرسول الله ﷺ وخلفائه من بعده يرى ذلك واضحا ، فالله سبحانه ينتدب هذه الأمة ، الى بذل اقصى ما فى وسعها ، فيقول (**وجاهدوا فى الله حق جهاده**) وبعد ، فما اروع أن تلتقى صفوف المسلمين ، على صعيد المعركة لرفع راية الجهاد المقدس ، وقتال اليهود ، تمشيا مع تخطيط الاسلام ، ودفاعا عن الحوزة ، سدد الله الخطى •

الإسلام دين العقل

يقول أحد فلاسفة الاسلام ، فى وصف واقع البشرية ، المتعطشة إلى منقذ لها ، من متاهات الباطل : ـ ابان طلوع فجر الاسلام كانت الأمم تطلب عقلا فى دين ، فوافاها ، وتتطلع إلى عدل فأتاها · أجل ، ذلك هو واقع البشرية ، فى فترة الظلمة ، عندما غشيت الحق غواشى الباطل ، وطمست أعلامه ، والتبست الأمور على الناس ، فلم يعد للعقول مجال للتفكر ، والتدبر ، فجاء الاسلام ، يبشر بالانطلاقة من القيود ، ويحرر العقول من ربقة التقليد الأعمى ، وعوائد الأسلاف ، وتقاليدهم ، وصار العقل بعد هذه الانطلاقة هو الرائد والقائد الى العدل فى ظل الإسلام · فالاسلام دين العقل ، وكم عاب على الجاهليين ، عقلهم للعقول ، وندد بسوء صنيعهم فى تتبع آثار من ضل عن منهج الهدى ، واتبع الهوى ، وكان أمره فرطا ، وأخذ فى مسالك المنحرفين ، على غير برهان أو حقيقة مشرقة البيان ، كما قال تعالى فى سورة البقرة : ـ

﴿ واذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله ، قالوا بل نتبع ما الفينا عليه آباءنا ﴾

ويسفه سبحانه هذا الرأى ويرد عليهم بقوله :

﴿ أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون ﴾

قال ابن كثير رحمه الله : أى يتبعونهم ويقتدون بهم ويقتفون أثرهم ، وهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون ، أى ليس لهم فهم ولا هداية ·

وذلك أبرز مظاهر فساد التصور، والتقليد الأعمى، وعقل العقول، عما خلقت له من التفكر، والتدبر، ولقد تناقل هذه المقالة والتقليد الأمم المنحرفة عن الجادة كما قال تعالى :

﴿ وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير الا قال مترفوها، إنا وجدنا آباءنا على أمة ﴾

أى على دين

﴿ وإنا على آثارهم مقتدون ﴾

ولامعانهم فى التقليد دون وعى رفضوا الحق عندما خاطبهم الرسول بمنطق العقل، كما قال تعالى :

﴿ قال أولو جئتكم باهدى مما وجدتم عليه آباءكم قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون ﴾

وكم جنى التقليد الأعمى على محتضنى فكرته فأوردهم المهالك .

والاسلام اذ ينعى على المقلدين، ويسفه احلامهم، ويشبههم بالعجماوات، التى لا تعقل كقوله تعالى :

﴿ ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والانس لهم قلوب لا يفقهون بها ﴾

أى عقول لا ينتفعون بها وفى نهاية الآية يقول :

﴿ أولئك كالأنعام بل هم أضل ﴾

أقول : ـ الاسلام اذ ينعى على المقلدين يشيد بأرباب النهى الذين يقطعون أشواط الحياة فى بصيرة من أمرهم، وملاحظة لسنن الله الكونية، وآياته العظيمة، وأثار وحدانيته، وقدرته، وسلطانه، وحكمته فيقول :

﴿ إن فى ذلك لآيات لأولى النهى ﴾

بعد أن ذكر قصة موسى وفرعون فى سورة طه، وما كان بين موسى وهارون من

الحوار مع فرعون والذى عرضنا فيه لقدرة الله العظيمة فى تمهيد الأرض واشتراع السبل فيها ، وانزال المطر من السماء ، واخراج النبات اصنافا كثيرة ، يأكل منه الناس ، وترعى الأنعام ، كل ذلك أورداه ، كبراهين على وحدانية الله ، وتفرده بالربوبية ، ثم أعقب سبحانه ذلك بقوله :

﴿ إن فى ذلك لآيات لأولى النهى ﴾

أى دلالات وبراهين لذوى العقول السليمة المستقيمة ، وكم أية فى كتاب الله يوجه سبحانه النظر فيها لأرباب العقول المستقيمة ، للتدبر والتفكير ، وامعان النظر ، كقوله تعالى فى سورة الروم بعد تعداد نعمه والامتنان بها على خلقه

﴿ ومن آياته يريكم البرق خوفا وطمعا وينزل من السماء ماء فيحيى به الأرض بعد موتها ان فى ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾

وختم غير هذه الآية فى مواضع كثيرة من القرآن بقوله :

﴿ لقوم يتذكرون ·· لقوم يتفكرون ﴾

الأمر الذى يوحى بتقدير العقل والعقلاء ، والتوجيه إلى الانتفاع بالعقل ، وخاصة فى النظر والاستدلال ، وتقدير العواقب ، وأخذ العبرة من مصير الهالكين ، لئلا يصيب المرء ما أصابهم ، لو اتخذ التقليد ديدنا ، وتكبيل العقل منهاجا فلا بدع إن كان الاسلام دين العقل والمنطق ، إلى جانب انه دين الفطرة التى فطر الله البشر عليها ، كما قال تعالى :

﴿ فأقم وجهك للدين حنيفا ، فطرة الله التى فطر الناس عليها ﴾

أى خلق الناس عليها ، وهو تفسير لابن عباس رضى الله عنهما ، وجماعة من مفسرى السلف يقولون : ان المراد بالفطرة الدين ، وهو الاسلام يؤيده الحديث المروى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ **(كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تنتج البهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء)** ·

ثم يقول : (**فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله**) أى لدين الله (**ذلك الدين القيم**) وفى حديث آخر عن ربه (**إنى خلقت عبادى حنفاء فاجتالتهم الشياطين عن دينهم**) أى حولتهم عنه إلى الضلال فى مختلف دروبه ، وخاصة فى أعقاب الزمن ، عندما بعد الناس كثيرا عن عصور النور ، وظهرت فيهم الأهواء وزهد الكثيرون فى العلم الشرعى ، وانصرفوا إلى غيره من علوم الحياة ، بدعوى تأمين المستقبل ، وتألق النجم فى المجتمع ، فلم تجد الشبه التى يلقيها خصوم الاسلام على الاسلام ، للنيل منه وابرازه فى شكل طقوس دينية تؤدى لا صلة لها بالحياة ، وغير ذلك لم تجد الشبه والطعون الحاقدة طلبة متضلعين الاّ الندرة ممن يستطيع الرد والدفاع عن الاسلام ، وتبرئته مما نسب إليه خصومه ، وتبعا لذلك ، سار الدهماء ، خلف كل ناعق ، بمبدأ ، أو رافع لشعار ، بدعوى ان هذه المبادىء والشعارات لا تختلف عن الاسلام ، وكان ذلك من اجتيال الشياطين للخلق ، عن دين الله ، والفطرة التى فطر الله الناس عليها ، والملة التى ارتضاها الله لعباده ، ولا يقبل من أحد دينا سواها ، وهى الاسلام كما سبق فى الآية السابقة

﴿ إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن الا وأنتم مسلمون ﴾

وليست اليهودية والمجوسية والنصرانية ، الا مثلا للانحرافات والتحولات التى ينحرف ويتحول إليها الناس عن دين الحق دين الاسلام ، نسأل الله الثبات عليه وعدم الحيدة عنه والله الموفق ٠

طابع الإسلام : رفع الحرج عن الأمة

الطابع الذى يتسم به الدين الاسلامى ، هو السماحة ، ورفع الحرج عن الأمة والاغلال والآصار عن كاهلها ، ليقطع بذلك ألسنة المعاذير ولئلا يترك مجالا لمتنطع ، ان يكبل نفسه بالاغلال ، أو يحجر واسعا ، أو يضيق ما فيه رخصة فى الدين ، تفضل بها على العباد رب العالمين ، يقول تعالى :

﴿ ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ﴾

وقد جاءت الآية فى أعقاب هداية القرآن ، إلى أحكام التطهر الحسي من الحدث الأصغر والأكبر ، وبعد مشروعية التيمم عند تعذر استعمال الماء أو فقده إمعانا فى اليسر ، ودفع الحرج ، وإشعارا بوجود الرخصة عند المشقة ، ولئن كان ورود الآية عقب هذه الأحكام يشعر بالقيد وعدم الإطلاق وان رفع الحرج مقصور على الأحكام الواردة فيها إلا أنها فى واقعها عامة لكل احكام الدين وتعاليمه يؤيد ذلك الآية الأخرى ، فى سورة الحج ، وهى قوله تعالى :

﴿ وجاهدوا فى الله حق جهاده ، هو اجتباكم وما جعل عليكم فى الدين من حرج)

فهى رافعة للقيد الذى يتبادر فى هذه الآية ، فكلتاهما تلمس من المسلم وجدانه ، وتشعره بفضل الله عليه ، ورحمته به ، حيث جعل له طريق السعادة ، ممهدًا لا يرهقه سلوكه ، أو يحمّله من أمره عسرا ، كما كان الحال مع بنى اسرائيل ، حيث كان فى شريعتهم ، الآصار والاغلال فاثقلت منهم الكواهل وقد يتساءل

البعض ، عن السبب فى جعل طابع الشريعة الاسلامية ، رفع الحرج عن الأمة ، والأخذ بها فى طريق اليسر والسماحة ، والجواب على ذلك واضح ، من مجموع ما ورد فى فضل هذه الأمة المحمدية المرحومة ، ومن جعلها امة وسطا كما قال تعالى :

﴿ وكذلك جعلناكم امة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا ﴾

والوسط الخيار فرسول هذه الأمة من أوسط العرب نسباً ، ودارًا ، أى خيرها وأشرفها ، والصلاة الوسطى هى أفضل الصلوات ، وهذه الأمة وسط بين الأمم ، أى خيار ، ولذا خصها الله بأكمل الشرائع ، وأقوم المناهج ، ورفع الحرج عنها ، يتناسب مع فضلها ، وعدل شريعتها ، وعموم رسالة نبيها ،، ﷺ ، فرسالته خاتمة الرسالات ، وهى صالحة لكل زمان ومكان ، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، وهو خير الوارثين ، ولم يكن التأثير لشخصية الرسول ﷺ مقصورا على فترة حياته ، بل ان القدوة به ، والأسوة فى سيرته ، ما برحت قائمة حتى قيام الساعة ، وظهور الاسلام على سائر الأديان مقطوع به ، كما قال تعالى :

﴿ هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ﴾

ومن ثم كانت رسالة الاسلام ، كما قلنا صالحة لكل زمان ومكان ، ويعمل بها المتمدين فى أوج حضارته ، ويعمل بها البدوى فى أعنف ادوار بداوته ، الكل منهما ، يسير فى نهج موحد ، لا تختلف فيه الطرق ، او تلتوى المسالك ، منهج رفع الله فيه الحرج عن الأمة ، ويسر لها أتباعه ، ومن أمثلة رفع الحرج عن الأمة ، اباحة التيمم للمريض ، واباحة الفطر وقصر الصلاة للمسافر ، وسقوط الصلاة عن الحائض والنفساء ، واباحة سد الرمق من لحم الميتة ، وغير ذلك ، مما يدخل فى اطار اليسر ، ويكون به رفع الحرج عن الأمة ، فيجب المصير اليه ، أخذا برخصة الله ، وتجافيا عن الحرج والعنت ، وتلك قاعدة عامة ، وأصل

يتفرع عنه فروع فى العبادات والمعاملات ، كلها تدور حول رفع الحرج عن الأمة ، والأخذ بها فى طريق اليسر ، كما قال تعالى :

﴿ يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ﴾

غير ان تحديد المشقة والعسر ، يحتاج إلى ضابط ، فليس كل جهد وإن كان فى المستطاع تأديته ، وليس كل مرض يبيح الأخذ بالرخصة فى الفطر مثلا ، وليس كل جوع يرخص معه فى أكل الميتة ، فجهد العامل فى نهار الصوم ، أو الوعكة العابرة المحتملة والجوع المؤقت لظرف طارىء ليس كل ذلك يعتبر عسرا وحرجا يتطلب الرفع والأخذ بالرخصة ، وإنما الحرج الذى رفعه الدين عن الأمة ، والعسر الذى أباح معه الأخذ بالرخصة مما لم يرد له مثيل فيما نص عليه الشرع ، يتحدد أو يتعين ، بتقريبه من قواعد الشرع ، فمثلا ورد فى الشرع : أن التأذى فى الحج بهوام الرأس ، يبيح الحلق ، كما جاء فى حديث كعب بن عجرة أن رسول الله ﷺ قال له :(أيؤذيك هوام رأسك ؟ قال : نعم فأمره بالحلق مع الفدية) فكل مرض يؤذى مثله ، وأعلى منه ، فهو حرج ، يبيح الأخذ بالرخصة ، وكذلك السفر يبيح الفطر لما فيه من مشقة ، فكل مشقة من نوعه تعتبر حرجا ، يتطلب الأخذ بالرخصة ، وهكذا كل حرج أو عسر يتعين بنص أو اجماع أو قياس ٠

ويرى البعض من العلماء ، أن تحديد الحرج والعسر يترك للعرف ، وأن الرجوع إلى العرف لايعرف إلا بمعاشرة الناس ، وتعرف شؤونهم وأحوالهم ، وان ما ذكر من تقريب الأعذار إلى ما جاء فيه النص ملحق بما لا نص فيه ولا عرف ، مما يقع للأفراد ، فيستفتون فيه ، والرأى الأول أضمن للمصلحة الدينية ، وأحكم لأن العرف يختلف باختلاف الأوساط والمجتمعات ، فلا يكون ضابطا لتحديد العذر الذى تتعين به المشقة ٠

وجماع القول ، ومداره على اللمسة الوجدانية ، التى تمتلك على المسلم أحاسيسه ، وتوجهه إلى الله الرحيم به ، الكريم الذى يربى عباده بالتشريع ، كما يربيهم بالنعم ، فيشرع لهم من الشرائع ، ويجعل لهم من الرخص ما يربى فيهم

الشعور ، ويغرس فيهم حب الطاعة ، والأخذ فى الطريق المرسوم ليصلوا إلى أكرم غاية ٠

أما بعد ، فان مزايا الدين الاسلامى ومقاصده وأهدافه ، لتأخذ بالبشرية ، إلى مدارج الكمال ، التى تحقق لها العزة والرفعة ، والخلافة فى الأرض ، وبقدر الأخذ بهذا الدين ، والتقيد بتعاليمه ، فى كل مجال ، وتطبيقها ، والتمشى مع سماحته ويسره ، والتجافى عن الأغلال والآصار ، بقدر ذلك كله ، تحقق البشرية الواقع الاسلامى ، وترفع معالم الحنيفية ، وصدق الله اذ يقول :

﴿ هو اجتباكم وما جعل عليكم فى الدين من حرج ملة أبيكم ابراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفى هذا ليكون الرسول شهيدا عليكم وتكونوا شهداء على الناس ﴾ ٠

***

إقامة الحدود : صمام الأمان

إن جلال الدين الاسلامى ، وروعته ، تظهر بوضوح فى دراسته متكاملا ، بأحكامه وحدوده ، وآدابه ، وفضائله وتكملاته ، وضماناته ، أما النظر إلى كل جزء من جزئياته ، منفصلا عن المجموع فقد لا يعطى الصورة الواضحة المقصودة منه ، ومن ثم كان نقد خصوم الاسلام ، لاقامة الحـدود الشرعية ، واعتبارهـا قاسية ، أو رجعية لا تتفق مع روح العصر ، كان نقدهم عن جهل ، وقصور بمعرفة أهداف الدين ناشئاً عن دراسة مبتورة ، أو نظرة مغرضة ، وقديما نقد بعض الفلاسفة حدّ القطع فى السرقة ، ونظم بذلك شعرا وكأنه يلوح بعدم العدل فى الحكم فرد عليه أحد العلماء بما معناه : ـ فى باب الجنايات ، تعظم قيمة اليد فتبلغ خمسمائة دينار ، لئلا تصبح عرضة للاعتداء ، أو الجناية عليها ، وفى باب السرقة عندما تعتدى اليد على حق الغير ، فتسلبه اياه ، ناسب أن يكون القدر الذى تقطع فيه ربع دينار ، حفظا لأموال الناس ، من ان تمتد إليها الأيدى بالسرقة ، وذلك عين الحكمة .

وقد أوضح رب العزة أن هذا الجزاء الصارم ، ماهو الا نتيجة لما اكتسب الجانى ، لاجور فيه ، ولا إجحاف قال تعالى :

﴿ والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله ﴾ .

ولو تتبعنا قضايا الدين وأحكامه وتشريعاته لوجدناه الدين الخالد بحق ،

الصالح لكل زمان ومكان ، وان الحدود التى شرعت ، وقدرت بنسبة الجرم ، وإن كان فيها من الصرامة ، ما عبر عنه خصوم الاسلام بالشدة ، والقسوة ، ماهى الا صمام الأمان بالنسبة للمجموع تحمى سياجه ، وتصون أفراده ، وتجعل حق الحياة وما تتطلبه من ضرورات متوفرا للجميع ، وهو أى الاسلام ، دين العدالة ، يترجم عن ذلك ، تقدير العقوبات ، على قدر الجرم ، دون تعد أو جناية ، كما أوضح رب العزة فى آية استيفاء القصاص من القاتل حيث يقول :

﴿ ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا فلا يسرف فى القتل ﴾

أى لا يتجاوز القصاص إلى المثلة ـ أو يقتص من غير القاتل ، كما هى سنة الجاهليين ، ولو نظرنا إلى عدالة الاسلام من زاوية أخرى لالفينا تأثير العقوبة ووقعها على الآثم قد قدرت بنسبة اللذة والمتعة الحاصلة للنفس ، فمثلا عقوبة الجلد لشارب الخمر ، والزانى غير المحصن شمل الألم بها جميع البدن لأن اللذة كانت شاملة غامرة له .

وحد القطع فى السرقة ، قدر بنسبة الشهوة ، والرغبة الملحة ، فى الاستحواذ على حق الغير والتكثر به ، فكان تأثير العقوبة منصبا على العضو الذى باشر به السرقة ، أو ساعد على التمكين منها ، كقطع الرجل اليسرى اذا سرق فى الثالثة ، وكل ذلك عدل فى تقدير العقوبة ، وليحد من النزوات والتصرفات الطائشة ، ويحفظ سلامة المجموع وحسبنا فى ذلك قول العليم الخبير : ـ

﴿ ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب لعلكم تتقون ﴾ .

وإن من أبرز الأدلة الواقعية التى لايمكن أن يجحدها الا مكابر فى المحسوس كثرة الجرائم فى البلاد التى تتخذ من القوانين الوضعية أساسا للحكم ، فكم روت الصحف من أخبار القتل والسطو والاعتداء على الأموال والأعراض الشىء الكثير ، وكان ولايزال العقلاء من المسلمين يشيدون بهذه

المملكة العزيزة بعز الاسلام لاقامتها حدود الله ، ولتنفيذها شرعه ، ومن عدالة الاسلام فى إقامة الحدود أيضا ، أن يجعل الناس فى اقامتها سواسية ، بحيث تقام على العظيم والصعلوك ، والوجيه والرجل العادى ، والذكر والأنثى ، على حد سواء ، لا كما كانت تصنع بنو إسرائيل ، حيث كانوا إذا ارتكب فيهم الشريف إثما تركوه ، دون أن يقيموا عليه الحد ، وإذا جنى الوضيع ، استقادوا منه ، وقد امتدح الله سبحانه ، الأمة الاسلامية فى محكم كتابه واثنى عليها بقوله :

﴿ كنتم خير امة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ﴾

وإقامة الحدود الشرعية والتمسك بها ، وعدم الهوادة فى تنفيذها ، تأثرا بوساطة الوسطاء وشفاعة الشفعاء هو العامل لتفضيل هذه الأمة ، والاشادة بها ، وترجيح كفتها ، فلو حادت عن هذا السبيل فقدت ميزتها ، ولو تقاعست عن إقامة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، واختلت فيها معايير الايمان بالله ، واذا ابتلى بعض أفرادها بالتشكيك فى الدين ، أو الالحاد وتأليه المادة عندئذ لم يبال الله بها ، وكان الشأن معها كالسابق من الأمم ، حين استبدلوا المعصية بالطاعة ، وسلكوا مسالك الهالكين ، قال تعالى :

﴿ إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾

نسأل الله ألاّ يغير علينا نعمه ، وأن يجعلنا خير خلف لخير سلف نقيم حدود الله ونأمر بالمعروف وننهى عن المنكر ، ونؤمن بالله ايمانا لا يتطرق إليه الشك .

شرطان لكسب معركة المصير

حفز الهمم ، وشحذ العزائم ، وبعث المعنوية فى النفوس ، علاج يرشد إليه الاسلام ، لما لعله أن يعترى النفوس من الوهن ، والأسى نتيجة للاصابة بالإخفاق والفشل ، وخيبة الأمل فى أى محاولة للمسلم فى حياته ، على أن الفشل طريق النجاح ، اذا تغلب عليه المرء بقوة الإيمان ، والصبر والثبات ، وبدء الأشواط من جديد وبعدم التهيب من تكرار الخطأ والأخذ بالحزم والعزم ، فكم من مشروع حيوى صادفه الفشل فى أولى خطواته ، وبعد اعادة الكرة فيه ، وتصحيح الأخطاء أثمر الثمار المرجوة ، وكان من ورائه الفائدة للمجموع ، ولذلك كثيرا ما يبعث الاسلام الروح المعنوية فى المسلمين ، ويحفز هممهم ويشحذ فيهم العزائم للأخذ بالحزم والعزم فيما يعود على المجموعة الإسلامية بالفلاح والنجاح ، وكسب الوقت لصالحها ، دون إكتراث بما يعترض طريقها من متاعب ومصاعب ، فالظفر بالمرغوب ، والحصول على المطلوب ، لا يظفر به الكادح الا بتضحيات ومغامرات ، وركوب أخطار لا بافتراش الورود ، وشمّ الرياحين • وفى المتاعب ، والسير على الاشواك ، تربية وترويض لنفسية المسلم ، على احتمال المكاره ، واختبار مدى صبره ، وقيامه بالمسؤوليه الملقاة عليه ، كفرد فى المجموعة الاسلامية ، من واجبه الذود عن حياض الاسلام ، والاّ يؤتى المسلمون من قبله ، يصور هذا الاتجاه عمليا ، ما أصاب المسلمين فى الماضى من الهزيمة والفشل فى طلب النصر ، وما منوا به من القتل والقروح ، وكسر المعنوية وإشاعة الفوضى فى صفوفهم ، إذ أشيع قتل الرسول ﷺ ففت ذلك فى عضد البعض

منهم وكان له رد فعل سيء فى نفوسهم فواسى القرآن جراحهم ، ورفع من معنويتهم ، وعالج الوهن الذى منى به البعض منهم ، بالبشارة الكريمة ، والوعد الصادق ، من الرب العظيم ، بأن للمسلمين العاقبة ، والنصر المؤزر فالبقاء للأصلح ، وإن غشيتهم غاشية الهزيمة ، واطرحوا فى هجير المعركة ، وقتل منهم من قتل ، ففى ذلك تربية لنفوسهم وصقل لجوهرها ، وترويض على المحن ، التى لا يسلم منها من عاش على الغبراء كما قال تعالى :

﴿ الم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ـ ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين ﴾ .

وعدا ذلك ، ففى الابتلاء بالمحن ، تمحيص للمؤمنين ، ورفع لدرجات الصالحين ، الصادقين فى جهادهم ، وكشف لحقيقة المنافقين ، وأهل الزيف ، ومحق للكافرين ، قال تعالى فى رفع معنوية المؤمنين ، والبشارة لهم بحسن العقبى :

﴿ ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون ، إن كنتم مؤمنين ، إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله ، وتلك الأيام نداولها بين الناس ﴾ .

﴿ وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء ، والله لا يحب الظالمين ! وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين ﴾

وإن النصر لمن يأخذ بأسبابه من المؤمنين ، ويقوم ذائدا عن دين الله وشرعه ، ولاعلاء كلمته ، هو وعد صادق لن يتخلف ، كما قال تعالى :

﴿ وكان حقا علينا نصر المؤمنين ﴾

غير ان لاحراز النصر عدا إعداد العدة ، واخلاص النية فى الجهاد ، شرطين أساسيين ، لا مندوحة عن تحقيقهما ، والأخذ بهما كخطوة فى طريق النصر .

الشرط الأول : استصلاح النفوس والأخذ بهـا فى مجـالات الاستقامـة ، ودروب الفضيلة ، والبعد بها عن المهابط ومنعطفات الرذيلة ، لأن الاسفاف والبعد عن الله ، ومحادته ، وانتهاك حرماته ، والمجاهرة بمعاصيه ، سبب للخذلان وعامل على تسلّيط العدو على ديار الاسلام ، يسوم أهلها الخسف ، ويذيقهم البـأس والشدة ، والأمثلة على ذلك لا يستوعبها الحصر ، ونحن فى غنية عن إيراد شيء منها ، بعد أن أوضح الله فى كتابه ، أن شرط احراز النصر يتوقف على الاستقامة على نهج الهدى وسلوك سبل الطاعة ، كما قال تعالى :

﴿ إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم ﴾

ونصر الله بنصر دينه ، لا بالزعم ، ولكن بالعمل ، واجتناب معصيته ، وما حذر ونهى عنه ، فاذا لم يتوفر الشرط ، تخلف المشروط ، وذلك أمر بديهى ، لا يطلب ضرب الأمثال والمزيد من البسط ٠

الشرط الثانـى : وجـود القيادة الصالحـة المصلحـة ، الراشـدة القـوية ، الطاهرة ، النظيفة المؤمنة ، فهى ركن من أركان النصر ودعامة لاحرازه ، وقديما قيل : ـ المسلمون الى خير ، ولكن الضعف فى القيادة أو عدم نزاهتها واخلاصها فى القيام بالمسؤولية الملقاة عليها داء عضال ، لا يقتصر ضرره على شخصية القائد ، بل يشمل أمورًا واعتبارات ، من شأنها ان تضعف القيادة ، وتقضى على هيبتها ونفوذها ، وتشجع على التطاول عليهـا ، وحسبنـا ان تضرب الأمثـال للقيادة ، الراشدة ، الصالحة ، المصلحة ، بحماة الاسلام ، فى عصورهم الذهبية ، حين كان هدف القائد التضحية فى سبيل الواجب ، والتفانى فى كسب المعركة لاعزاز الاسلام ، ومدّ رواقـه ، ولا نذهـب بعيدا فى ضرب الأمثـال ، للقـادة المخلصين فالقائد الاسلامى ، البطل ، صلاح الدين الايوبى هو المثل للقائد الصالح المصلح ، فى دينه ، وخلقه ، وورعـه ، وزهـده ، وببـركة استقامتـه ، واخلاصه فى جهاده ولنصرة دين الله مكنه الله من استرجاع بيت المقدس ، من

أيدى الصليبيين ، واعز الله به الاسلام بعد أن غشيته غاشية الباطل ، ومتى حقق المسلمون هذين الشرطين ، نصر الله بنصر دينه ، واتباع شريعته واتخاذ قيادة موحدة ، راشدة مرشدة ، قوية أمينة ، نظيفة مؤمنة صادقة ، بالاضافة إلى الأخذ بالأسباب المشروعة ، للقاء العدو من عتاد وعدة ، كتب الله لهم النصر المؤزر ، الذى كتبه لسلفهم ، وأنجز لهم وعده في إستخلافهم فى الأرض ، وصدق الله اذ يقول :

﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنّهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكننّ لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم آمنا ﴾ .

❋❋❋

من الواقع الاسلامي

فى مرويات التاريخ الإسلامى ، أن المغيرة بن شعبة رضى الله عنه ، دخل على رستم ، قائد الفرس ، بطلب منه ، فسأله عن حقيقة الإسلام ، فرد عليه المغيرة رضى الله عنه بقوله : (أما عموده الذى لايصلح شىء منه الآبه فشهادة أن لا اله الا الله ، وأن محمدا رسول الله ، والإقرار بما جاء به من عند الله) واستمر الحديث بين رستم والمغيرة ، على ما سيأتى ، ويطيب لنا ، ونحن نكتب حديثا دينيا ، أن نقف عند كل فقرة ، أو كل سؤال وجوابه ، لنستشفّ من وراء ذلك أهداف الاسلام من دعوته ، أو الحقيقة الواضحة عن الاسلام ، وأنه لم يكن سوى مثل كريمة ، يدفع المنصف إلى قبوله ، والتجاوب مع ما يدعو إليه ، والاستجابة لتعاليمه ، عن اقتناع بمنطقية ما يدعو إليه .

وليس من شك ، أن من المعروف المألوف ، الذى يتلقاه الطلبة منذ نعومة أظافرهم ، فى مدارسهم عن مفهوم الشهادتين : أن شهادة أن لا اله الا الله ، تدعو إلى نفى تأليه غير الله ، واثبات الالوهية لله وحده ، جل جلاله ، وأن مفهوم شهادة أن محمدًا رسول الله ، الإقرار للرسول ﷺ بالرسالة ، وبما يفرضه ذلك من الطاعة ، فى الأمر والتصديق فى الأخبار التى جاء بها عن الله ، والزجر عن كل ما نهى عنه ، غير أن لبعض العلماء رحمهم الله فهما مركزا اذ يجعل الشهادتين قاعدة للاسلام بمعنى أنه يتركز فيهما كل مقومات الايمان وأركان الاسلام ، ونورد هنا نص قوله ، للمزيد من الايضاح ، يقول : انما تقوم أى مقومات الايمان وأركان الاسلام على قاعدة العبودية لله وحده ، كما أن المرجع فيها كلها ، هو ما بلغه لنا

رسول الله ﷺ عن ربه ، فليس عبدًا لله وحده ، من يقوم بالشعائر التعبدية لأحد غير الله معه ، أو من دونه ، وليس عبدًا لله وحده ، من يتلقى الشرائع القانونية ، من أحد سوى الله عن الطريق الذى بلغنا الله به (يقصد بالشرائع القانونية) أنظمة الاسلام وتعاليمه فى الحلال والحرام والمعاملات وكل التوجيهات الاسلامية ، وهو مفهوم مستوحى من معنى العبودية الكامل الشامل ، التى تعبد الله بها العباد ، وجعلها خالصة له ٠

ثم استزاد رستم المغيرة رضى الله عنه ، من أهداف الاسلام وحقيقته ، فقال له أى المغيرة : (واخراج العباد من عبادة غير الله الى عبادة الله) وعبادة العباد تتسع فيها الأبعاد ، ولذلك تعددت الطواغيت ، وأصبح فى البشر ، طواغيت تعبد من دون الله ، اذ تشرع تشريعات ، لم تكن على شرع الله ودينه ، بل مناهضة له ، كما قال تعالى :

﴿ ام لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله ﴾

والتشريع حق لله وحده ، فهوسبحانه ، يشرع من الشرائع ما يعلم أن فيه للعباد هدايتهم ، أما الطواغيت ، فتشرع تشريعات ، تحل بها ما حرم الله ، وتحرم ما أحل الله ، كما جاء فى قصة إسلام عدى بن حاتم ، قال : انتهيت إلى رسول الله ﷺ وهو يقرأ (**اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله**) حتى فرغ منها فقلت : إنّا لسنا نعبدهم ، فقال أى الرسول ﷺ (أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه ويحلون ما حرم الله فتحلونه ؟) قلت : بلى ٠ قال (فتلك عبادتهم) أى كانت عبادتهم للأحبار والرهبان فى التشريع ، والحكم بغير ما أنزل الله ، يقول أحد العلماء ، فى طبيعة الدعوة إلى الله : إنها تستهدف إسلام العباد لرب العباد ، وإخراجهم من عبادة العباد ، إلى عبادة الله وحده ، باخراجهم من السلطان فى حاكميتهم ، وشرائعهم وتقاليدهم إلى سلطان الله وحاكميته وشريعته وحده ، فى كل شأن من شؤون الحياة ٠

ولذلك جعل الاسلام التحاكم إلى الطواغيت ، وتشريعات البشر ، ينافى

الايمان ، كما قال تعالى :

﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لايجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما ﴾ ·

وجاءت الدعوة شاملة لعبادة الله وحده ، وعدم اتخاذ الشركاء له ، وعدم اتخاذ الناس بعضهم لبعض أربابا ، كما فى قوله تعالى :

﴿ قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألاَّ نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله ﴾

قال غير واحد من مفسرى السلف : أى لا يطع بعضنا فى معصية الله ، بما فى ذلك إحلال الحرام ، وتحريم الحلال ، ووضع التشريعات والتحاكم إليها ، دون التحاكم إلى شرع الله ، بقى من حوار رستم للمغيرة رضى الله عنه أمران أو مسألتان ·

وأولهما : قول المغيرة (الناس بنو آدم ، فهم إخوة لأب وأم) أى وذلك مما يدعو إلى التطامن ، وعدم التعالى ، بالحسب أو النسب ، أو المال ، أو الجاه ، أو بأى آمر آخر ، مما يتفاضل فيه الناس ، أو البعض منهم ، فى دنياهم ، فلقد جمع الاسلام بين بلال الحبشى ، وصهيب الرومى وغيرهما من المسلمين من بقية الأجناس ، إلى قيام الساعة ، وبين أبى بكر وعمر رضى الله عنهما -

الأمر الثانى : قول رستم للمغيرة (أرأيت إن دخلنا فى دينكم ، أترجعون عن بلادنا ؟) قال المغيرة (أى والله ، ثم لانقرب بلادكم ، الا فى تجارة أو حاجة) وذلك مما يوحى بوضوح ، أن الفتوحات الاسلامية لم تكن إلا لغرض نشر الدعوة ، أو كما قال المغيرة ، فى أول حديثه ، لاخراج العباد إلى عبادة الله ، فقط ، فمتى تحققت هذه الغاية ، أصبح كل الناس ، إخوة فى دين الله ، فلا داعى إذن أن يفرض الأخ على أخيه نفوذه ، أو يحرص على استلاب حقه ،

فذلك ظلم فى شرعة الاسلام ـ يقول أحد العلماء عن سير الفتح الاسلامى ، وأهدافه ، ويقارن بينه وبين الغزو الاستعمارى ، وأهدافه : ثمة ظاهرتان ، يلمحهما المرء فى سير الفتح الاسلامى ، أولاهما أنه مثالى ، مبرأ عن المطامع ، فان النبوة التى دفعته اشترطت أن يكون بعيدا عن مفاتن النفس وأدران الشهوات الظاهرة الثانية : أن الفاتحين ، بذلوا جهودا متواصلة ، لرفع الشعوب ، التى اتصلوا بها ، فمحوا الأنظمة الفاسدة ، وأقاموا قواعد المعاملة ، على أساس المساواة المطلقة ، وأصبح الاسلام ، والعمل به ، محور التفاضل ، من غير نظر إلى أجناس ، أو الوان ، ويقول عن الغزو الاستعمارى : وهناك ظاهرتان بارزتان ، فى صلة الاستعمار بالأمم ، التى دانت له ٠

أولاهما : أن دواعى الغزو كانت مادية بحتة لامكان فيها ، إلا للنفع الشخصى ، الدولى والبحث عن الثروة ، أو بسط النفوذ المجرد على أوسع مساحة ٠

والظاهرة الثانية : فى الغزو الأوروبى ، أنه اذا دخل بلدا ما فوجد فيه شعبا مظلوما ، ونظاما فاسدًا أبقى أسباب الفساد ، وأوصد الباب على الجماهير المضطهدة ، على عكس السيرة التى انتهجها الفتح الاسلامى ٠

أما بعد فهذا واقع الاسلام ، دين العدالة ، والمساواة ، واخراج العباد من عبادة العباد ، إلى عبادة الله وهدم التفاضل بالاحساب والانساب ، والقضاء بذلك على التفرقة العنصرية

﴿ ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه وفى الآخرة من الخاسرين ﴾

حقوق الإنسان

قرأت فى إحدى صحفنا المحلية ، كلمة قصيرة ، لكاتب يسخر من الغرب ، فى دعواه المزيفة ، لصيانة حقوق الإنسان ، ودفاعه عنها ، فى حين أن الواقع يكذب ذلك ، إذ أن القضايا التى تجب أن تبرز فيها العناية بحقوق الانسان ، ما برحت معلقة ، دون حل ، وضرب المثل بقضية فلسطين ، وغيرها ، وقال : وأمامنا قضية فلسطين ، والعدوان على باكستان ، وقتل المسلمين فى الفلبين ، إلى آخر ما أورده • وإنا لنجد من هذه الكلمة القصيرة ، مدخلا للتحدث عن حقوق الانسان ، كما رسمها الاسلام ، قبل أن يخطط لها الغرب على زعمه ، بآماد بعيدة ، ففى فيض الآيات الكريمة ، من الكتاب العزيز ، والسنة المطهرة ، ما يوضح أوضح بيان ، حقوق الانسان ، فى مختلف الاتجاهات ، فمثلا آية الوفاء بالعهود ، المبرمة فى سورة المائدة :

﴿ يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود ﴾

والاتفاقيات التى تعاقد عليها فرد أو مجموع أو دولة مع أخرى ، كلها لا مندوحة عن الوفاء بها ، والقيام بالتزاماتها ، اذ هى من أبرز حقوق الانسان ، تصون سياجه ، وتحفظ حقه ، ويعيش بها فى أمن من الغوائل والسطو والغدر ، وما إليه •

قال غير واحد من مفسرى السلف :

العقود هى العهود وقال بعضهم : الحق ان العقود جمع عقد ، وهو ما يتعاقد عليه الناس مطلقا ، وجمع لتعدد أنواعه ، أى العقد ، ويشترط فى وجوب الوفاء به ، ألاّ يكون على معصية ، وفى طليعة العقود ، المعاهدات الدولية ، التى يكون

بها اقامة علاقات ، وصداقات ، بين دولة واخرى ، أو مجموعة من الدول ، اذ فى ذلك حفظ السلام ، والاستقرار وضمان التعايش ، وان من أهداف الاسلام ، أن تسود امم الأرض المحبة ، وان تحرص كل أمة ، على الوفاء بعهودها ومواثيقها ، حتى لو كان فى نقض العهد مصلحة راجحة للمسلمين ، لا يجوز النقض ، كما قال تعالى :

﴿ وأوفوا بعهد الله اذا عاهدتم ولا تنقضوا الايمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا ، إن الله يعلم ما تفعلون ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة انكاثا ﴾

الآية ، ولا نمضى فى الكتابة عن هذا الحق الانسانى ، الواجب الوفاء به ، فقد كتبت عنه فيما سبق حديثا خاصا به ، ولنعرض بعده لثلاثة من حقوق الانسان ، ضمنها الاسلام لكل فرد ، وأحاطها بسياج منيع ، لا يصح إهداره واستباحة حماه ٠

الحق الأول : حق الحياة ، فلقد صان الاسلام هذا الحق ، لدرجة أن جعل الاعتداء عليه ، من أكبر الجرائم ، فليس لذكّى أن يسفك دم غبى ، وليس لأحد مهما علا كعبه وارتفع شأنه ، أن يهدر حرمة الدم الحرام ، لمجرد شهوة ، أو سورة غضب ، أو لمجرد الافساد فى الأرض يقول تعالى :

﴿ من أجل ذلك كتبنا على بنى اسرائيل أنه من قتل نفسا بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعا ﴾

فجعل النوع الانسانى متضامنا فى هذا الحق ، بحيث يكون الاعتداء على بعضه ، اعتداء على الكل ، وجاء الوعيد الصارخ المرعب ، لكل من يجرؤ على هتك سياج الدم الحرام ، كما قال تعالى :

﴿ ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها ، وغضب الله عليه ولعنه ، وأعد له عذابا عظيما ﴾

وأهاب رسول الهدى ﷺ بالأمة ، ألاّ تعود إلى العصبيات والنعرات بعده ، وإقامة الثأرات ، فيقف الأخ فى وجه أخيه ، يضربه بسيفه ، فقال ﷺ :

(**الا لا ترجعوا بعدى كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض**) بل لقد ذهب ﷺ لأبعد من ذلك ، حيث باعد بين المسلم وبين كل وسيلة أوذريعة ، قد يكون من ورائها الوقوع فى المحظور ، ولو لم يكن ذلك عن عمد وقصد ، فقال ﷺ :

(**لا يشر أحدكم إلى أخيه بحديدة ، فانه لايدرى ، لعل الشيطان ينزع فى يده ، فيقع فى حفرة من النار**)

وقال ايضا : (**من أشار إلى أخيه بحديدة ، فان الملائكة تلعنه ، حتى ينتهى ، وان كان أخاه لابيه وأمه**) وحظر ﷺ ، أن يروع المسلم أخاه ، حفاظا على حقه فى الأمن ، واشاعة الطمأنية فى نفسه فقال : (**لايحل لمسلم أن يروع مسلما**) أى يخيفه ويفزعه إلى غير ذلك من الدعامات ، التى ركّزها الاسلام ، لحفظ حق الحياة وعدم العدوان والطغيان ، والفساد فى الأرض ، بسفك الدم الحرام ، فأين منها تشدق المتمشدقين من الغرب ، ودول الاستعمار وزعمهم صيانة حقوق الانسان ؟ ان الدماء البريئة ، تراق على مرأى منهم ومسمع ، فى كل مكان كما ذكر الكاتب فى كلمته ، فى فلسطين والفلبين ، وباكستان ، وكأن فى آذانهم وقرا لم يسمعوا بها ، ومع ذلك ، يقيمون الاحتفالات فى كل عام ، للمصادقة على وثيقة حقوق الانسان ، إنها مهازل ، تضحك الثكلى ، وكم فى دنيا الاستعمار من مفارقات ، ومتناقضات !

الحق الثانى : حق صيانة الأعراض ، حفاظا على الكرامات ، وابقاء على الشرف ، فحظر الاسلام النيل من المسلم فى غيبته ، أو التطاول عليه ، بقذفه بالموبقات ، ايذاء له ، أو تشفيا منه ، أو انتقاما أو لمجرد البهت ، والتجنى ٠ فعن أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها أن النبى ﷺ قال لأصحابه ذات يوم :

(**أتدرون ما أربى الربا عند الله ؟ استحلال عرض امرىء مسلم**) ثم قرأ

رسول الله ﷺ (**والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتانا واثما مبينا**)٠

الحق الثالث : صيانة الأموال من التسلط عليها واستلابها ، بغير حق ، ومن غير طيب نفس ممن استلبت منه ، سواء بالطرق الملتوية ، كالغش والتدليس ، والرشوة والسرقة ، والغصب ، وما إليه ، مما يعمد إليه البعض لحيازة حق الغير ، أو كان بسيف القانون ، واهدار حق المسلم ، فى تملكه ، فكل ذلك يندرج فى إطار النهى ، الذى تصوره الآية الكريمة :

﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل الا أن تكون تجارة عن تراض منكم** ﴾ ٠

أما بعد ــ فان حقوق الانسان التى قررها الاسلام ، وحفظ بها التوازن بين المجموع ، فيض زاخر ، لا يستوعبها حديث قصير ، وقد كتب عنها العلماء والباحثون ، وإنما عرضنا لهذا الجزء اليسير منها ، دحضا لمزاعم من يذر الرماد ، ويتجاهل الواقع ، ممن يحتفل كل عام ، بالمصادقة على وثيقة حقوق الانسان ، وثيقة الحبر على الورق التى لا تصور واقعا أو تحكى حقيقة ٠

❋❋❋

مهمة الداعى

ونعنى بالداعى ، من يتسنم مركز التوجيه ، ومنبر الوعظ والارشاد ، للدلالة على الخير ، والهداية الى أقوم سبيل ، فى العقيدة والخلق ، والتزام مبادىء الاسلام وتشريعاته ، فى كل المجالات ، لافى العبادة فحسب ، كالصلاة والزكاة ، وبقية شرائع الاسلام ، بل إلى جانب ذلك ، القيام بالدعوة إلى الاصلاح العام ، فى مختلف دروبه ، فدين الاسلام ، كما يدعو إلى سلامة العقيدة ، ومتانة الخلق ، يدعو كذلك ، الى تنظيم العلاقات بين البشر ، لحفظ التوازن بينهم ، وصون المعاملات والحقوق من الاهدار ، أى حقوق كانت ، فى أى حقل من حقول الحياة • ومن أجل ذلك ، كانت مهمة الداعية الاسلامى شاقة ، فهو كطبيب حاذق ، يعرف كوامن الداء ، فيصف الدواء ، أو كمعلم مارس مهنة التعليم ، فاكسبته التجربة والخبرة ، إلى جانب سعة الأفق ، وغزارة المادة ، أكسبته أنجع الوسائل ، للإفادة من علمه ، فيكون له أجر من دعا إلى الهدى ، كما جاء فى الحديث عن أبى هريرة رضى الله عنه مرفوعا ، إلى النبى ﷺ **(من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص من أجور أحدهم شيئا)** •

ولقد امتن الله على عباده ، بأن بعث فيهم سيد الثقلين ، ﷺ ، معلما مربيا يعلمهم ويتخولهم بالموعظة ، ويتعاهد نفوسهم بالتهذيب ويغرس فيها الفضائل ويدربهم على الصبر ، وتحمل الشدائد ، بمختلف الوسائل ، وذلك ما تعنيه الآية

الكريمة :

﴿ لقد من الله على المؤمنين اذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين ﴾

فلم تكن مهمته ﷺ التزويد بالعلم والمعرفة فقط ، بل كانت مهمته ، إلى جانب ذلك ، التزكية التى قرن الله بها التعليم ، والتزكية دروب ووسائل ، يجدها المتبع للهدى النبوى . تلك هى مهمة الداعى ، الذى يسلك طريق سيد الدعاة ، ﷺ كما قال تعالى (**قل هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى**) فكل من يتسنم مركز الدعوة ، لزاما عليه لنجاح دعوته ، أن يسير على نهج المصطفى ﷺ فى الاسلوب والطريق التى سلكها ، والوسائل التى اتخذها ، لتزكية النفوس وحملها على الفضائل ، وعدم الاقتصار على سرد المعلومات والنصوص الشرعية ، دون التربية بهذه المعلومات ، والنصوص ، للوصول إلى التزكية المطلوبة ، التى هى ثمرة التعليم ، والهدف من سرد النصوص ، يقول أحد العلماء فى ربط دعوة الرسول ﷺ ، بتربيته للأمة : (إبان اشراق الدعوة الاسلامية ، مكث الرسول ﷺ ، ثلاثة عشرة عاما ، يدعو إلى الدين ، ويربى المؤمنين ، وعلى الرغم مما يبدو ، من أن الدعوة لم يكتب لها النجاح ، فى هذه المرحلة ، التى انتهت بالهجرة إلى ، المدينة ، فان الواقع يثبت أنها حققت أعظم نصر للاسلام ، على الجاهلية ، فقد استطاع فيها الرسول ﷺ ، ان يربى عددا من أصحابه ، ويكون منهم جماعة متميزة بعقيدتها ، وسلوكها ، وهدفها فى الحياة ـ إلى أن قال : ونجحت تربيته نجاحا ليس له فى تاريخ البشرية مثيل ، ووصل مجتمع المدينة ، فى واقع الحياة ، إلى غاية من التربية والسمو ، لم يبلغها الفلاسفة والمفكرون والمصلحون ، ودل نجاحه ، على ما تستطيعه التربية ، من تغيير للأنفس ، وسمو بالمجتمع ، ورفعة بالبشرية ، إلى أسمى الآفاق) .

فلا يكفى اذن أن يكون الداعية مثاليا فى نهجه ، وأسلوب دعوته ، ولا مبرزا

فى عمله وشجاعته ، ولا صلبا فى الحق الذى يدعو إليه ، ولا جلدا فى تحمل ما يصادفه من عنت وإرهاق ، فى سبيل الدعوة بل لا مندوحة له ، عن أن يكون مربيا لبقا ، كيّسا ، يحسن تعبئة الطاقات البشرية ، لجهاد النفوس ، وتحويلها بحكمة وحنكة ، إلى التى هى أقوم من مناهج الخير ، وطرق السعادة ، لقد كان من تربية الرسول ﷺ لأصحابه أنه كان يتخولهم بالموعظة لتبقى نفوسهم دائما متطلعة إلى جديد منها ، تتزكى به نفوسهم ، وترتاح إليه قلوبهم ، ويفيدون منه مالا يحصل عليه طلاب الجامعات ، فى دراستهم المنظمة ، وطول أمد التحصيل ، وكان أحدهم رضوان الله عليهم لايتجاوز عشر آيات من القرآن حتى يحفظها ويتعلم مدلولها ويعمل بها ، ولم تكن تربيته ﷺ ، خاصة بالرجال دون النساء ، بل كان ﷺ يخص النساء بالوعظ ، فى يوم عيد الفطر ، فيطبقن العلم بالعمل ، ويندفعن فى البر والرفد للفقراء ، فكانت احداهن تنزع قرطها ، أو قلادتها ، أو أى شىء من حليها ، حتى امتلأ ما كان يجمع فيه بلال رضى الله عنه مما جادت به النساء ، من أطيب ما يمتلكن ، وتروى أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها واقعة عن نساء الأنصار فتقول : (لما نزلت فى سورة النور :

﴿ وليضربن بخمرهن على جيوبهن ﴾

انقلب رجالهن يتلون عليهن ما أنزل الله ، فيتلو الرجل على إمرأته ، وابنته ، وأخته ، وعلى كل قرابته فما منهن امرأة الا قامت إلى مرطها المرحل ، فاعتجرت به ، فأصبحن وراء رسول الله ﷺ كأن على رؤوسهن الغربان) •

والأمثلة على أثر تربية الرسول ﷺ لصحبه ، لا يستوعبها الحصر ، وإنما عرضنا لنماذج منها فى هذا الحديث ، لندلل أن فى طليعة مهمة الداعى ، أن يكون مربيا حكيما ، لبقًا يعتمد على تكييف من يدعوه ، وكأنه مادة خام ، يدخلها فى بوتقة التجربة ، فأىّ طريقة للصهر أكثر نجاحا أخذ بها ، واعتمدها فى دعوته ، وتمشى عليها ، لتكثير سواد المسترشدين ، والحصول على أجر الدعاة ،

والمرشدين ، كما جاء فى الحديث (لأن يهدى الله بك رجلا واحداً خير لك من حمر النعم) (من دعا إلى هدى كان له أجر من تبعه من غير أن ينقص من أجر أحدهم شيئا) والله الموفق ..

❋❋❋

النزعة القومية

كتب كاتب إسلامى مقالا فى سطور ، كان قصيرا فى حجمه ، كبيرا فى معناه وأهدافه ، ضمّه إلى جملة مقالات إسلامية ، كان يكتبها فى فترات متباعدة ، ولمناسبات مختلفة .

كتب هذا المقال ، عندما احتفلت باكستان بتأسيسها ، كدولة مسلمة ، مستقلة ، وعرض فيه للاستعمار ، وذكر فى جملة ما ذكره : أن الحقد الكامن على الاسلام ، والغيظ الدفين على أهله ، ومحاولة الحاق الأذى بهم ، فى كل مكان ، واستنزاف قواهم ، فى كل قطر ، كل ذلك وجد متنفسه العميق فى ظلال الاستعمار ، ولئن كانت الروح الاستعمارية متشبعة بالحقد على الاسلام ، فليس الذنب فى تفرقة المسلمين ، وضرب بعضهم ببعض هو ذنب الاستعمار ، فى مختلف الوانه ، شرقيه أو غربيه ، بل الذنب ذنب المسلمين الذين وضعوا دبر آذانهم تعاليم الاسلام ، التى لم تدع مجالا لثغرة يدخل منها على المسلمين أعداء الاسلام ، والتى ربطت بين الأبيض والأسود ، وبمن فى أقصى الدينا ، ومن المجاهل فى هذا الدين الاسلامى ، اخوة متساوية كأسنان المشط ، ولقد جاء الاسلام بالوحدة الشاملة الكاملة ، الوحدة الدينية وجعل المسلمين فيها اخوة ، كما قال تعالى :

﴿ إنما المؤمنين أخوة ﴾

فلا مجال فيها للتمييز العنصرى ، ولا مكان للفوارق الطبقية ، والعصبيات ، الجاهلية كما قال تعالى :

﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير ﴾

وفى خطبة حجة الوداع ، التى خطط فيها رسول الهدى ﷺ ، للعدالة الاجتماعية ، وقرر فيها قواعد الدين ، وأهدافه ، يقول ﷺ : (**إن الله قد أذهب عنكم عصبية الجاهلية وتعاظمها بالآباء ، والأجداد ، الناس من آدم ، وآدم من تراب ، لافضل لعربى على عجمى ولا أبيض على أسود الا بالتقوى**) ويقول أيضا : (**ليس منا من دعا إلى عصبية ، وليس منا من قاتل على عصبية ، وليس منا من مات على عصبية**) وقال أيضا : (**ومن دعا بدعوى الجاهلية فانه من جثى جهنم فقال رجل : يا رسول الله وإن صلى وصام ؟ قال : وإن صلى وصام ، فادعوا بدعوى الله الذى سماكم المسلمين والمؤمنين عباد الله**) وعلق شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله على قول الرسول ﷺ (**أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم؟**) عندما اختصم أنصاريّ ومهاجريّ فقال الأول : ياللأنصار ، يدعو قومه لينصروه ، وقال : الثانى ياللمهاجرين ، قال شيخ الاسلام : كل ما خرج عن دعوى الاسلام والقرآن من نسب أو بلد أو جنس أو مذهب أو طريقة فهو من عزاء الجاهلية .

نسوق كل هذه النصوص لندعم بها قولنا : إن الذنب ليس ذنب الاستعمار فى التفرقة بين المسلمين بإثارة النزعات القومية ، وإنما الذنب ذنب المسلمين أنفسهم ، الذين وضعوا دبر أذانهم كل هذه التوجيهات العظيمة ، التى تشد على الروابط بينهم ، وتقارب بين قلوبهم ، وترتفع بهم عن العصبيات للنزعات والقوميات ، والشعارات ، والنداءات ، التى استبدل الناس بها فى أعقاب الزمن ، الذى هو أدنى بالذى هو خير ، فتصدع بنيانهم ، وتخالفت قلوبهم ، وتمزق شملهم ، وافترقت كلمتهم وتسلط عليهم اعداؤهم وتلك نتيجة حتمية ، أو عقوبة، للبعد عن هدى الاسلام ، فى التجمع والتضامن ، وتوحيد الصفوف ، إن النعمة الكبرى ، التى يذكر بها رب العزة سلف هذه الأمة هى الالفة والمحبة بعد الشحناء والبغضاء التى كانت ثمار الجاهلية ، وعصبياتها ، فقال تعالى :

﴿ **واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم**

اذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته اخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون ﴾

وهذا التذكير بهذه النعمة هو للخلف كما كان للسلف فيجب أن يوضع نصب الأعين كلما بدرت بوادر للفرقة ، أو تحزب قوم لعصبية أو دعا آخرون بدعاء الجاهلية وأثاروا العصبيات للجنس أو اللون أو للقومية أية قومية ، فالعبرة فى القرآن بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، فكما كان فى الماضى جاهليات وعصبيات أطاح بها الاسلام بتعاليمه كذلك يكون فى أعقاب الزمن ، فيجب ألاّيرفع بها المسلم رأسا ، ويجب أن يذكر أن الاسلام ساوى بين بلال الحبشى ، وصهيب الرومى ، وسلمان الفارسى ، وبين أبى بكر وعمر ، وغيرهما من أشراف وعظماء القوم ، فكان بلال مؤذن رسول الله ﷺ وقال الرسول الكريم عن سلمان (**سلمان منا أهل البيت**) • وندب الخليفه عمر رضى الله عنه صهيبا الرومى ، للصلاة بالناس عندما طعن ، وفى الناس وجوه الأنصار والمهاجرين ، وسمع النبى ﷺ سلمان وهو يسدد رميته إلى عدو من أعداء الاسلام ، ويقول : خذها وانا الغلام الفارسى ، فرد عليه بقوله (**هلا قلت وأنا ابن الاسلام**) وكل ذلك مما يركز فى النفوس اخوة الاسلام والانتساب اليه ، والأخذ بتعاليمه كلها ، بما فى ذلك ، الوحدة الاسلامية ، ويطيح بالنزعات والعصبيات ، للون أو العنصر ، وغيرهما ، مما يتعصب له الناس ، وتكون به الفرقة بين المسلمين ، فى أى مجال للفرقة وصدق الله اذ يقول :

﴿ ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم ﴾••

الاعتداد بالنفس بين الحظر والإباحة

الاعتداد بالنفس والأخذ بها لدرجة الزهو والغرور مرض إجتماعى ابتليت به البشرية منذ أقدم العصور ، فأضحى كغريزة لدى البعض لا يقتلع من النفوس إلا بجهاد طويل الأمد ، وبالانصياع للتعاليم الإسلامية المهذبة للنفوس ، والتى تضع كل شىء فى نصابه ، فتبيح الاعتداد بالنفس ، حيث لا يبلغ حد الطغيان والتعالى على الحق وتحظره حين يصبح خطرا يتبع فيه المرء هواه ، « **ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله** » .

يبيح الإسلام الاعتداد بالنفس ، عندما يسام المسلم خطة خسف ، كأن يحمل على قبول التشكيك فى دينه ، أو الحط منه ، والنيل من مبادئه ، أو عندما يقسر على ارتكاب المنكر ، أو الرضاء به ، فى أهله وعشيرته ، أو بين المجموع ، فيرفع عقيرته ، معتدا بنفسه ، معتزا بدينه وتعاليمه ، ويقول : (لا) لن أستجيب ولو عذب وأوذى فى الله .

ويبيح الإسلام الاعتداد بالنفس ، عندما يهاض جناح المسلم ، أو يعتدى عليه ، أو يطمع فيه باغ ليستلبه حقه ، أو ليحمله على أن يمشى فى ركابه ، ويتأثر بسياسته ، فيكون صلبا لا تلين قناته ، ويدافع عن نفسه وحقه السليب ، ويعبر عن رأيه ، بكل صراحة ، وانه لا يتبع أحدا او يكون ذنبا ، معتدا بنفسه ، ولو أثيرت عليه العواصف ، جاء رجل إلى رسول الله ﷺ وقال : (يارسول الله أرأيت ان جاء رجل يريد أخذ مالى ؟ قال : **لا تعطه مالك** ، قال : أرأيت إن

قاتلنى ، قال : قاتله ، قال : أرأيت ان قتلنى ؟ قال أنت شهيد ، قال : أرأيت إن قتلته ؟ قال هو فى النار) إلى غير ذلك من المواقف التى يبيح فيها الاسلام الاعتداد بالنفس ، اذ لا يكون ثمة طغيان ولا عدوان ، وإنما هو دفاع عن النفس والحوزة ، وإعلان لمنهج واضح مشروع ، ويحظر الاسلام الاعتداد بالنفس عندما يصبح خطرا ووبالا ، كأن يعتد المرء بنفسه ، عندما يخوله الله نعمة من النعم ـ مالا أو علما وثقافة ، أو حظوة لدى المسؤولين ، وجاها ، ويتعالى بذلك ، ويجحد فضل الله عليه ، ولا يستشعر منته ، كما قال تعالى ضاربا المثل بقارون فى زهوه واعتداده بنفسه فى معرفته للاتجاهات الرابحة فى الحصول على الثروة ، وجحود فضل المنعم عليه ، قال تعالى :

﴿ وآتيناه من الكنوز ما ان مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة ﴾

أى أعطاه الله من خزائن الأموال ، ما يثقل حملها على الكثير من النـاس ، لكثرتها ، وكانت النتيجة ، ماحكاه الله عنه بقوله :

﴿ قال إنما أوتيته على علم عندى ﴾

أى أعطيت هذه الأموال على علم منى بوجوه المكاسب ، ومن الاعتداد المحظور ، الاعتداد بالحسب والنسب والقبيلة والعشيرة ، لدرجـة المغـالات والتعـالى على الغير ، فلا يستوى فى نظر البعض ، الحسيب والنسيب مع عامة الدهماء وكذلك لا يستوى شعب وشعب وان اتحدا فى النسبة لآدم ، واتفقا فى أصل النشأة ، ومن محاسن الإسلام أن أبطل كل تفاضل بين البشر إلا بتقوى الله والعمل ، كما قال تعالى :

﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾

وقال رسول الله ﷺ : (الناس من آدم ، وآدم من تراب لا فضل لعربى على عجمى ، ولا لأبيض على أسود الا بالتقوى) .

ولقد كان من مزاعم اليهود ، واعتدادهم بأنفسهم ، أنهم شعب الله المختار ، ميزهم على سائر البشر ، فلا يصح أن تتساوى معهم الشعوب الأخرى فى هذه الميزة ، فضلا عن أن تفضلهم ، وغلوا فى الغرور حتى زعموا الكمال ، وبلوغ الذورة فيه ، فلا يصح أن يكونوا تابعين لغيرهم فى الدين ، ومن ثم كان استكبارهم عن اتباع الرسول ﷺ ، لأنه عربى ، لا إسرائيلى ، فهو مفضول ، وكان قسط النصارى من هذا الاعتداد بالنفس ، والزهو والغرور لا يقل عن اليهود ، فاعتدوا بأنهم على خير نهج من الهدى ، وليسوا فى حاجة إلى إصلاح ، وتقويم وهداية ، ورفضوا دعوة الرسول إلى توحيد الله جل جلاله ، ومع هذا الانحراف ، ومجانبة الحق ، كانوا يزعمون أنهم أبناء الله وأحباؤه وأن الله لن يعاملهم كما يعامل سائر البشر ، ولن يؤاخذهم على الهنات والفلتات ، فرد الله عليهم بالحجة الدامغة قائلا :

﴿ قل فلم يعذبكم بذنوبكم بل أنتم بشر ممن خلق ﴾

فليس ثمة شعب متميز على الآخر ، وليس بين الله وخلقه سبب غير طاعته ، واتباع أمره ، والعمل بما يرضيه ، والجزاء إنما يكون على الأعمال ، وبذلك اقتضت سنة الله وعدله ، كما قال تعالى :

﴿ من يعمل سوءا يجز به ﴾

أى من أى شعب ، كان وأية أمة ، ولئن جاز أن يكون تفاضل بين الأمة فى أى اعتبار ، لكان للأمة الإسلامية ، التى قال عنها رب العزة :

﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ﴾

وارتفع بشأنها حين اثنى عليها بقوله :

﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس ﴾

ومع ذلك ، وجريا على سنته ، فى أن التفاضل إنما يكون بالعمل ، فقد أدال منها فى غزوة أحد ، ووقعت الدبرة عليها بعد النصر ، جريا على عدل الله فى إنزال

العقوبة بمن خالف أمره ، وقد كان من الرماة مخالفة لأمر الرسول وتنازع وتخالف فى الرأى ، أخذهم الله بجريرته ، بعد أن استشرفوا لانهاء المعركة فى صالحهم ، وقال ردا عليهم حين استغربوا الهزيمة ، مع أنهم جند الله وحزبه ، يقاتلون تحت راية الاسلام ، والرسول معهم ، (**أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها ، قلتم أنىّ هذا ، قل هو من عند أنفسكم**) أى بسبب عصيانكم لرسول الله ، حين أمركم ألاّ تبرحوا مكانكم فعصيتم ، وتلك سنة الله تعالى ، لا يحابى فيها أحدا ، غير أن دأب أرباب النهى ، ممن صدق الله فى جهاده ، وأشرب الايمان فى قلبه ، أن تكون له من الدروس القاسية التى تجرى فى الحياة طبق سنن الله ، تكون له فيها عظة وعبرة ،ومزيد من اليقين فى عدل الله ورحمته ، وأنها إلى جانب ذلك ، أى الدروس القاسية ، التى تمر بالمؤمنين اختبار لصدق إيمان المؤمنين ، ورفع لدرجاتهم وتمحيص لسيآتهم ·

***

الجدال عن المبطلين

من الهنات التى ليست بالهينات ، والتى يربى الاسلام محتضنه على التجافى عنها ، الجدال عن المبطلين ، والذود عن الخائنين ، والانتصار لهم بالباطل ، والحيلولة دون الاقتصاص منهم ، وتعطيل الحد الشرعى الواجب عليهم ، إذ بذلك يستشرى الفساد ، ويختل الأمن ، وتسود الفوضى ، ويغمط الناس حقوقهم ، فلا يطمع متجنى عليه ، أو مظلوم فى رفع الظلم عنه ، ورجوع الحق إلى نصابه ، ولذلك كان من توجيهات سيد الأنام ﷺ ، فى استصلاح المسلم ، الأخذ على يديه ، لو كان متجنيا ، وحجزه عن الظلم ، والوقوف إلى جانبه لو كان مظلوما ، يقول ﷺ : (**انصر أخاك ظالما أو مظلوما ، قال : ـ انصره مظلوما فكيف ظالما ، قال : ـ تحجزه عن ظلمه فذلك نصره**) وفى هذا المعنى أيضا قول الله تعالى :

﴿ ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم ﴾

أى يخونون أنفسهم بغمسها فى الشر ، والانزلاق بها فى أوحال المعاصى ، وعدم كبح جماحها عن التجنى على الغير ، فى أى مجال ، يستوى فى ذلك التجنى على النفس ، أو المال ، أو العرض (**كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه**) وثمة لفتة كريمة فى الآية ، لارباب النهى ، اذ فى قوله تعالى **﴿ يختانون أنفسهم ﴾** تشبيه للنفس بالوديعة ، التى أودعها المرء ، واسترعاه الله أمرها ، ومن حق الوديعة أن تحفظ ، وتصان من العطب ، أو ما يكون وسيلة

إليه ، ولذلك ، وجه رب العزة إلى صيانة النفس فى آية أخرى ، والحفاظ عليها من التدنيس ، ومجالب النقمة ، فقال تعالى :

﴿ قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها ﴾

أى فاز وربح ، من عصم نفسه من الزلل ، وارتفع بها عن مواطن الخطل ، وعلى العكس من ذلك تدنيسها بالمعصية فى كل دروبها ٠

وحقوق الغير واغتصابها أيا كانت ، مالا ينتهب من حرز ، أو يحرز بالطرق الملتوية ، أو كانت عرضا يغتصب أو غير ذلك من الحقوق ، يجب ألاّ يجادل دون المطالبة بها ، وألاّ يقوم من بيده الفصل مدافعا عن المتجنين ، درءا لهم ، وكنفا يحميهم ، قال بعض المفسرين تعليقا على الآية موضوع البحث : (لم يكن النهى موجها إلى النبى ﷺ ، وإنما هو تشريع وجه إلى المكلفين كافة ، وفى جعله بصيغة الخطاب له ، وهو أعدل الناس وأكملهم ، ما يوحى بالمبالغة فى التحذير من هذه الخلة المعهودة فى البعض) ٠ وقد كشف سبحانه فى الآيات التالية عن واقع المتجنين المختانين لأنفسهم ، وأوضح ضحالة تفكيرهم ، وسفاهة عقلهم ، وعدم استشعارهم لعظمة الله ، ومراقبته وهو المطلع على سرائرهم ، وما يبتغونه من القول المتهافت لتبرئة ساحتهم ، وإبعاد التهمة عنهم ، وكأنهم بذلك إنما يخادعون أنفسهم ، يصور ذلك قوله تعالى :

﴿ يستخفون من الناس ﴾

أى يستترون منهم عند ارتكاب الجريمة ، خوفا منهم وحذرا من نقمتهم

﴿ ولا يستخفون من الله وهو معهم اذ يبيتون مالا يرضى من القول ﴾

لا يستترون من الله وعقابه ، وهومعهم بعلمه ، لا يعزب عنه شىء من أمرهم ، كما قال تعالى :

﴿ ما يكون من نجوى ثلاثة الا هو رابعهم ولا خمسة الا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر الا هو معهم أينما كانوا ﴾ ٠

ولئن راج دفاع البعض عن الجناة ، فى دنيا الناس حيث يروج الزيف والبهرج ، أفيروج الدفاع عنهم ، عندما توضع موازين القسط ، ويقف العباد بين يدي الله ، ومن الذى يجترىء على الجدال ، وترويج الباطل يوم لا تملك نفس لنفس شيئا ، ولا يسأل حميم حميا كما قال تعالى :

﴿ ها أنتم هؤلاء جادلتم عنهم فى الحياة الدنيا فمن يجادل الله عنهم يوم القيامة ﴾

وفى ذلك وعيد صارخ ، لمن يلتوى فى الحكم ، أو يبتغى العوج بالدفاع عن المختانين لأنفسهم ، الذين يعيثون فى الأرض فسادا ، ولا يرجون لله وقارا ، ولايرعون لمسلم حقا (**أم من يكون عليهم وكيلا**) وأنى لأحد أن يتخذ وكيلا عنه أمام الله ، يدافع عن ذنوبه ، ويجادل عنه ، فيما اقترفه فى حياته من سوء سوف يجزى به ، ولن يجدله من دون الله وليا ولا نصيرا ، وصدق الله اذ يقول موجها العباد لهول يوم التناد

﴿ واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون ﴾

روى أن أحد خلفاء بنى أمية طلب من عالم من التابعين أن يعظه فقال له : يا أمير المؤمنين أخبرنى ابن عباس رضى الله عنهما ، قال : إن آخر آية نزلت من القرآن قوله تعالى :

﴿ واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون ﴾

فأطرق الخليفة طويلا متأثرا بتوجيه الآية ، مستعرضا فى طياتها ما يقع من أهوال يوم القيامة ، ثم بكى حتى اخضلت لحيته بالدموع ٠ وكذلك يجب أن يستشعر المسلم مقام الله ، ووقوفه بين يديه ، ويستشف من هذه الآية الكريمة ، التى

عرضنا للبسط فيها والتوجيه إلى عظاتها ،

﴿ ها أنتم هؤلاء جادلتم عنهم فى الحياة الدنيا فمن يجادل الله عنهم يوم القيامة أم من يكون عليهم وكيلا ﴾

يستشف منها أعظم تحدّ وجهه البارىء إلى كل من يستغل فى الدنيا ما أوتى من مقام مرموق ، وسلطة ونفوذ تجعل له الصولة والكلمة النافذة ، يستغله فى ترويج الباطل ، وحماية الآثمين ، والمجادلة عنهم ، والحيلولة دون اقرار الحق ، وإقامة منار العدل ، وصدق الله اذ يقول فى وصف يوم الدين ،

﴿ ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود ﴾

﴿ يوم يأت لا تكلم نفس الا باذنه فمنهم شقى وسعيد ﴾ ..

❊❊❊

ليلة النصف من شعبان

مثل المسلم المتفتح الوعى ، البعيد الإدراك ، كمثل الصراف الحاذق الماهر إذ يفحص الدراهم ، ويعرف المزيف منها من الصحيح ، وذلك شأن المسلم الواعى ، كما أسلفنا القول ، لا يروج عليه الزيف فى دينه ، ولا يقبل كل ما يلقى إليه باسم الدين ، من كل ما تضمنته الكتب ، أو نقل اليه على أفواه الناس ، الا بعد فحصه ، ووزنه ، بمعايير وضعها الاسلام ، لمعرفة الصحيح من غيره ، من ذلك قوله تعالى :

﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾

فكل ما ينقل أو يكتب لا يقبله المسلم الواعى ، إلا اذا كان عليه إشعاع من الوحى أو مستندا الى فعل الرسول سيد الثقلين ، ﷺ وقال تعالى :

﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم ﴾ .

فكل عمل يصطبغ بطابع الدين ، يجب أن يوزن بهذا المعيار ، طاعة الرسول ، فيما جاء به ، واتباعه فى أمره ، وبذلك يسلم للمسلم دينه من الزيف والدخيل ، ويصل به إلى أكرم غاية ، من نزول الجنان ، ومرافقة الصالحين فى أعلى عليين ، كما قال تعالى :

﴿ ومن يطع الله والرسول فاولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا ﴾

وإن أصل دين الاسلام وقاعدته ، الاّ يعبد المسلم الا الله ، والاّيعبده الا بما شرع • نقل عن الفضيل بن عياض رحمه الله قوله تعليقا على قول الله تبارك وتعالى :

﴿ ليبلوكم ايكم أحسن عملا ﴾

أن العمل إذا كان خالصا ولم يكن صوابا لم يقبل ، واذا كان صوابا ولم يكن خالصا لم يقبل ، حتى يكون خالصا صوابا ، والخالص أن يكون لله ، والصواب أن يكون على السنة • وإن مما يجب ان يوزن بمعيار الدين ، وينتهى فيه المسلم لأمر سيد المرسلين ، ﷺ كدليل على حبه ، واتباعه ، بالتطوع بنوافل العبادة ، وخاصة فى الأيام والليالى المفضلة ، كليلة النصف من شعبان مثلا ، فلقد ورد فيها من الآثار وأقوال السلف ، ما يوجه الأنظار اليها ، يقول شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله ، فى كلام طويل : (ومن هذا الباب ليلة النصف من شعبان ، فقد روى فى فضلها من الأحاديث المرفوعة والآثار ما يقتضى أنها ليلة مفضلة • ومن العلماء من السلف من أهل المدينة وغيرهم من الخلف من أنكر فضلها وطعن فى الأحاديث الواردة فيها ، وقال لا فرق بينها وبين غيرها من الليالى ، لكن الذى عليه كثير من أهل العلم ، أو أكثرهم من أصحابنا ، وغيرهم ، على تفضيلها ، وعليه يدل نص أحمد لتعدد الأحاديث الواردة فيها ، وما يصدق ذلك من الآثار السلفية • وقد روى بعض فضائلها فى المساند ، والسنن ، وإن كان قد وضع فيها أشياء أخرى) • ولقد يهم البعض ، فيجعل ليلة النصف من شعبان ، هى الليلة التى قال عنها ربّ العزة : ـ

﴿ فيها يفرق كل أمر حكيم ﴾

والواقع أن هذه الليلة ، التى يفرق فيها كل أمر حكيم هى ليلة القدر لا ليلة النصف من شعبان ، على قول جمهور العلماء رحمهم الله ، وأن المسلم الواعى الرشيد من لا يعتمد فى دينه إلا على ما صح به النقل عن المصطفى ﷺ ، وخاصة فيما تضاربت الأقوال ، واختلفت فيه الاتجاهات ، فدين المسلم هو رأس

ماله ، وهو أغلى ما يعتز به ، اذ يترتب عليه نجاته وفلاحه ، فلا يستهويه ، ما اشتغل به البعض من تخصيص دعاء ليلةالنصف من شعبان ، يقرأ فرادى وجماعات ، يتخلله قراءة سورة يس مرة بنية طول العمر ، ومرة بنية دفع البلاء ، ومرة بنية الاستغناء عن الناس ، وهل يصح فى العقول السليمة أن يهتدى إلى هذا الاتجاه ، وهذه الأعمال ، التى تخص بها ليلة النصف من شعبان ، الخلف فى أعقاب الزمن ، وقد كثرت فيه الشبه والفتن ، ويغفل عنها رسول الهدى ﷺ فلم يوجه الامة اليها ، وهو الحريص على هدايتها ، الى مافيه سعادتها وفلاحها ؟ معاذ الله أن يكون ذلك وقد وصفه رب العزة بقوله :

﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم ، عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم ﴾ أى على هدايتكم ﴿ بالمؤمنين رؤوف رحيم ﴾

إن ليلة النصف من شعبان يحسن الاّ يسقطها المسلم من حسابه ، والاّ يكون فيها من الغافلين ، ولكن يجب الاّ تخص بعمل مخصوص أو طقوس عبادة معينة ، كصلوات ودعوات مثلا .

ولقد ورد أن قيام الليل ، يحصل بصلاة العشاء فى جماعة ، والعزم على صلاة الفجر فى جماعة ، فلو لم يكن من المسلم الا ذلك ، لكتب من القائمين ، الذاكرين ، وخرج من زمرة الغافلين ، أما التزام لون من العبادة ، وتلاوة سور من القرآن ، بعدد معين ، وبنية مخصوصة فلم ينقل ذلك عن سلف الأمة وخيارها فى عصور الهداية والنور ، فلا يصح الاعتماد عليه ، وإن تناقلته بعض الكتب ، واستحسنه البعض من العلماء ، فأمور العبادة توقيفية ، فلا دخل للرأى فيها ولا للاستحسان ، بل لابد فيها من أخذ القدوة بالمعصوم ﷺ وصدق الله اذ يقول :

﴿لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا) .

فى رحاب رمضان

وقعة بدر من المعارك الفاصلة فى الإسلام ، كتبت سطورها فى سجل الخلود ، لا لأن الباطل قد التقى فيها بالحق ، وجها لوجه فكانت الغلبة للحق وانهزم الباطل ، فذلك شأن الباطل أبدًا اذ يلتقى بالحق ، فهو زبد لايلبث أن يضمحل ، ويتلاشى أمام تيار الحق الجارف ، كما قال تعالى

﴿ فأما الزبد فيذهب جفاء ﴾ .

ولا لأن الأقران صاولوا فيها الأقران ، فرجحت كفة احدى الجانبين ، فذلك مألوف فى مجال الصيال ومنازلة الأقران ، والحرب سجال ، يوم لك ويوم عليك .

بل لأن الضعف قد استبدّ فيها بالقوة ، فأرغمها لسلطانه ، ودالت دولة البغى والعدوان ، ومن ثم كانت المعجزة ، وسجلت وقعة بدر سطورها فى سجل الخلود ، لتقرأ الأجيال أن لا أثر للقوة ، مهما اكتملت فيها الوسائل ، وبلغت أوج التكتيك الحربى ، وارتفع شأن القادة ، لا أثر لذلك أمام قوة الايمان ، وعدالة القضية ، والاستماتة فى سبيل المبدأ ، والصبر عند اللقاء ، كما قال سعد بن معاذ رضى الله عنه ، لرسول الهدى ﷺ حين استشارته لأصحابه ، لخوض غمار معركة بدر : (أمض يا رسول الله ، لما أردت ، فنحن معك ، فوالذى بعثك بالحق ، لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ، ما تخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدا ، انا لصبر فى الحرب ، صدق فى اللقاء) ومضت وقعة بدر فى تاريخ البطولات مثلا يحتذى ، وعبرة لتغلب الضعف على القوة ،

كتب من حضر اليرموك من المجاهدين لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب عندما أظلهم جيش العدو بكثرة عدده ووفرة عدده ، يطلبون منه المدد ، لتتكافأ القوتان ، فرد عليهم الخليفة بقوله : ـ (إنه جاءنى كتابكم تستمدوننى وإنى أدلكم على من هو أعزّ نصرا وأحصن جندا : الله ، عز وجل ـ فاستنصروه ـ فان محمدا ﷺ قد نصر يوم بدر فى أقل من عدتكم ، فاذا جاءكم كتابى هذا فقاتلوهم ولا تراجعونى) قال راوى القصة : ـ فقاتلناهم فهزمناهم أربع فراسخ .

فالعماد اذن فى كسب النصر ، مع أخذ الحيطة ، التعلق بالله ، وطلب النجدة منه وعدم الاتكال على القوة والكثرة ، فكل ذلك لا يغنى عن أهله شيئا ، لو اتخذوه عمدة ، أبرز شاهد ، على ذلك ، وقعة حنين ، حين أعجب المسلمون أو بعضم فيها بالقوة ، فكانت الهزيمة ، ثم تراجع أهل العزم ، فكسبوا المعركة ، وسجل القرآن ذلك منددا بكل من يعتد بالقوة على أنها وحدها لها السيطرة على الموقف ، فقال تعالى :

﴿ لقد نصركم الله فى مواطن كثيرة ، ويوم حنين اذ أعجبتكم كثرتكم ، فلم تغن عنكم شيئا ، وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنودا لم تروها ﴾

الآية ، كما أنزل سبحانه المنة على المسلمين ، لكسب النصر فى وقعة بدر ، تصور ذلك الآية الكريمة :

﴿ ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة ﴾

قال ابن كثير رحمه الله : ـ اى قليل عددكم لتعلموا ان النصر إنما هو من عند الله لا بكثرة العدد والعدد .

ولا يؤخذ من توجيه الأنظار ، إلى اتخاذ الله عدة ، والتوجه إليه فى الشدة ،

وطلب احراز النصر على العدو والغلبة ، اغفال الجانب المادى فى المعركة ، وتجاهل اعداد القوة ، فتلك اتكالية مذمومة ، يناهضها قول البارىء جل وعلا :

﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ﴾

وليس الاسلام بدين الاتكالية ، فى مختلف مناهجه ولكنه دين القوة ، فيجب ان يتصالح السلاح المادى والروحى ويلتقيا معاً فى خوض المعركة ، كما صنع رسول الله ﷺ فى معركة بدر ، حيث هيأ الجيش وعبأه ، وواجه به العدو ثم عكف فى العريش المعد له ، يدعو الله فى ضراعة والحاج ويناشده النصر الذى وعده حتى هال أمره الصديق رضى الله عنه ، فقال له : (يانبى الله حسبك مناشدتك ربك ، فإن الله منجز لك ما وعدك) .

وكذلك يجب ان ينتهج المسلمون هذا المنهج فى كل معركة ، يرتفع للباطل فيها صوى ، فإن لبدر فى أعقاب الزمن نظائر ، فمعركة فلسطين ، ضد اللقيطه اسرائيل ، لابد لها من الاعداد الهائل لكسب النصر فيها باذن الله وغيرها من المعارك ، الدائرة رحاها بين الكفر والايمان ، فى كل زمن لابد للمسلمين من أن يأخذوا لها دروسا من معركة بدر الفاصلة ، فان واقعها ، يفتح للأمة الاسلامية باب الأمل على مصراعيه بأن العاقبة لحزب الله وجنده ، وإن غشيتهم غواشى الباطل ، وتألب عليهم الكفر ، وضاقت أمامهم السبل ، فإن المدد الالهى ، الذى أمد الله به المسلمين فى بدر إن لم يكن ملائكة ، كما كان فى الماضى ، تقتحم الصفوف ، وتطيح بالرؤوس ، إن لم يكن ذلك فسكينة يربط الله بها على القلوب ، يتجلى فيها الصبر ، والتضحية ، فتذهل العدو وتدحره ، ليتم النصر ، كما وعد الله بذلك ، إذ يقول :

﴿ وكان حقا علينا نصر المؤمنين ﴾

وإن من روعة رمضان وعظمته ، ان يلتقى فيه نصران : نصر على الشيطان بقطع حبل وساوسه ، وضعف سلطانه على النفوس ، واحباط محاولاته فى الحيدة عن الجادة ، والانزلاق إلى مهاوى الرذيلة .

ونصر على حزب الشيطان ، فقد وقعت أحداث بدر فى السنة الثانية من الهجرة ، وفى السابع عشر من رمضان ، فاندحر حزب الشيطان ، وانتصر حزب الرحمن ، وأنزل الله فيه سورة الأنفال ، تحكى الواقعة وتقص المعجزة ، وفى عرض شامل يقارن الله فيه بين الماضى والحاضر ، ويمتن على المسلمين بتكثيرهم بعد القلة ، وعزتهم بعد الذلة ، وأمنهم بعد الخوف ، ونصرهم وتأييدهم فى بدر وغيرها ، يقول تعالى :

﴿ واذكروا اذ أنتم قليل مستضعفون فى الأرض تخافون ان يتخطفكم الناس ، فآواكم وأيدكم بنصره ، ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون ﴾

قال بعض السلف تعليقا على هذه الآية : كان هذا الحى من العرب ، اذل الناس وأشقاهم عيشا ، وأجوعهم بطونا ، واعراهم جلودا ، وأبينهم ضلالا ، من عاش منهم عاش شقيا ، ومن مات منهم ردى فى النار ، يؤكلون ولا يأكلون ، والله ما نعلم قبيلا من حاضر أهل الأرض يومئذ ، كانوا أشر منزلا منهم ، حتى جاء الله بالاسلام فمكن به فى البلاد ، ووسع فى الرزق ، وجعلهم ملوكا على رقاب الناس .

وبعد فكم للإسلام من فضل يفوق سطور الكاتبين ، وكم لرمضان من سر و حكمة اختصه الله بها ارتفعت به عن سائر الشهور ، اللهم أعز الاسلام ، وبارك لنا فى رمضان ، وحسبنا بهذه العجالة اسهاما ، فى الكتابة عن معركة بدر الفاصلة ، تخليدا لذكرها ، وتمجيدًا لعهدها وتذكيراً للأجيال بالبطولات فيها .

في دروب الموعظة

حصيلة المؤمن فى دنياه عمره المحدود ، بالساعات والثوانى ، وكسبه المبذول ، رصيد مدخور بالأعمال ، فهو يتقلب فى العمر ، بقدر ما كتب له من فسحة ، ويكدح فى الكسب ، لتضخيم الرصيد ، ومدار السعادة عند بحث الحصيلة ، على العمر والعمل ، ولذلك كان من بوادر الخير ، طول العمر مع حسن العمل كما جاء فى الحديث (**خير الناس من طال عمره وحسن عمله ، وشر الناس من طال عمره وساء عمله**) فمن كانت حصيلته ملأى بالخير ، فى مختلف طرقه ومناحيه اجتاز دور الاختبار ، دون عناء أو مخاوف ، ووصل إلى الغاية ، دون تعثر وتخبط وحاز صك الغفران كما قال تعالى :

﴿ فأما من أوتى كتابه بيمينه فيقول هاؤم أقرءوا كتابيه انى ظننت انى ملاق حسابيه ـ فهو فى عيشة راضية فى جنة عالية قطوفها دانية كلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم فى الايام الخالية ﴾

وعلى العكس من ذلك من كانت حصيلته مغمورة بالهنات والنزوات تستدعى مناقشة الحساب ، فقد طال عناؤه ، واشتد بلاؤه ، وعظمت نكبته ، وكثر بلباله ، واضطرابه ، ومن نوقش الحساب هلك ، كما جاء فى الحديث • ولقد كان من وافر حظ الأمة الاسلامية وسعادتها ، وكرامة الله لها ، تهيئة فرص الكسب المبرور لقطع لحظات العمر ، فى دروس للطاعة ، واتجاهات نحو الخير ، وسعى حثيث لتضخيم رصيد الأعمال الصاحلة ، فيجب على العاقل الحصيف ، الراشد ، ألاّ

تفلت منه هذه الفرص ، اذا أتيحت والاّ يقتصر على اهتبالها ، وإحراز المغنم فيها ، أمدا من الزمان ، ثم ينقض ما أبرم وأحكم ، بعد انقضائه وينكص على عقبيه ويستدبر ما استقبل ، يستدبر الطاعة بالمعصية ، ويستبدل الذى هو أدنى بالذى هو خير فتلك هى النكسة المردية والخسارة الفادحة ، ولقد كان من أجل الفرص وأعظم مجالات الكسب وأشرف ميادين العمل لاحراز أضخم رصيد يعتدبه المسلم ، يوم تبيض وجوه وتسود وجوه ، هى فرصة شهر رمضان ، فلقد أخذ المسلم فيه دروسا عملية ، فى الصلاح والطهر والاستقامة ، والتقى ، والسير على نهج الهدى ، ونصر الفضيلة على الرذيلة ، فعليه أن يسير فى هذا النهج الراشد ، الذى اعتملت به نفسه ، وأشرب قلبه حبه ، واندفع فيه شهرا كاملا دون كلل أو ملل ٠

عليه أن يتبع الحسنة بالحسنة ، وما أجمل الحسنة تتبع بالحسنات وما أقبح الحسنة تردف بالسيئات ، إنها عامل على ضياع مجهود العبد ، وكسبه السابق ، وحرمانه من ثماره ٠ نقل عن بعض السلف : من ثواب الحسنة ، الحسنة بعدها ، فمن عمل حسنة ثم اتبعها بحسنة ، كان ذلك علامة على قبول الحسنة الأولى ، كما أن من عمل حسنة ثم اتبعها بسيئة كان ذلك علامة رد الحسنة ، وعدم قبولها ، ثم ان فى استدامة العبد على النهج الراشد الذى التزمه برهانا يدلل به ، ان شعوره نحو العبادة ، وتقديره للمسؤولية الملقاة عليه كعبد لله مفروض عليه الطاعة لربه ، لا يقتصر على أمد معين ، أو شهر مخصوص ، أو بلد فاضل دون غيره ، بل هو شعور غمر نفسه ، لا يفتأ يستجيب لندائه يصرخ به ، فى أعماق نفسه ، ويردد له قول ربه :

﴿ واعبد ربك حتى يأتيك اليقين ﴾

أى الموت كما جاء فى تفسيره ، وما دامت هذه اللحظة الحاسمة فى حياة العبد ، غيبا مرتقبا فى كل لحظة :

﴿ إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ﴾

مادامت هذه اللحظة غيبا محتملا أن يفاجأ به العبد فى أى ساعة من ساعات عمره ، فمن الجدير به ، أن يكون على الأهبة ، ويأخذ الحذر من أن تأتيه على غرة ، وهو فى غمرة السهو أو صهوة اللهو ، وعندئذ يندم على التفريط ، ويندم على مجانبته للمسلك الراشد ، الذى كان له به الحظوة العظمى بالقرب من ربـه ، والازدلاف إليه بمحابـه ، والارتفـاع إلى مدارج السعــادة ، واللحــاق بركب الصالحين ، ونجائب المقربين ، ولو أن امرءا قدر له ان يربح السوق بحسن عرضه للسلع ، وسعيه المتواصل دون كلل أو زهادة فى المغنم ، ثم قعد بعد ذلك عن سعيه ، أو انعكس فى مسلكه ، أفلا يمنى بالخسارة الفادحة جزاء سوء تصرفه ، وقعوده عن سبب سعادته ؟ وذلك مثل واقعى ، نضر به لندلل على أن التوانى فى مجال الكسب الدينى ، بعد الربح الوفير ، الذى يحرزه العبد فيه ، والقعود عن الأخذ فى سبيل الخير ، خطأ أيما خطأ وحرمان لا يصير إليه الا الاغرار ، فكيف بمن يتنكب السبيل ويعود إلى الصبوات والنزوات ، ومقارفة الآثام ، ويغدو بعد الحزم والعزم فى انتهاج أفضل مسلك ، وكأنه انفك من اسار ، وانطلق من عقال ، لاجرم أنه يكون أعظم حسرة وأشد خسارة عندما تنكشف الحقائق ويزاح عن الأعين الغطاء ويتحدد يوم الجزاء .

﴿ ونفخ فى الصور ذلك يوم الوعيد وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد ﴾ .

سائق يسوقها الى الله ، أو المحشر وشهيد يشهد عليها بما عملت فى الدنيا .

﴿ لقد كنت فى غفلة عن هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد ﴾

وبعد فقد يعلق بذهن البعض أننا بدعوتنا هذه إلى التمسك بهذا المنهج الراشد ، الذى أخذ المرء به نفسه فترة من الزمن ، معرضا عن متع الحياة انما ندعو إلى الزهادة فى الدنيا ، والتقشف وترك الأسباب والعكوف فى المساجد ، للذكر والشكر

وعمل القرب دون اتخاذ خطوات لها أثرها فى الحياة ، إنما نقرر مبدأ رسمه رب العزة للعباد للأخذ بعمارة الدنيا دون انصراف إليها وغرور بها ، والأخذ بوسائل النجاة لعمارة الآخرة دون تزمت وتقشف دون اعراض عن السير فى منـاكب الأرض طلبا للرزق وقصدا للسفر فى مختلف دروبها كما قال تعالى :

﴿ وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا ﴾

وكما جاء فى الأثر :

(اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا وأعمل لآخرتك كأنك تموت غدا)

غير أن تطبيق هذا المنهج وعدم طغيان الروحانيات على الماديات ، أو العكس ، هو مما تتفاوت فيه العزائم ، وتختلف فيه التقديرات والمفاهيم ، فلابـد اذن من ضابط أو معيار يصحح الخطأ ويهدى الى الرشاد ، وهو ملحوظ فى أخذ الأسوة الصالحة ، والقدوة الحسنة ، بخيار الأمة ، فى كل زمان ومكان ، ولن تعدم الأمة الخيرين فى كل حين إلى قيام الساعة ، سدد الله الخطى .

❋❋❋

أثر تربية المسجد

عمارة المسجد كانت ضربا من التربية التى ربّى بها رسول الله ﷺ جيلا هو نواة للمجتمع الصالح الراشد ، فلقد كان المسجد مسجد رسول الله ﷺ هو المدرسة الثانية للاسلام التى أخرجت أساتذة العالم ، وأئمة الهدى والدعاة الى الخير وأساطين العلم وقادة الفكر ، كان فى صفة المسجد جمع من الصحابة رضوان الله عليهم فرغوا أنفسهم لتلقى كل ما ينزل من الوحى قرآنا ، وكل ما يصدر عن سيد الأنام ﷺ من تعاليم ، لم تفتهم شاردة أو واردة ، الا أحصوها وحملوها للناس هديا يهتدون به واشعاعا ينير لهم ما أدلهم من الطريق ، وكانوا يصحبون الرسول الكريم ﷺ فى سفره ويتقدمون الجيش فى الغزو إلى لقاء العدو فلم تكن الصلاة وحدها الهدف من عمارة المسجد ، وان كانت أبرز أهدافه وهى المقصودة بادىء ذى بدء من عمارته بل كان إلى جانبها التربية والتقييم ومعالجة القضايا الاسلامية وبعث الجيوش كما وصف هذا الواقع أحد العلماء الذين عنوا بالكتابة فى البحوث الاسلامية وأهداف الاسلام فقال : (اتخذ الرسول ﷺ من المسجد مركزا للدعوة يصلى فيه بالمسلمين ويبلغ فيه ما أنزل الله إليه من ربه ويلقى فيه الوفود ويعقد مجالس العلم والمشاورة) .

ولم يكن أصحاب الصفة وحدهم أبناء مدرسة النبوة بل كان كل من رباه الرسول ﷺ على عينه ، وكان له شرف المثول بين يديه ومشاهدة أنواره كان من أبناء مدرسته الذين فتحوا العالم ومصروا الأمصار وكانوا كما أسلفنا القول أئمة فى الدين ودعاة إلى الخير وأساطين فى العلم وقادة فى الرأى ، ولهذا نجح المسجد

أيما نجاح فى تأدية رسالته فكان إلى جانب عمارته بأداء الصلوات ملتقى المؤمنين ومركزا للعلم والدين ومعقلا للدعوة ومجلسا للندوة ، ومنطلقا للفتوح • فما هو أثر هذه التربية للمسجد فى نفسيات أبناء مدرسة النبوة ؟ تستجلى ذلك من الواقع التاريخى حيث يحدثنا عن موقف ربعى بن عامر رضى الله عنه أمام قائد الفرس فى بعض الفتوحات الاسلامية سأله القائد قائلا ، ما جاء بكم إلينا ؟

فقال معتدا بتربيته الاسلامية معتزا بصلته بربه (ابتعثنا الله لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ومن جور الأديان إلى عدل الاسلام) •

ويحدثنا أيضا أى الواقع التاريخى عن أعرابى هاجر إلى رسول الله ﷺ وانضم إلى أصحابه فلما كانت غزوة خيبر قسم رسول الله ﷺ للأعرابى من الغنيمة فقال : ما هذا يارسول الله ؟ قال : قسم قسمته لك من الغنيمة فقال له الأعرابى : ما على هذا اتبعتك ولكن اتبعتك على أن أرمى بسهم فأموت فأدخل الجنة • ومن هذين المثلين يظهر أثر المسجد وتربيته لأبناء مدرسة النبوة إذ كان المسجد كل شىء أخرج جيلا ، وأنشأ أمة كانت كما وصفها رب العزة :

﴿ خير أمة أخرجت للناس ﴾ •

ومثل ثالث نردفه بالمثلين يوحى بمدى شعور هذا الجيل بتربية المسجد وبرقابة الله فى الخلوة والجلوة فيحرص أشد الحرص أن يبلغ رضاه وأن يبتعد عن كل ما نهاه فى فتوح المدائن وعندما أخذ المسلمون يجمعون الغنائم أقبل أحدهم بوعاء قال عنه أمين الأقباض:ما رأينا مثل هذا قط وما يعدله ما عندنا ولا يقاربه أى لنفاسته وندرته فسألوا • من جاء به هل أخذ منه شيئا فقال والله لولا الله ما أتيتكم به فعرفوا أن للرجل شأنا فسألوه من أنت قال ـ لا أحدثكم لتحمدونى ولكن أحمد الله وأرضى بثوابه •

يقول بعض المؤرخين تعليقا على هذه القصة ، امتلأت قلوبهم إيمانا وهانت

فى أعينهم كل قيم الحياة الزائفة حتى ولو كانت قيمة الملك وزخارف الملوك لأنهم عرفوا قيمة الايمان بالله والصلة به وآمنوا بضلال كل ما قام فى الحياة على غير هذا الأساس •

أولئكم أبناء مدرسة النبوة خريجو المسجد فأين منهم أبناء الجامعات فى أعقاب الزمن وخريجو الفلسفات ؟ الجواب عن ذلك نستمع إليه مما سطره بعض المربين يشرح به الواقع المرير لبعض من ملأوا الدينا صخبا بمؤهلاتهم وتعالوا على الناس بانتسابهم إلى جامعات الغرب نستمع إليه وهو يقارن بين تربية المسجد وبين تربية الجامعات أو بعضها فى العصر الحديث • فيقول : لقد نجحت تربيته ﷺ نجاحا ليس له فى تاريخ البشر مثيل ووصل بمجتمع المدينة فى واقع الحياة إلى غاية من الرفعةلم يبلغها الفلاسفة والمفكرون ، ولقد تطورت مناهج التربية فى العصر الحديث تطورا كبيرا وتعددت أساليبها وكثرت وسائلها وأسست لها المعاهد وهيئت لها كل أسباب النجاح ورغم ذلك مازالت المجتمعات الحديثة تعانى من التحلل مما ينذر بشر مستطير •

ذلك لأن العلم مهما تعددت الوسائل اليه واتسعت أبعاده لا يكفى فى السمو بالمجتمع إلى آفاق يتعالى فيها عن المآخذ والهنات بل لابد من ترتبيته وفق المنهج النبوى الذى خطط له قدوة المربين وسيد الثقلين ﷺ عن وحى يوحى به إليه أحكم الحاكمين • وعن خلق كان من شأنه ﷺ ان يركز عليه ويوجه إليه فمتى اجتمع الخلق والعلم نجحت التربية وآتى العلم ثمارة سواء كانت فى المسجد أو الجامعة وتكون المجتمع الراشد المسدد الصالح المصلح،بقيت كلمة عن اشتغال السلف بالقرآن فيما نقله الامام الأوزاعى من منهجهم ، ولن نطيل فى ذلك فلقد كانت أوقاتهم أبدا معمورة بتلاوته فى النهار والقيام به فى الليل ، وخاصة فى الأيام والليالى المفضلة ، أصدق ما يصور واقعهم فى ذلك قول رب العزة :

﴿ كانوا قليلا من الليل ما يهجعون ﴾

وكانت تلاوتهم للقرآن عن وعى وتدبر وعمل بما يقرأون • وصف الصحابى الجليل عبدالله ابن مسعود رضى الله عنه واقع قارىء القرآن وهو إنما يحكى واقعا لمسه فى أبناء مدرسة النبوة ، قال : قارىء القرآن يعرف بليله اذ الناس نائمون ونهاره اذ الناس يفطرون أى يصوم النهار ويقوم الليل وببكائه اذ الناس يختالون وبحزنه اذ الناس يفرحون ـ نسأل الله التوفيق للسير على نهجهم والأخذ بسنتهم •

الإحسان تتسع فيه الأبعاد

من يصنع الخير لايعدم جوازيه   لايذهب العرف بين الله والناس

هذا البيت من الشعر قد سار سير المثل فى الأخذ بوحيه لدى الحصفاء أرباب النهى والسير طبق تخطيطاته ، بله التمثل به فى كل مناسبة وترديده كلما عزّ فى الناس عمل الخير ، أو كلما تطلع صانع المعروف إلى تعويض على فعله لاعلى سبيل المقايضة ممن أحسن إليه بل من مصدر الخير ورب الناس أجمعين ـ فصنائع المعروف تقى مصارع السوء وفى الأثر « **الخلق عيال الله أحبهم إلى الله أنفعهم لعياله** » ومصرع السوء نقمة يدفعه الاحسان إلى الخلق فى مختلف دروب الاحسان ومحبة الله لعبده منقبة ، وفضل يحصل عليه المسلم بالنفع يبذله لعباد الله ، والخير يصنعه ابتغاء مرضاة الله وتخفيفا لوطأة البؤس عن خلقه ، وبذلك يكون التعويض الذى تقربه العين وتبتهج له النفس • وان لم يقع على بال المحسن أو فى حسابه لقد مررت فى مطالعاتى بقول لأحد الوعاظ يصور واقع تعويض المحسن ومقابلة الاحسان بالاحسان ، إحسان الخالق لخلقه لقاء بذل الخير لعباده ، فيقول أى الواعظ (ما بين ترى الله عليك فيما تحب الا أن تعمل فيما بينك وبين خلقه فيما يحب فعند ئذ لا تفقد بره ولا تعدم فى كل أمر خيره) •

وإن للمرء مطالب ومكاسب يرجو بلوغها وتحقيقها ووسيلة ذلك والحظوة بالمطلوب وتحقيق المرغوب هو بذل الخير للغير وتحقيق أمله والسعى لمصلحته وتخفيف وطأة الحياة عليه • فاذا بلغ المرء الذروة فى ذلك أو كان ما يصنعه من

الخير للغير هو جهد المقل فلن يعدم حينئذ بلوغ أمنيته فى كل خير يرجوه ، ولن يفقد تتابع النعم عليه بما فيه ذلك الوقاية من مجالب ، والاحسان إلى الخلق تتسع فيه الأبعاد فيشمل كل بر وصلة ودفاع عن المسلم بالحق ، وصيانة لماله أو عرضه وما إليه مما يدخل فى إطار الاحسان الضافى كما جاء فى الحديث مما يصور اتساع ابعاد الاحسان (**تعدل بين اثنين صدقة ، وتعين الرجل فتحمله على دابته أو تحمل له عليها متاعه صدقة ، وأمر بالمعروف صدقة ، ونهى عن المنكر صدقة ، والكلمة الطيبة صدقة**) وفى حديث آخر (**لا تحقرن من المعروف شيئا ولو أن تفرغ من دلوك فى إناء المستسقى ، ولو أن تعطى صلة الحبل ، ولو أن تعطى شسع النعل ولو أن تنحى الشىء من طريق الناس يؤذيهم ، ولو أن تلقى أخاك ووجهك منطلق ولو أن تلقى أخاك فتسلم عليه**) الحديث - فلن يعدم صانع المعروف فى أى مجال من مجالات التعويض جزاء صنيعه ولن يفقد البر من ربه ووصله بمدده ·

وعلى العكس من ذلك لو أمسك الناس عن الخير وصنع الجميل وبذل المعروف فى كل دروبه اذن لتحولت النعم عنهم جزاء وفاقا ، ولا يظلم ربك أحدا روى عن رسول الله ﷺ (**إن لله عند أقوام نعما أقرها عندهم ما كانوا فى حوائج المسلمين مالم يملوها**) أى مالم يقعدوا عن قضاء حوائج المسلمين ويتركوها استهانة منهم أو تقاعسا فاذا ملوها نقلها إلى غيرهم ·

وعلق بعض العلماء على هذا الحديث بقوله : إن للجاه زكاة تؤدى كزكاة المال ، فاذا رزقك الله سيادة فى الأرض أو تمكينا بين الناس فليس ذلك لتنتفخ بعد إنكماش أو تزهى بعد تواضع إنما يسر الله ذلك ليربط بعنقك حاجات لا تقضى الا عن طريقك ، فان أنت سهلتها قمت بالحق المفروض وأحرزت الثواب الموعود ، والا فقد جحدت النعمة وعرضتها للزوال ·

ومن أجل ذلك كان الخيرون من سلف هذه الأمة وخلفها لا يقعد أحدهم

عن بذل المعروف ما استطاع إلى ذلك سبيلا لايمل من وساطة الخير والشفاعة الحسنة يبذلها لمستحقها ، لأنهم يرون أن قضاء مصالح العباد قربة الى الله ، فبذل الخدمات العامة على هذا الاعتبار والتفانى فى قضاء مصالح العباد وخاصة من يملك ذلك بأى وسيلة وتقيد بها على كل غرض للنفس أو إيثار أرباب الحاجات على نفسه هو من أبرز مظاهر الإخاء الصادق بالولاء الاسلامى الذى صوره الرسول الكريم بقوله : (**المؤمن للمؤمن كالبنيان يشده بعضه بعضا**) اذ لولا هذا الشد لوهى البناء وتداعى فلم يعد ثمة أخوة صادقة أو ولاء بمعناه يتحقق به قول رب العزة :

﴿ المؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض ﴾

سدد الله الخطى .

❋❋❋

عيدي مقيم وعيد الناس منصرف

هذا شطر من بيتين للشاعر يصف بها واقعه فيقول :

عيدى مقيم وعيد النـــاس منصرف والقلـب منـــى عن اللـــذات منحرف
ولى قرينـــان مالى منهما خلف طول الحنـــين وعـــين دمعهـــا يكف

ولعل من خير ما يوضح لنا فلسفة الشاعر فى بيته ، قول الحسن البصرى رحمه الله ، فالشاعر والحسن ينزعان من معين واحد ٠

يقول الحسن : إن كل يوم لا يعصى الله فيه ، فهو عيد ، وكل يوم يقطعه المؤمن فى طاعة مولاه ، وذكره وشكره فهو عيد ٠

ومن ثم يلتقى مع الشاعر فى مذهبه ، واتجاهه ، اذ يرى أى الشاعر نفس الرأى الذى يتجه اليه الحسن فعيده مقيم أبدا ـ لا ينصرف ـ قلبه معلق بالله ، ونفسه منصرفة عن اللذات ، وحنينه أبدا إلى ربه ورضائه ، والعمل بطاعته ، وذكره وشكره ، وحسن جزائه ، فهو أبدا فى عيد لا تنقضى أيامـه ، ولا يغيب زمانه ٠

وليس كل الناس يتجه هذا الاتجاه ، الذى اتجـه إليه الحسـن والشاعـر صاحب البيتين آنفى الذكر ففى الناس من تطغى عليه الفرحة بالعيد ، فتستبد بمشاعره ووجدانه ، لدرجة تنسيه الواجـب من شكر النعمـة ، والمفـروض من الاعتراف بعظيم المنة ، للمنعم العظيم ، وتدفعه إلى الزهو بالجديد ، والاعجاب

بالنفس ، لدرجة المخيلة ، والتباهى ، والكبر ، والتعالى ، وفى الناس على العكس من ذلك فكم من عزيز ذل بعد العزة ، فاهتاج منه العيد أشجانه ، وحرك فى نفسه أحزانه ، وآلامه فاستقبل العيد ، واضعا على عينيه منظاره الأسود ، وطفق يردد مع أبى الطيب بيته العاطفى ٠

عيـــد بآيـــة حـــال عـــدت يـــا عيـــد

عله يجد فى الترديد لنفسه العزاء ، وقد ذاقت البؤس الوانا ، وتجرعت الصاب والعلقم ، بعد رغد العيش ووفرة النعيم ، وبعد طيور السعد ، التى كانت ترفرف على ربوعه ، تشدو بنغمات العز ، فوق أفنانه ، وبعد آثار النعيم الذى كان ينعم فى ظلاله بالخدم ، والحشم ، بله الأهل والولد ، والصديق ، وعلى سبيل المثال ، أذكر لهذا النوع ، ممن تجرع البؤس ، وتقلص ظل السعد عنه ، بعد امتداده ، أذكر المعتمد أحد ملوك الطوائف ، كان إلى جانب الملك والسلطان ، أديبا بارعا ، وشاعرا مطبوعا كان يقوم فى رحابه للأدب سوق رائجة ، حيث جعل للشعراء يوما يفدون عليه ، يسمع شعرهم ويجيز الفائز منهم ، كان كلفا بالنساء ، حتى ضرب الرقم القياسى فى احتجاز قسم كبير منهن ، قيل كان فى حريمه نحو من ثمانمائة امرأة ، وكان أحب زوجاته إليه ، وأكثرهن حظوة عنده ، جارية بارعة الجمال ، تدعى اعتماد ، بلغ من كلفه بها واستجابته لرغبتها ، أنه كان لايرد لها أمرا ، ولا يرفض لها حاجة مهما كلفه ذلك ، رأت الناس ذات يوم ، يخوضون فى الطين ، فتمنت ذلك ، فأمر المعتمد ، فسحقت الأطياب ، وذرّت فى ساحة القصر ، ثم نصبت الغرابيل ، وصب فيها ماء الورد ، على الأطياب ، وعجنت بالأيدى ، حتى غدت كالطين فخاضته اعتماد مع جواريها ، وظفرت من المعتمد بأعظم مما تمنت ، ثم دارت الأيام دورتها فهوى المعتمد عن كرسى عزه ، ومجده ، وذاق مر العيش فى أواخر أيامه ، فخلع ونفى واعتقل وكبل بالحديد ، وكانت معه زوجة المحظية اعتماد ، وبناته ، فكن يغزلن للناس بالأجرة ، للحصول على سد الرمق ،

وقيام الأود ، رأى المعتمد وقد لبس ثوب الذل أهل البلد يقصدون المسجد للاستسقاء فهزته شاعريته وأنشد :

خرجوا ليستسقوا فقلت لهم دمعي ينوب لكم عن الأنواء
قالوا : حقيقا في دموعك مقنع لكنها ممزوجة بدماء

ودخل عليه بناته يوم عيد ، في أسمال بالية ، فأهجن في نفسه ذكرى الماضي السعيد ، وأعدن إلى ذاكرته ، أيام الأعياد ، وهو في أوج عزه ومجده ، إذكنّ يلبسن أفخر الثياب ، ويتزّين بأجمل الزينة ، فأرسل دمعه حرى ، وأنشد قصيدة كلها الأسى والحزن ، واللوعة ، وهكذا كم من عزيز ذل فاهتاج العيد في نفسه ، ذكريات أيامه الناضرة ، وعيشه الرخي الناعم ، فبكى لاشراق يوم العيد ، بدلا من الفرحة بروعة الجديد ، وأنى له بالجديد ، كم من يتيم تلفت في العيد ، ينشد عطف الأبوة الحانية ، ويتلمس حنان الأم الرؤوم ، يوم البهجة والفرحة ، ويرنو إلى من يمسح رأسه ، ويخفف بؤسه ، ويعزيه في مصابه ، وينسيه مرارة اليتم ، وألم الحرمان ؟ كم من أرملة عضها الدهر بنابه ونزلت بها الفاقة ، بعد فقد العشير ، طلع عليها العيد ، فاستذكرت بروائه ماضي عزها ، وسابق أيامها الباسمة عندما كانت تطلع عليها الأعياد ، واذا هي الآمرة الناهية في بيت العز ، وتحت كنف الزوج العطوف ؟

فكما أن للعيد في نفوس الكثيرين روعة وجلالا ، وبهجة ينشأ عنها السرور والغبطة ، وكما أن للناس مذاهب فيه كمذهب الحسن البصري وشاعر البيتين فكذلك يكون للعيد في ربوع البعض وحشة وحسرة وحرقة ، تمنع من الاستمتاع به كعيد له روعته وجلاله ، ورونقه ، فالذين استبدلوا بعد العز ذلا ، وبعد الرخاء والهناء فاقة ، وفقرا ، وبعد الصحة مرضا ، وبؤسا ، وبعد الجاه والسلطان انكماشا وتقلصا ، كل اولئك وامثالهم ينظرون الى العيد كعامل لاستثارة الاشجان وتحريك الآلام والأحزان ، ويتمنون أن يكونوا بمنأى عن العيد ، ومباهجه ، وأفراحه ، لأن

كل مافيه من روعة ، وكل ما يتمتع به المجدودون فيه من آثار النعمة ، ليس إلا وخزا لنفوسهم الاليمة ، وكسرا لقلوبهم الجريحة الحزينة ، وخير لهم الرضاء بنعمة الله وقدره ، وقضائه ، الذى قدره فى أزله خير لهم من بكاء أيام السعد ، والتطلع إلى سابق العهد ، فالماضى قد ذهب بخيره وشره ، وقضاء الله نافذ ، لا يرده اجترار الأحزان ، أو بكاء الأطلال ، أو الأسى لمرارة الحرمان ، او الحسرة ، وتهاطل الدمع على فقد الأحبة ، ولعل من المثالية فى أرفع ذروة ، ان نذهب مذهب الحسن والشاعر ، فيكون عيدنا مقيما أبدا ، فكل يوم لانعصى الله فيه فهو عيد ، تدركنا بركته ، ونفرح به ، وكل يوم نقطعه فى طاعة الله وذكره وشكره ، فهو عيد ، نربح فيه المغنم ، ونفرح بكريم الجزاء ، وصدق الله اذ يقول :

﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا ﴾ .

❋ ❋ ❋

إن من البيان لسحرا

إن من البيان لسحرا إذ يستهوى الألباب ، ويأخذ بمجامع القلوب ، ويكون له الوقع الحسن ، فى النفوس ، فينقل السامع من حال الى حال ٠ كصنيع السحر ، اذ يصنع بالمسحور ، وكم فى كلام البلغاء والأعراب ، من بيان كان له التأثير ، وتوقيف العواطف ، وكسب الموقف ، او التسرية عن محزون ، أو توجيه النظر إلى واجب ، وعلى سبيل المثال نورد بعضا من أبيات لقتيلة بنت الحارث ، أخت النضر ، بعد ان أمر الرسول ﷺ بقتل أخيها لعدائه للاسلام ، وإقذاعه فى هجائه ، فقال الرسول الحليم ، بعد أن سمع أبياتها ، لو بلغنى هذا الشعر قبل قتله لمننت عليه :

ياراكبا ان الأثيل مظنة من صبح خامسة وأنت موفق
أبلغ بها ميتا بأن تحية ما ان تزال بها النجائب تخفق
منّى اليك وعبرة مسفوحة جادت بواكفها وأخرى تخنق
أمحمد يا خير ضنىء كريمة فى قومها والفحل فحل معرق
ما كان ضرك لو مننت وربما منَّ الفتى وهو المغيظ المحنق
أو كنت قابل فدية فلننفقن يا عزَما يغلوبه ما ينفق
فالنضر أقرب من أسرت قرابة وأحقهم ان كان عتق يعتق

ولا يغربن عن الأذهان ، قصيدة كعب بن زهير ، اللامية ، إذ جاء للرسول ﷺ تائبا ، مسلما ، فصفح عنه ، واستمع لقصيدته ، فوقعت منه موقعا حسنا ،

وكان منها فى مدح الرسول :ـ

إن الرسـول لنـور يستضـاء بــه مهنـد من سيوف اللـه مسلـول

وهى معلومة مشهورة سارت بخبرها الركبان ، وعدّها البلغاء من عيون الشعر ، وفى النثر مثل الشعر ، قول فصل ، وبيان جزل ، وحكمة وروعة فى الخطاب . نقل من كلام أبى الدرداء رضى الله عنه :ـ السؤدد اصطناع العشيرة ، واحتمال الجريرة ، والشرف كف الأذى ، وبذل الندى ، والغنى قلة التمنى ٠

والفقر شره النفس ، وفى كل فقرة من هذه الفقرات حكمة ورشاد ومنطق جزل ، فيه السداد ٠ ومن موجز كلام أبى ذر رضى الله عنه ، مما فيه الروعة ، وفصل الخطاب ، قوله : (ان لك فى مالك شريكين ، الحدثان ، اى صروف الدهر ، ونوائبه ، والوارث فان قدرت الاّ تكون أخس الشركاء فأفعل) ٠ وفيما نقل عن أمير المؤمنين ، عمر بن عبدالعزيز رضى الله عنه ، للعظة والتذكر ، قوله : (اياك أن تفخر بقولك وأن تعجب بنفسك ، أو يخيل إليك ، أن ما رزقته ، لكرامة بك على ربك ، والا فقد أخطأت الشكر ، ونزلت منازل أهل الفقر ، وكنت ممن طغى للغنى ، وتعجل طيباته فى الحياة الدنيا) ٠ ومن روائع ما نقل عن بلاغة الأعراب ، وجزالة بيانهم ، واصابتهم الأهداف فى أقوالهم ، قول أعرابى دخل على الرشيد ، فقال : (يا أمير المؤمني ، ثبت الله عليك النعم ، التى أنت فيها ، بأدائك شكرها ، وحقق لك النعم التى ترجوها ، بحسن الظن به ودوام طاعته ، وعرفك النعم التى أنت فيها ، ولا تعرفها لتشكرها ، فأعجب الرشيد ذلك من الأعرابى وقال ما أحسن تقسيمه) ٠

ونحن بدورنا ، وقد أخذنا بروعة قول الأعرابى ، وكان له الوقع الحسن فى نفوسنا ، نريد أن نقف معه عند كل فقرة ، لنستجلى ما توحى به ، فهى تربية من حقنا أن نفيد منها ، ولقد كفانا العلامة ابن القيم رحمه الله ، كدّ الذهن ، وبسطة القول ، فيما رسمه الأعرابى ، عن النعم التى تتم بها المتعة ، سواء ماكان منها حاضرا ، يستوجب الشكر أو غائبا ترجو تحقيقه ، والعمل على استجلابه بالطاعة

او كانت نعمة لاندركها او نجهل دروبها فكم لله من نعم على عباده ، ظاهرة أو باطنة ، والشكر عليها واجب اقول : كفانا ابن القيم رحمه الله البحث عن تقسيم هذه النعم إذ يقول (النعم ثلاث ، نعمة حاصلةلا يعلم بها العبد ـ ونعمة منتظرة يرجوها ـ ونعمة هو فيها ، لا يشعر بها ، فاذا أراد الله إتمام نعمته على عبده ، عرفه نعمته الحاضرة ، وأعطاه من شكرها قيدا يقيدها ، حتى لا تشرد ، فانها تشرد بالمعصية وتقيد بالشكر ، ووفقه لعمل يستجلب به النعمة المنتظرة ، ويبصره بالطريق التى يسدها ـ يقصد عرفه بالطريق الذى يمنع وصول هذه النعمة ، ويقطع طريقها ووفقه لاجتنابه ـ واذا بها قد واتت اليه على أتم الوجوه ، وعرفه النعم التى هو فيها ولا يشعر بها)

وان فى هذا البسط غنية عن أى إيضاح للكشف عن بلاغة الأعرابى ، آنف الذكر وروعة بيانه وإبداعه ، فى تقسيمه للنعم ٠

وبهذا العرض قد جمعنا بين غرضين شريفين ، أولها البيان وماله من التأثير فى بلوغ الغرض ، والوصول إلى الأهداف ، وخاصة إذا كان فى مجال التوجيه ، لأن الاسلوب المتهافت ، والعبارات المكررة ، المملولة ، والاعتماد على إيراد النصوص فقط دون العناية بحسن العرض ، والاشراق فى الاسلوب ، والاضفاء عليها من بيان الواعظ والموجه أقول : ان ذلك لا يكسب به صاحبه الموقف ولا يكون له من التأثير على النفوس ما يجعلها تستجيب للتذكير ٠

الأمر الثانى ـ التفنن فى تقسيم النعم ، بحسب واقعها ، وان منها نعما حاضرة ، يدركها المرء ، ومنتظرة ، يأمل تحقيقها ، وحاضرة ، لا يشعر بها ، وكلها تتطلب الشكر ، والتوفيق إليه ، والتجافى عن أسباب زوالها ، فمن وفق إلى ذلك ، كان سعيدا ، بترادف النعم عليه ، قرير العين ، باستدامتها ، وصدق الله اذ يقول :

﴿ وإذ تأذن ربّكم لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابى لشديد ﴾ ٠

وصية الإمام جعفر الصادق ﷺ لابنه

ما أروع الوصايا الهادفة وصايا الآباء للأبناء ، فى رسم خط السير ، وسط خضمّ الحياة ، انها عصارة الفكر ، تهدى إلى فلذات الأكباد ، فتصحح اتجاههم ، وتعصمهم بعصمة الله ، عن الانحراف عن الجادة ، أو تبصرهم بالواجب ، أو تفتح أمامهم أبواب الخير ، ليستبقوا ميادينه ، فكيف إذا كانت الوصايا من بيت النبوة ، مصدر الاشعاع والهداية ، ومعدن الطهر والتزكية ، لقد كان لنا فى حديث سبق شرف الوقوف على توجيه الامام جعفر بن محمد بن على ابن الحسين الملقب بالصادق للامام سفيان الثورى .

ونتابع توجيهه فنستمع إلى وصيته لابنه وهو يوجهه ويقول : (يابنى اقبل وصيتى واحفظ مقالتى فانك ان حفظتها ، عشت سعيدا ومت حميدا ، يابنى من رضى بما قسم له استغنى ، ومن مدّعينه إلى مافى يد غيره مات فقيرا ، ومن لم يرض بما قسمه الله ، اتهم الله فى قضائه ، يابنى من كشف حجاب غيره ، انكشفت عورات بيته ، لعله يشير رضى الله عنه إلى خطبة الرسول ﷺ التى جاء فيها (**لا تتتبعوا عورات المسملين فمن اتبع عورة أخيه المسلم اتبع الله عورته ومن يتبع الله عورته ، يفضحه ولو فى جوف رحله ، أى بيته**) يابنى من سل سيف البغى قتل به ، ومن احتفر لأخيه بئرا ، سقط فيها ، ومن داخل السفهاء حقر ، ومن خالط العلماء وقر ، يابنى اياك والدخول فيما لايعنيك ، فتذل ، يابنى كن لكتاب الله تاليا ، ولله ذاكرا ، وللسلام فاشيا ، وبالمعروف آمرا ، وعن المنكر ، ناهيا ، ولمن قطعك واصلا ، ولمن سألك معطيا ، وإياك والنميمة ، فانها

تزرع الشحناء فى قلوب الرجال ، يابنى إذا طلبت الجود ، فعليك بمعادنه ، فان للجود معادن ، وللمعادن أصولا ، وللأصول فروعا ، وللفروع ثمرا ، ولا يطيب ثمر الاباصول ، ولا أصل الا بمعدن طيب ، يابنى ان زرت فزر الأخيار ، ولا تزر الفجار ، فانهم صخرة لا يتفجر ماؤها ، وشجرة لا يخضر ورقها ، وأرض لا يظهر عشبها) قال راوى الوصية ، فما ترك الابن هذه الوصية ، إلى أن توفاه الله ، وانها لوصية عامرة بالمثل الكريمة ، والمناهج الخيّرة الراشدة ولو وقفنا عند كل فقرة منها ، لنترجم عن أهدافها ، لأخذ منا الكثير من الوقت ، لذا آثرنا سردها ، مكتفين بما تفيده ، من تربية للأجيال الصاعدة ، فهى وصية كل والد لولده ، بل هى فى واقعها ، لكل متعطش للخير ، متلمس لدروبه ، وخاصة فى أعقاب الزمن ، حيث يفتقر الناس فى كل مجال من مجالاتهم ، للنصح والتقويم ، والدلالة إلى أقوم السبل ، فلقد تشعبت بالناس السبل ٠٠ ننتقل بعد ذلك إلى شيء ، من حكمه ومواعظه ، قال رضى الله عنه : لا زاد أفضل من التقوى ، وهى مأخوذة من قول الله جل وعلا :

﴿ وتزودوا فان خير الزاد التقوى ﴾

ولا شيء أحسن من الصمت ولا عدو أضر من الجهل ، ولا داء أدوى من الكذب ، يشير إلى قوله ﷺ (**وإياكم والكذب فان الكذب يهدى إلى الفجور وان الفجور يهدى إلى النار ولا يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب ، حتى يكتب عند الله كذابا**) وحسب المسلم بذلك داء وليس له من دواء ٠

ومن توجيهه فى التنفير من القياس فى الدين ، ولعله يتضمن معنى حديث جاء فيه (أول من قاس برأيه ابليس) قال الله تعالى له : اسجد لادم ، فقال : أنا خير منه ، خلقتنى من نار وخلقته من طين ، فمن قاس فى الدين برأيه ، قرنه الله تعالى يوم القيامة بابليس ، لأنه اتبعه بالقياس ولعل الامام رضى الله عنه يقصد القياس مع النص ، أو تقديم الرأى والاجتهاد عليه فلو وجد الدليل فلا

مندوحة عن المصير إليه ، يوضح ذلك قول معاذ رضى الله عنه عندما بعثه الرسول ﷺ إلى اليمن قاضيا ومعلما للخير ، وأراد أن يختبر موهبته فقال : كيف تقضى إذا عرض لك قضاء ؟ قال أقضى بكتاب الله ، قال فان لم تجد فى كتاب الله قال فبسنة رسول الله قال فان لم تجد فى سنة رسول الله ولا فى كتاب الله قال اجتهد رأيي ولا آلو ، أى يقيس الأمور بنظائرها ، فما كان أقرب إلى الدليل أخذ به ، فضرب رسول الله ﷺ على صدره وقال : ـ (الحمد لله وفق رسول رسول الله إلى ما يرضى رسول الله) .

ومن توجيهاته السديدة رضى الله عنه قوله : إياكم والخصومة فى الدين ، فانها تشغل القلب ، وتورث النفاق ، وقوله : لا يتم المعروف الا بثلاث ، بتعجيله ، وتصغيره ، وستره ، أى إذا عزم المرء على إسداء معروف فليعجله ، خشية أن يصرفه عنه الصوارف ، أو يصده عن اسدائه جليس السوء ، أو يثبطه عنه الشيطان ، فخير البر ما كان عاجلا ، اما تصغير المعروف ، والتقليل من شأنه فى النفس ، فلئلا يدفع استعظامه على التعالى ، واما ستره فلئلا يجرح شعور من أسداه إليه لو أظهره للناس ، ولينال عليه الأجر كاملا ، عند من لاتضيع عنده صنائع المعروف ، قال تعالى :

﴿ ان تبدوا الصدقات فنعما هى ، وان تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم ويكفر عنكم من سيئاتكم والله بما تعملون خبير ﴾

وحسبنا ، من توجيهات هذا الامام ، ما نقلناه من فقرات فى مختلف الاتجاهات ، لنفيد منها تربية للمجتمع ينتفع بها من أخذ النفس بها ، وحاول جهده أن يكون المجلىّ فى المجموعة ، ويشق الطريق ليسعد بحياته ، كما قال تعالى :

﴿ من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن ، فلنحيينه حياة طيبة ، ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾ .

الفصل السادس

توجيهات ومواعظ

- من توجيهات النبوة .
- المعيار العادل في التفاضل .
- من أخبار الرواد .
- من هدي القرآن .
- من مواقف الصبر للخليفة عمر بن عبد العزيز .
- موقف الخليفة عمر بن عبد العزيز مع الشعراء .
- واحدة بواحدة !
- التضحية في سبيل الواجب .
- الخواطر إذ تخطر على النفس .
- الزهد .
- الإنسان والرسول الذي رفع الله به قدر الحياة (١-٣)
- ذكرى الولادة الشريفة .
- مثل رفيعة لصاحب الهجرة .
- خاطرة !

من توجيهات النبوة

فى فترة من فترات التوجيه والارشاد للرسول الكريم ، ﷺ ، التى كان يتخول فيها أصحابه بالموعظة ، ليرسم لهم مناهج الفلاح ، فى خط سيرهم ، ويأخذ بهم إلى الجادة ، سأل ﷺ أصحابه قائلا: (**ما تعدون الصرّعة فيكم ؟**) أى القوى الشجاع قالوا:الذى لا تصرعه الرجال قال : (**لا ، ولكن الصرّعة ، الذى يملك نفسه عند الغضب**) وكأنه ﷺ يعنى أن مصاولة النفس ، وامتلاك زمامها ، وقسرها على ما يريد المرء ، من الإغضاء والتسامح عن زلات الغير ، وعدم الخروج عن الاتزان والحلم ، مهما استثير هو أشد من مصارعة الرجال ، والتغلب عليهم ، ذلك أن سورة الغضب ، موجة جنون ، تغطى العقل ، فيتصرف تصرف الأهوج ويركب الشطط ، ويندفع وراء الرغبة الملحة فى الانتقام ، من استثارة أو تجنّ عليه ، أو اختلاف معه فى رأى ، أو تنازع فى قضية ، وفى ذلك اتساع لأبعاد الشر ، وقطع للأواصر وتخالف بين القلوب والصفوف .

والاسلام دين التآلف لا التخالف ، يجمع ولا يفرق ، فكما ينظم بين الخالق والمخلوق بالعبادة ، ينظمها بين المخلوق وأبناء جنسه ، بالأدب الرفيع ، والخلق الكريم ، ومنه وفى طليعته كظم الغيظ ، والعفو عن هفوات الغير ، وتجنبه ، فلقد جعل الاسلام ذلك مدرجا لبلوغ أرفع غاية ، إلى جوار المتقين ، فى دار الخلود كما

قال تعالى :

﴿ وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين ، الذين ينفقون فى السراء والضراء ، والكاظمين الغيظ و العافين عن الناس ، والله يحب المحسنين ﴾

وفى التخطيط لأرفع مثل فى ضبط النفس ، وكظم الغيظ ، والتحلى بالحلم ، والصفح الجميل ، وعدم الكيل للمتجنى ، بالصاع الذى كال به ، بل مقابلة اساءته بالاحسان ، يقول سبحانه :

﴿ ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ﴾

قال بعض المفسرين : لايستوى الصبر والغضب ، والحلم والجهل ، والعفو والاساءة ، و ﴿ ادفع بالتى هى أحسن ﴾ قال ابن عباس رضى الله عنهما :- أى بالصبر عند الغضب ، وبالحلم عند الجهل ، وبالعفو عند الاساءة ، وقال ابن كثير رحمه الله ، تعليقا على الآية : أى أحسن إلى من أساء إليك ، فادفعه عنك بالاحسان ، ثم نقل قول الخليفة الراشد عمر رضى الله عنه : (ما عاقبت من عصى الله فيك بمثل أن تطيع الله فيه ، فاذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم) ، وذلك أثر الاحسان ، فى تحويل نفسية المسىء ، من إضمار الشر ، ومواصلة الكيد إلى الموالاة والعطف ، والمحبة ، حتى يصبح وكأنه الصفى الوفى ، وهذه الخلة أو المحمدة التى يرسم الاسلام منهجها ، ويربى عليها المجتمع ، آخذاً به إلى مدارج الكمال ، لن يبلغها الا الأفذاذ الذين عالجوا أنفسهم لبلوغ الذروة فى الصبر ، والعفو ، وكان لهم النصيب الوافر من السعادة ، فى دنياهم وعقباهم ، ولذلك قال تعالى :

﴿ وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها الا ذو حظ عظيم ﴾ .

وليس معنى الصفح والإغضاء عن الزلة ، وعدم الانتصار للحق ، المستباح ، والاقتصاص من الظلم الصريح ، ليس معنى ذلك الخور ، وضعف العزيمة ، وحب السلامة ، والرضاء بالأمر الواقع ، ولو أثيرت العواصف فى وجه

المسلم ، كلّ يوم ، واستبيح حماه ، وأهدرت كرامته ، فذلك لا يليق بالمسلم ، أو يتفق مع المكانة التى يجب أن يكون فيها كمسلم ، فلقد أباح الله الانتصار ، ومدافعة البغى ، وعدم الاستكانة للظلم ، ووصف عباده المؤمنين ، فى محكم التنزيل ، بأنهم لم يكونوا رعاديد ، أو جبناء ، يقيمون على الذل ، ويستسلمون للعدوان ، فقال تعالى :

﴿ والذين اذا أصابهم البغى هم ينتصرون ﴾

قال ابن كثير رحمه الله : ـ أى إن فيهم قوة الانتصار ممن ظلمهم ، واعتدى عليهم ، ليسوا بالعاجزين بل يقدرون على الانتقام ، ممن بغى عليهم ، وان كانوا مع هذا اذا قدروا عفوا كما قال يوسف عليه السلام لاخوته :

﴿ لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم ﴾

ثم أورد بمواقف الرسول الكريم ﷺ فى العفو عند المقدرة ، فذكر قضية النفر الذين قصدوا اغتيال الرسول الكريم ﷺ عام الحديبية ، فعفا عنهم ، إذ قدر عليهم ، وقصة الرجل الذى أمسك بسيفه ، وأراد اغتيال الرسول ، وهو نائم ، فلما استيقظ أى الرسول ووجد السيف ، مصلتا فى يد الرجل ، فأخذه منه وعفا عنه • وقصة لبيد بن الأعصم اليهودى الذى سحر الرسول فلم يعرض له بسوء ، بل عفا عنه ، إلى آخر ما سرده ابن كثير رحمه الله فى قصص العفو عند المقدرة ، للرسول الكريم الحليم ، وكتب السير ، والأخبار مكتظة به مما يسفر عن أن الانتصار من الظالم ، مشروع ، غير أن وراء ذلك ، ما هو أفضل منه ، العفو بعد المقدرة والصفح الجميل ، ومقابلة الاساءة بالاحسان ، فكل ذلك مما يربى الاسلام عليه أفراد المجتمع ، ويدفعهم إلى التعالى ، عن كل رغبة للنفس فى الانتقام ، والتشفى ، والأخذ بالثأر ، والمدافعة إلى الحكام ، أو قطع الصلة ، مع المتجنى وايقاف تتابع الرفد والبر له ، وبهذه المناسبة نورد قصة الصديق أبى بكر رضى الله عنه ، مع قريبه الذى اشترك فى إشاعة حديث الافك ، فأقسم الصديق

أن يمنع عنه رفده ، وألاّ ينفعه بنافعة أبدا ، فأنزل الله سبحانه قوله :

﴿ ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة أن يوتوا أولى القربى والمساكين والمهاجرين فى سبيل الله وليعفوا وليصفحوا الا تحبون أن يغفر الله لكم ﴾

فعاد الصديق إلى وصل قريبه وتجاوز عن زلته ، أملا فى عفو الله ومغفرته ، قائلا : ـ (والله إنا نحب أن تغفر لنا والله لا أنزعها عنه أبدا) وتحضرنا بهذه المناسبة قصة الفاروق رضى الله عنه مع عيينة بن حصن اذ دخل عليه قائلا فى جفوة الاعراب (هيه يابن الخطاب ، فوالله ما تعطينا الجزل ، ولا تحكم بيننا بالعدل) فبلغت قولته من عمر مبلغا ، استشار عليه ، فقال له الحر بن قيس : (يا أمير المؤمنين إن الله يقول لنبيه (**خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين**) وإن هذا من الجاهلين ، فعفا الخليفة عن الزلة بعد العزم على النقمة استجابة لأمر الله ، وترفعا بشخصيته العظيمة ، أن يعكر صفّوها أو يذهب بالخلق الكريم منها خلق الصفح والعفو عند المقدرة سفه السفهاء وجهل الجاهلين ، فهل للمجتمعات الاسلامية فى هذه المثل الرفيعة من قدوة ؟

❋❋❋

المعيار العادل فى التفاضل

أى الناس أفضل ؟ سؤال تتشعب فيه الإجابة بحسب ميول الناس واختلاف نظرتهم إلى المفاضلة بين الأشياء ، ففى الناس من يرى الأفضلية بالنسب والحسب العريق ولوبات صاحبه على الطوى ، ولم يكن من المجدودين فى دنيا الناس ، فهو أفضلهم وأشرفهم وأكرمهم ، وفى الناس من يرى الأفضلية بعظم الثروة ، وتضخيم الأرصدة المالية ، ولو لم يكن لمن يمتلكها قسط من العلم والمعرفة ، أو الخلق المتين ، والسلوك الفاضل ، فهو أفضل من مشى على الغبراء ، اذ يسخر سواد الناس فى خدمته ، والتعاون معه ، على تنمية ثروته ، والسير فى ركابه وهكذا فلن تستوعب كل الأمثلة فى اختلاف وجهات نظر الناس فى المفاضلة ، وارتفاع البعض على البعض الآخر ، فهى أوسع من أن تحصر ، وقل أن يتفق فيها المجموع على رأى موحد ، غير أن المعيار العادل الذى يجب الأخذ به فى هذا المجال قول من لا ينطق عن الهوى ، فهو الفيصل وفيه السداد والرشاد .

ولقد صح عنه ﷺ من حديث ابى سعيد الخدرى رضى الله عنه أن رجلا قال : يا رسول الله اى الناس أفضل ؟ فرد عليه الرسول الكريم بقوله : (**مؤمن مجاهد فى سبيل الله بنفسه وماله**) قال : ثم أىّ ؟ قال : (**رجل معتزل فى شعب من الشعاب يعبد ربه ، وفى رواية يتقى الله ويدع الناس من شره**) وراه البخارى ومسلم ، فمعيار التفاضل بين الناس ، الذى وجه إليه رسول الهدى ﷺ يرتفع كثيرا ، عن التقديرات فى دنياهم ، وعن المجالات التى

يستبقون ميادينها ، لاحراز قصب السبق فى ارتفاع بعضهم على بعض ، والحظوة ببلهنية العيش ، ومحاولة البروز والرفعة وتتفاوت درجات الفضل أو التفاضل بين المؤمنين ، كما يلحظ من الحديث ، بنسبة التضحية ومناحى الخير التى يسلكونها والخطوات الايجابية التى يحزمون فيها أمرهم ، وتقوى على تنفيذها عزيمتهم ، فالمؤمن المجاهد فى سبيل الله ، قد أوفى على الذروة من حيث التضحية والخطوة الايجابية التى قسر عليها نفسه ، فعمود الاسلام جهاد اعداء الله وكسر شوكتهم • ويتفاوت المجاهدون أيضا فى لون الجهاد ، والتضحية ، فمجاهد بقلمه وانتاجه ينافح عن دين الله ، ويبعد الزيف عنه ، ويفتح الأذهان على الخطر الداهم ، الذى يتربص بالمجموع ، لو تنكب السبيل ، ومجاهد بماله ، يبذله طيبة به نفسه ، لتزويد المجاهدين بالمؤن ، وما يتطلبه النزال ، وتكون به الغلبة والنصر وكسب المعركة •

ومجاهد بالنفس والمال ، جهاده ارفع الوان الجهاد ، ومن ثم كان القائم به ، أفضل الناس ، بشهادة الصادق المصدوق ، ﷺ وما ذاك الا لأنه بذل أفضل ما يعتد ويعتز به ، بذل نفسه التى بين جنبيه لله ، وفى سبيل الله ، ابتغاء مرضاة الله ، والنفس أغلى ما يعتز به المرء ، ويصونه من العوادى ، ويتجافى به عن مواطن الهلكة ، وبذل ماله ، والمال عصب الحياة ، وزينة الدنيا ، والشريان الذى يتركز فيه النشاط الانسانى ، فى مختلف الميادين ، فلابد أن ترتفع درجة المجاهد بالنفس ، والمال فوق كل درجة ، لصاحب تضحية ويكون أفضل الناس : ـ

﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ، يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدًا عليه حقا فى التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله ـ فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به ، وذلك هو الفوز العظيم ﴾

وبهذه المناسبة مناسبة الحديث عن الجهاد ، والارتفاع بمقام المجاهدين فى سبيل الله نعرض لفرية بعض الأفاكين الذين يزعمون أن الجهاد فى الاسلام قد انتهى

أمده ومضى زمنه ، ولقد كان فى الماضى عندما كان الكفر طاغيا ، أما فى أعقاب الزمن وبعد أن استقر وضع الاسلام فلا إكراه فى الدين من شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ، فلم يعد من حاجة لرفع أعلام الجهاد ، وهى كلمة فيها الكثير من التجنى على الواقع الاسلامى ، ذلك أن الجهاد شعيرة من شعائر الدين ، وهو فى الحاضر كما كان فى الماضى يجب أن ترفع اعلامه ، كما قال تعالى :

﴿ وقاتلوهم حتى لاتكون فتنة ويكون الدين كله لله ﴾

وهو باق إلى أن يقاتل آخر هذه الأمة الدجال ، ولم يهن المسلمون ، وتسباح حوزتهم ويتحكم الأعداء فى مقدراتهم ويساموا خطة الخسف ، الا بعد أن تركوا الجهاد ، وأخلدوا إلى الراحة ، وتمادوا فى تقليد الغرب ، فاستبدلوا الذى هو أدنى بالذى هو خير كما وصف واقعهم رسول الهدى ﷺ : إذ يكونون فى أعقاب الزمن ، كغثاء السيل فقال :ـ (**اذا تبايعتم بالعينة وأخذتم بأذناب البقر ورضيتم بالزرع وتركتم الجهاد سلط الله عليكم ذلا لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم**) نعود فنعرض للفريق الثانى ، ممن ارتفع بمسلكه فى الفضل ، وهو من عناه رسول الهدى بقوله : (**ورجل معتزل فى شعب من الشعاب ، يعبد ربه ، وفى رواية أو يتقى الله ويدع الناس من شره**) .

وإنه لعلم من اعلام النبوة ، أن يكشف رسول الهدى ﷺ ، عن مسلك يصير اليه أفذاذ من الأمة ، عندما يطغى الشر ، وترتفع أعلام الباطل ، ويغدو المنكر معروفا ، والمعروف منكرا ، ولم يعد لنصح الناصحين ، وتذكير الواعظين ، استجابة من المجموع بل قد يناهلم الأذى ويرمون بالرجعية ، وضحالة التفكير والتزمت ، وعدم مسايرة روح العصر فى الانطلاق والتحرر من القيود ، التى كبلت الانسانية ، وحجرت على حريتها ، وأبعدتها عن النهوض ، وإنها لعمر الحق لفتنة أعظم من الفتنة التى عناها الصحابى الجليل ، عبدالله بن مسعود رضى الله عنه بقوله :

(كيف أنتم إذا لبستكم فتنة ، يربو فيها الصغير ، ويهرم الكبير وتؤخذ

سنة ، يجرى عليها الناس ، فاذا غير منها شىء ، قيل تركت سنة) قيل متى ذلك يا أبا عبدالرحمن ؟ قال : (إذا كثر قراؤكم وقل فقهاؤكم وكثرت أموالكم وقل أمناؤكم ، والتبست الدنيا بعمل الآخرة ، وتفقه لغير الدين) •

أجل إن الفتنة التى تغشى الناس فى أعقاب الزمن ، والتى رجح رسول الهدى صلى الله عليه وسلم العزلة منها ، فى شعاب الجبال ، بعيدا عن المجتمع الفاسد الفاشل المتدهور هى أشد خطرا من الفتنة التى وصف واقعها الصحابى عبدالله بن مسعود رضى الله عنه ، لأنها فتنة تقضى على الركائز الدينية ، والقيم الروحية ، وتبذر بذور التشكيك فى الدين ، وتقوم فيها سوق الالحاد ، والزندقة وتغزو المبادىء الهدامة المجتمعات الاسلامية فيحتضنها البعض معرضا عن هدى الدين واشعاع القرآن ويغدو القابض على دينه كالقابض على الجمر ، يفر به الى شعاف الجبال خشية أن يفتن فيه ، ويدع عنه الخلطة وما لعله ان يصطدم به ، من فتن ومحن ، مستهديا بقول المصطفى ﷺ : (**اذا رأيت شحا مطاعا وهوى متبعا ـ ودنيا مؤثرة وإعجاب كل ذى رأى برايه فعليك بنفسك ودع عنك أمر العوام فان من ورائكم اياما ، الصبر فيهن مثل القبض على الجمر**) •

وبعد فلعل فى هذا البسط الى حد ما والكشف عن الواقع الصحيح لترجيح كفة البعض من المجموع على البعض الآخر ليكون افضل منه واعظم بروزا ، فى مناحى الخير ومجالات التضحية ، لعل فى ذلك حفزا للهمم ، فى استباق ميادين الفضل ، التى افصح عنها رسول الهدى ﷺ ، والتنافس فى مجالات الجهاد بكل ألوانه ، بما فى ذلك جهاد النفس ، فى اعتزال الشر وأهله ، والصعود فى مدارج التقوى ، فأفضل الناس مؤمن مجاهد فى سبيل الله بنفسه وماله ثم رجل معتزل فى شعاف الجبال يعبد ربه أو يتقى الله ويدع الناس من شره •

من أخبار الرواد

في زحمة هذه الحياة ، وبين ضجيجها وزهوها وفتنتها ، لن تعدم الأمة من يشق أمامها الطريق اللاحب للسيرة الخيرة ، لتقطع أشواط الحياة في منجاة عن فتنة الدنيا ومباهجها الأخاذة ، ولم يكن هذا الفريق الرائد قلة في المجموع ، وإنما هو كالأنجم الزهر ، تتألق فتهدى إلى الجادة ، وتبصر بطريق الخير ، فترجح كفة الصالحين ، ونحن في أعقاب الزمن في أمس الحاجة لأن نستعرض في بطون الكتب أخبار أولئك الرواد ، ونقف على ألوان هدايتهم والكثير من توجيهاتهم لنفيد منها فلن يصلح آخر هذه الأمة ، الا بما صلح به أولها ، لقد وقفت في دراستي على أخبار ميمون بن مهران ، وقد عاصر الخليفة الراشد عمر ابن عبدالعزيز رحمه الله ورضي عنه ، واستعمله الخليفة ، على قضاء جزء من العراق وخراجه ، فكتب إليه يستعفيه ، ويقول : (كلفتني بمالا أطيق ، أقضي بين الناس وأنا شيخ كبير ، ضعيف ، رقيق) فكتب إليه الخليفة (اجب من الخراج الطيب ، واقض ما استبان لك ، فان التبس عليك أمر ، فارفعه الينا ، فان الناس لو كانوا اذا كبر عليهم أحد تركوه ، ماقام دين ولا دنيا) وإنا لنلحظ من هذا الحوار ، بين الخليفة وقاضيه عجبا،القاضي أو الوالي يستعفي الخليفة من العمل ، لأنه لم يعد قادرا على تحمل مسؤوليته بعد أن كبر وضعف ، ودق جسمه ، والقضاء والولاية يتطلب كل منهما جهدا وعناء وضعف الشيخوخة يقعد عن كل جهد وعناء ، (**ومن نعمره ننكسه في الخلق**) وكلما عمر المرء رد إلى الضعف بعد القوة والعجز بعد النشاط ، وقد قرر رحمه الله هذا الواقع لورعه وتقواه ولينجو من مناقشة

الحساب يوم الحساب ، عن تفريط أو تقصير بدر منه ، نتيجة ضعفه ، ليس له فيه حيلة ، والعجب أيضا فيما ذهب إليه الخليفة من تمسكه بالقاضى ، وعدم اعفائه رغم شيخوخته بل وعده أن يكون له عونا ، فى كل ما يلتبس عليه من أمور القضاء ، وماذاك الا لما لمسه من نزاهته ، وتمرسه بالأمور ، وعفته وزهده وأمانته ، ولا يستجمع هذه الخلال الا الأفذاذ من الرجال ، بالاضافة إلى تقواه ومخافته من الله عز وجل ، وإنّا لنجد هذا الواقع فى شخصية القاضى ميمون واضحا ، فيما نقل من أخباره ، وقد دخل عليه الحسن البصرى رحمه الله ، فقال له شاكيا يا أبا سعيد قد أنست من قلبى غلظة ، فاستلن لى منه ، فقرأ عليه الحسن قول الله تعالى :

﴿ أفرأيت ان متعناهم سنين ثم جاءهم ما كانوا يوعدون ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون ﴾

فسقط ميمون رحمه الله ، وأخذ يفحص برجليه كما تفحص الشاة المذبوحة ، تأثرا من وحى الآية ، وأقام على ذلك طويلا ، ثم أفاق ، لقد أخذت منه الموعظة مأخذًا أذهله عن نفسه ، فسقط فى غيبوبة لم يصح منها الا بعد أمد طويل ، أفمثل هذا الطراز من الناس يصح ألاّ يستعان به لدعم الأمور ، وتثبيت الحق ، والقضاء بالعدل ؟ ومن ثم كانت نظرة الخليفة ، راشدة مسددة ، وكذلك يجب أن يستعان بالصالحين ، فى كل زمان ومكان ، لاستشعارهم المسؤولية ، ومراقبتهم لله ، فى كل تصرف ، يتجهون اليه • ولقد أعلن الخليفة تقديره لقاضيه ، تزكية له ، وتقريرًا لواقعه : ـ اذا ذهب هذا وضرباؤه لم يبق فى الناس إلاّ رجاج ، أى ضعفاء ، مهازيل ، لا يعتد بهم ، أو يضطلعون بمسؤولية ، ونستمع لميمون فى تبرمه ، بان يلى عملا يرهقه ، وتعظم به مسؤوليته : ـ (وددت لو أن احدى عينيّ ذهبت ، وبقيت الأخرى ، أتمتع بها ، وأنى لم أل عملا قط) فقال له قائل : ـ (ولا لعمر بن عبدالزيز ، وهو مضرب المثل فى العدل ، والنصح للأمة ، والتعاون معه دعم لأمره ، قال ميمون : ولا لعمر بن عبدالعزيز لا خير فى العمل لعمر ، ولا لغيره) وكيف لا يخشى العمل أو كيف لا يخشى المسؤولية العظمى ، التى تترتب

على العمل ، وهو التقى الزاهد ، العارف بالله ، الذى يجهد نفسه ليطبق قوله بعمله • نقل عنه فى وصف المتقين : ـ (لا يكون الرجل من المتقين ، حتى يحاسب نفسه ، أشد من محاسبته لشريكه ، وحتى يعلم ، من أين مطعمه ، ومن أين ملبسه ، ومشربه ، أمن حلال ذلك ، أم من حرام) ونقل من قوله أيضا : ـ (فى المال ثلاث خصال ، إن نجا رجل من خصلة ، كان قمينا ألاّ ينجو من اثنتين ، وإن نجا من اثنتين ، كان قمينا أن لاينجو من الثالثة ، ينبغى للمال أن يكون أصله من طيب ، فايكم الذى يسلم كسبه ، فلم يدخله الا طيبا ، فان سلم من هذه ، بقى له أن يؤدى الحقوق التى فى ماله ، فان سلم من هذه ينبغى ان يكون فى نفقته ، ليس بمسرف ولا مقتر) ومن كانت هذه نظرته ، فى الحياة ، وإلى متع الدنيا ، فاحرى به أن يكون عزوفا عن أن يلى أمرا ، مهما هان فيه الخطب ولم تعظم به المسؤولية •

ومن مواعظه الموجزة الهادية قوله : (من سره أن يعلم منزلته غدًا ، أى فى العقبى ، فلينظر ما عليه فى الدنيا) كأنه يشير إلى قوله تعالى :

﴿ فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا فان الجحيم هى المأوى وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فان الجنة هى المأوى ﴾

وكم فى الصالحين من أمثال هذه الشخصية الفذة ، شخصية ميمون بن مهران ، الذين يرسمون الطريق اللاحب للمسيرة الخيرة ، فى زحمة هذه الحياة ، وبين ضجيجها ، وزهوها ، وفتنتها ، والذين تؤخذ عنهم ، ومن تخطيطاتهم ، ومناهجهم ، التربية الصالحة ، للمجتمعات الاسلامية ، محاولة منهم فى الدلالة على الخير وشق طريقه ، والتواصى بالحق ، فكل الناس فى خسارة ، الا من فعل ذلك وصدق الله اذ يقول :

﴿ والعصر ان الانسان لفى خسر الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ﴾ •

مِنْ هَدْيِ القرآن

التأسى بالصالحين ، والسير على نهج الراشدين ، مبدأ إسلامى ، شرعه رب العالمين ، أخذ به الصفوة من خيار الأمة ، منذ أمر رب العزة أكرم خلقه ، بانتهاج نهج سلفه من المرسلين ، حيث يقول :

﴿ أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده ﴾

وقال أيضا فى توجيهه ﷺ لأخذ القدوة من أمام الحنفاء ابراهيم :

﴿ ثم أوحينا اليك أن أتبع ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين ﴾

وقال سبحانه موجها عباده لأخذ الأسوة من سيد الخلق :

﴿ لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ﴾ .

وسوف نعيش مع الخليفة الراشد عمر بن عبدالعزيز رضى الله عنه فى بعض فصول حياته توجيها لأخذ القدوة منه إلى حد ما ، فلقد كان فى عصره نسيج وحده ، ينتهج مناهج أئمة الهدى من سلف الأمة ، محاولة منه أن يرد الحق إلى نصابه ، وأن يعطى الصورة الواقعية للاسلام ، فى كل مجال ، ليكون الاسلام هو المهيمن والحاكم ، والمتغلب على الشعور ، والاندفاعات ، والمسيطر على النزعات ، ولسنا بهذا الحديث المحدود ، نريد أن نكتب سيرة هذا الخليفة الملهم ، فلقد امتلأت المكتبة الاسلامية بالكثير مما كتب الكاتبون عن سيرته ، فى كل

اتجاهاته ، ولكنا كما أسلفنا القول نريد أن نعيش معه ، فى بعض فصول حياته ، فلنستمع إليه أولا فى بعض خطبه ، وهو يقرر حقيقة الدنيا ، ويحث على التزود بالتقوى ، ويذكر المصير المحتوم لكل من عاش على الغبراء ، ونافس فى المادة ، وقرت عينه بخفض العيش ، فيقول : (إن الدنيا دار كتب الله عليها الفناء ، وكتب على أهلها منها الظعن ، فكم عامر عما قليل مخرب ، وكم مقيم مغتبط ، عما قليل يظعن ، فأخفوا منها الرحلة ، بأحسن ما يحضركم من النقلة ، وتزودوا فان خير الزاد التقوى ، بينما ابن ادم فى الدنيا ينافس فيها ، وبها قرير العين ، اذ دعاه الله بقدره ، فسلبه آثاره ، وصيره لقوم آخرين ، ان الدنيا لا تسر ، بقدر ما تضر ، انها تسر قليلا ، وتحزن حزنا طويلا)

وفى مجال العلم والفقه فى الدين ، وبسط مدلول بعض آى الكتاب ، المبين ، يقول : لبعض عماله ، وقد كتب له يقول : يا أمير المؤمنين انى بأرض كثر فيها النعم ، حتى لقد أشفقت على من قبلى من أهلها ضعف الشكر ، فأجابه الخليفة بقوله : (إنى كنت أراك أعلم بالله ، مما أنت ، إن الله لم ينعم نعمة على عبد فحمد الله عليها ، الا كان حمده أفضل من نعمه) قال تعالى :

﴿ ولقد آتينا داود وسليمان علما وقالا الحمد لله الذى فضلنا على كثير من عباده المؤمنين ﴾

وأى نعمة أفضل مما أوتى داود وسليمان ؟ وقال تعالى :

﴿ وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا حتى إذا جاؤوها ﴾

إلى قوله **﴿ وقيل الحمد لله رب العالمين ﴾** وأى نعمة أفضل من دخول الجنة ولعمر الحق انه لتوجيه وفقه فى الدين عظيم . إن الناس فى أعقاب الزمن وقد أفاض الله عليهم من النعم فى مختلف الوانها ، لو حمدوه عليها ، لكان حمدهم أفضل مما أسبغ الله عليهم من نعمه ، فان الله يحب العبد يأكل اللقمة ، فيحمده عليها ، ويشرب الشربة ، فيحمده عليها كما جاء بذلك الحديث ، غير أن للهو الحياة ، وزهوها ، أثرا فى الغفلة ، عن هذا الواجب ، بل قد يقابل البعض النعم

بالجحود ، بدلا من الحمد والشكر ، كما قال تعالى : ـ

﴿ وقليل من عبادى الشكور ﴾

ومن مواقفه فى الزهد رحمه الله ورضى عنه ، عن هدايا الخلق ، واعتبارها رشوة ، موقفة مع من أهدى اليه تفاحا ، وفاكهة ، وما قيمة التفاح والفاكهة فى بلد يكثر فيها انتاج الفواكه ، فردها عليه وقال متوعدا : (لا اعلمن أنكم قد بعثتم إلى أحد من أهلى بشىء ، قيل له : ـ الم يكن رسول الله ﷺ يقبل الهدية ؟ قال بلى ولكنها لنا ولمن بعدنا رشوة) اى لمن ولى أمرا فيه سلطة ونفوذ ، فان الناس لا يهدونه ، الا لمصلحة يريدونها منه ، وقد يكون فيها ابطال حق أو احقاق باطل ، فسد الذريعة بعدم قبول الهدية واحتسابها للمسؤولين رشوة ، بعد نظر من الخليفة رضى الله عنه ، وسنة يجب ان يستن بها كل مسؤول فى أى مجال للمسؤولية ٠

ومن مواقفه رضى الله عنه فى الحدب على الرعية ، واشعارهم بالعدل ، الذى يطلب تحقيقه ما وجد إلى ذلك سبيلا ، موقفه فى الناس خطيبا قائلا : (أيها الناس ، ما منكم من أحد يبلغنا عنه حاجة ، الا أحببت أن أسدّ من حاجته بما قدرت عليه ، وما منكم من أحد لا يسعه ما عندنا ، الا وددت أنه بدىء بى وبلحمتى (أى عصبتى وأقاربى الذين يلوننى حتى يستوى عيشه بعيشنا) يقصد بذلك رضى الله عنه كفالة الأغنياء للفقراء ، حتى يرتفعوا عن ذل السؤال والحاجة والاّ فالفوارق بين الطبقات فى الموارد ، وتفضيل البعض على البعض فى الرزق أمر مقضى به فى الأزل ، فلا يكون فيه التساوى ٠

وله موقف فى الكشف عن واقع بعض عماله ، وقد حسن الظن به ، لكمال هيئته وسمته وتقمصه لأخلاق العلماء وزيهم ولم يكن ذلك منه الا خدعة ، ليصل بها إلى مطلبه ، وكم خدعت المظاهر عن الحقائق ، حتى يكشفها الواقع ، وعندئذ ينسلخ ثوب الرياء ، ويظهر الزيف ، كتب رحمه الله إلى هذا الوالى يقول : (أما بعد فانك قد خدعتنى بعمامتك السوداء ، ومجالستك للقراء ، وارسالك العمامة من

ورائك ، وانك أظهرت لى الخير ، فأحسنت الظن بك ، وقد أظهرَ الله ما كنت تكتمه والسلام) .

وفى مجال التدبير والاقتصاد ، ومحاسبة بعض العمال ، على ما يقطع لهم من نثريات لادارة شؤون أعمالهم ، يطالعنا موقفه مع أبى بكر محمد بن عمرو ابن حزم ، وكان عامله على المدينة (قرأت كتابك ، كتبت تسأل أن يقطع لك شىء من القراطيس ، مثل الذى كان يقطع لمن قبلك ، وتذكر أن التى عندك قد نفذت ، وقد قطعت لك دون ما كان يقطع لمن كان قبلك ، فأدق قلمك ، وقارب بين أسطرك ، واجمع حوائجك) يقصد أن يكتب فى الورقة الواحدة ، جملة مواضيع ، اقتصادا فى القرطاس واستغلالا لفراغه .. ونختم حديث اليوم ، بموقف له من أروع مواقف الحلم ورحابة الصدر والصفح الجميل - فقصده رجل بمعروض فى يده ، وخشى أن يحال بينه وبين الخليفه فرماه به ، فأصابه فى وجهه ، فشجه ، لعله كان مكتوبا على شىء صلب ، فنظر الناس إلى الخليفة ، والدماء تسيل على وجهه رضى الله عنه ، وهو واقف فى الشمس ، فقرأ الكتاب وأمر له بحاجته وخلى سبيله ، وأنه لمثل من أروع الأمثال يستجيب فيه الخليفة لتوجيه القرآن ، حيث يقول رب العزة :

﴿ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين ﴾ وقوله ﴿ ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور ﴾

من مواقف الصبر للخليفة عمر بن عبد العزيز

وصل للحديث بسابقة فى مواقف الخليفة عمر بن عبدالعزيز ، رحمه الله ، نعرض فيه الواقع ، لموقف من مواقفه فى الصبر على البلاء ، واحتساب أجر المصيبة ، وكشفه عن الواقع الذى يجب أن يكون عليه المسلم ، اذ تنزل به الفواجع ، فالدنيا مزيج من الخير والشر ، والأفراح والاتراح ، كما قال الشاعر : من سره زمن ساءته أزمان ، فالفرحة بزمن السرور عندما تنعكس إلى ترحة ، يجب على المسلم ، ألاّ يخرج عن اتزانه ، وإيمانه بالله ، وأن يقابل هذا الانعكاس بالصبر ، والتجلد والرضاء ، باقدار الله ، يقول بعض السلف فى تفسير قوله تعالى :

﴿ ومن يؤمن بالله يهد قلبه ﴾

يقول : هو الرجل تصيبه المصيبة ، فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم ويقول الله سبحانه فى وصف واقع الصابرين وأنهم على هدى من الله وعليهم صلوات من الله ورحمة .

﴿ وبشر الصابرين الذين اذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون ﴾ .

وان من أجل مواقف الخليفة عمر بن عبدالعزيز رحمه الله ورضى عنه التى نعيش معه فيها ، ونسجلها له بكل إعظام ، موقفه فى الصبر ، واحتساب أجر المصيبة ، مما تجب فيه الأسوة وتجمل القدوة ، فمحن الزمان ، وفجائع الأيام ، تتشكل

وتتنوع ، ومن أشقها على النفوس فقد الأحبة ، واسدال الستر الكثيف ، بينهم ، وبين محبيهم ، اذ لا يجمعهم غير الحشر ويوم النشور ، قيل تتابعت المصائب عليه رحمه الله ورضى عنه ، بموت من لهم من نفسه منزلة العزيز الغالى ، وكان من بينهم ، ابنه عبدالملك ، الصالح ، الزاهد ، التقى ، الورع ، فخشى الخليفة أن يكون من الناس ما يغضب الله ، وخاصة أهل بيته ، والقرابة القريبة منه ، لمكانة هذا الابن المتوفى ، من أنفسهم ، فكتب كتابا إلى بعضهم ، كله عزاء وتجلد وصبر واحتساب ، ودعوة إلى ما يجب أن يلتزمه المسلم ، ممن يبتلى بمثل بلواهم ، وفيه التذكير والتبصير ، بواقع الناس ، فى زحمة هذه الحياة ، وان مردهم إلى الله ، نجتزىء منه بالفقرات التالية ، إذ فيها العظة والعبرة ، يقول رضى الله وهو فى امس الحاجة إلى من يعزيه ، ويسرى عنه : (أما بعد ، فان الله تبارك اسمه ، كتب على خلقه الموت وجعل مصيرهم اليه تعالى ، كما أنزل فى كتابه انه يرث الأرض ومن عليها واليه يرجعون)

ثم قال لنبيه عليه الصلاة والسلام :

﴿ وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد ، أفإن مت فهم الخالدون ﴾

ثم قال : ـ

﴿ منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى ﴾

اسأل الله أن يبقينا ما أبقانا فى الدنيا مطيعين لأمره ، ولكتابه ، ثم ان عبدالملك ابن امير المؤمنين كان عبدا من عباد الله احسن اليه فى نفسه واحسن الى ابيه فيه أعاشه ما أحب ان يعيشه ثم قبضه إليه حين أحب ان يقبضه وهو فيما علمت بالموت مغتبط ، يرجو من الله رجاء حسنا ، فأعوذ بالله أن تكون لى محبة فى شىء من الأمور تخالف محبة الله ، فان خلاف ذلك لايصلح فى بلائه عندى واحسانه إلىّ ، ونعمته علىّ ، ثم لا أجد والحمد لله ، بعده فى نفسى ، الا خيرا ، من رضى بقضاء الله ، واحتساب لما كان من المصيبة ، فحمداً لله على مامضى ، وعلى ما بقى ، وعلى كل حال من أمر الدنيا والآخرة ، أحببت أن أكتب اليك بذلك من

قضاء الله ، فلا أعلم ما نيح عليه فى شىء من قبلك ، ولا رخصة فيه لقريب من الناس ، ولا لبعيد والسلام عليك) .

وانه لكتاب فريد فى بابه ، عظيم فى نهجه ، قد يعبر عنه بأنه مثل بارز ، لضبط الأعصاب ، وقوة الارادة ، وما إلى ذلك ، مما يمتلك به المرء زمام نفسه ، ويقسرها على مايريد، غير أن الذى يجب الاّ يغيب عن الأذهان ، هو أن وراء ضبط الأعصاب ، وقوة الارادة ، قوة ، هى قوة الايمان ، والبصيرة النافذة ، التى تكشف الواقع ، دون تأثير للعاطفة ، أو انخداع بطول الأمل ، الأ ترى إلى قوله رضى الله عنه عن ابنه المتوفى (انه كان عبدا من عبيد الله ، اعاشه ما أحب أن يعيشه ، ثم قبضه اليه حين أحب أن يقبضه) ذلك هو المخطط المرسوم ، فى الأزل ، لكل من سار على الغبراء ، يعيش إلى أجل ، ثم تطوى صحيفته ، كما قال تعالى :

﴿ فاذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ﴾

وإن ضبط الأعصاب ، وقوة الارادة ، دون أن يكون للمسلم دفقة من الايمان ، لا يمكن أن يتحكم فى العاطفة ، فقد تغلب العاطفة قوة الارادة ، والأعصاب ، فيستجيب المرء للعاطفة ، دون وعى ، ويندفع فى ركوب المحظور من التبرم ، والسخط ، والندب والنياحة وغير ذلك من رواسب الجاهلية ، كشق الجيوب ولطم الخدود ، ولذلك جاء الوعيد الصارخ ، لكل من يندفع بتأثير عاطفته ، لاحياء عوائد الجاهلية ، ففى الحديث (**ليس منا من شق الجيوب وضرب الخدود ودعا بدعوى الجاهلية**) لقد انهالت التعازى على الخليفة عمر بن عبدالعزيز رحمه الله فى ابنه ، فما وقعت من نفسه تعزية احد سوى تعزية اعرابى اندفع بفطرته وسجيته ، فى بيتين من الشعر يقول له فيهما : إن ابنك ليس بدعا فى الناس ، فلابد من أن يرد المورد الذى ورده غيره :-

تعز أمير المؤمنين فانه   لما قد ترى يغذى الصغير ويولد
هل ابنك إلا من سلالة آدم   لكل على خوض المنية مورد

فحمد الله سبحانه ، أى الخليفة عمر ، وقال : لقد دفعته إلى النساء فى الخرق ، أى للمرضعات فمازلت أرى فيه السرور ، وقرة العين ، إلى يومى هذا ، وما رأيته فى أمر قط ، أقر لعينى من أمر رأيت فيه اليوم ، أى يوم وفاته .

رحم الله الخليفة عمر بن عبدالعزيز ، ورضى عنه وأرضاه ، فلقد كانت حياته وسيرته كلها ومواقفه فى مختلف المجالات ، مواقف الرجل العارف ، الملهم ، الذى يسير على نهج الراشدين ويتأثر بخطى الصفوة ، من خيار الأمة ، ولذلك كان يلحق بالخلفاء الأربعة ، رضوان الله عليهم الذين عاصروا النبوة ، واقتبسوا من أنوارها ، وكانت سنتهم هى السنة ، الزم الرسول ﷺ بها الأمة ، حيث يقول (**عليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين ، المهديين من بعدى تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة**) .

موقف الخليفة عمر بن عبدالعزيز مع الشعراء

(يعطى الفقراء ، ولا يعطى الشعراء) كلمة قالها جرير ، وقد أقام مع الشعراء على باب الخليفة عمر بن عبدالعزيز امدا طويلا ، ثم احتال للدخول على الخليفة وبقى الشعراء على الباب ، يرقبون موقف الخليفة ، مع جرير ، وهل يظفر بطلبته منه ، فيرجع بالهبات السخية الرضية ، جريا على سنة الخلفاء قبله حين يفد عليهم الشعراء لمديحهم ، والتعرض لنفحاتهم ، أو يرجع بخفي حنين ، لأن الخليفة لم يكن له أَرَبٌ الا فى الفقراء والفقهاء يبعث اليهم حيث كانوا من بلدانهم ، أما الشعراء ، فقد كان نصيبهم منه الصدود ، والحرمان من المنح والهبات •

وتفصيل الخبر ، أن عمر بن عبدالعزيز رضى الله عنه ، عندما ولى الخلافة ، نهض إليه الشعراء من الحجاز والعراق ، فكان فيمن حضره نصيب وجرير ، والفرزدق ، والاحوص ، وغيرهم ، فمكثوا أشهرا لا يؤذن لهم ، والتمس جرير من أحد العلماء ، ممن يدخل على الخليفة ، أن يذكره عنده ففعل ، واذن لجرير فى الدخول ، فبادر الخليفة بقوله : ـ يا أمير المؤمنين ـ انى أخبرت انك تحب ان توعظ ولا تطرب ، أى بانشاد الشعر ، وسماع المديح ، فأذن لى فى الكلام ، فاذن له فأنشد قصيدة يحكى فيها واقع البؤس الذى يعانيه والمتاعب التى ألمت به وبغيره جاء فيها : ـ

زرت الخليفة من أرض على قدر   كما أتى ربه موسى على قدر
إنا لنرجو اذا ما الغيث اخلفنا   من الخليفة ما نرجو من المطر

أأذكر الضر والبلوى التى نزلت   ام نكتفى بالذى نبئت من خبر
مازلت بعدك فى دار تقحمنى   وضاق بالحى اصعادى ومنحدرى
لاينفع الحاضر المجهود بادينا   ولا يعود لنا باد على حضر
كم بالعواتق من شعثاء أرملة   ومن يتيم ضعيف الصوت والنظر
أذهبت خلته حتى دعا ودعت   يارب بارك لطر الناس فى عمر

الى أن قال :

هذى الأرامل قد قضيت حاجتها   فمن لحاجة هذا الأرمل الذكر

فترقرقت عينا الخليفة وقال : ـ إنك لتصف جهدك فقال جرير : ـ ما غاب عنى وعنك أشد ، فجهز الخليفة عيرا تحمل الطعام والكسى والعطايا ، بعث بها الى فقرائهم على اعتبار أن لهم حقا فى بيت مال المسلمين ، أما جرير فلم يظفر منه بطائل ، بل قال له مبررا حرمانه له من العطاء : ـ أمن المهاجرين أنت يا جرير ؟ أى إن كنت منهم كان لك نصيب فى بيت المال ، قال لا : ـ أو قرابة أو صهر ؟ قال : لا ، قال : أفمن من يقاتل على هذا الفيء انت ؟ ويجلب على عدو المسلمين قال : ـ لا ـ قال أى الخليفة : ـ فلا أرى لك فى شيء من هذا الفيىء حقا ولكن جريراً كان حاضر البديهة ، فرد على الفور : ـ بلى والله لقد فرض الله لى فيه حقا ان لم تدفعنى عنه ، قال : ـ ويحك وما حقك ؟ قال : ـ ابن سبيل أتاك من شقة بعيدة ، يشير إلى قوله تعالى :

﴿ إنما الصدقات للفقراء والمساكين ﴾

الى قوله تعالى :

﴿ وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله ﴾

فدعا الخليفة بعشرين دينارًا فضلت من عطائه وقال لجرير : ـ هذه فضلت من عطائى ، وإنما يعطى ابن السبيل من مال الرجل ، أى من زكاة ماله ـ ولو فضل أكثر من هذا أعطيتك ـ فخذها وان شئت فأحمد ، وان شئت فذم ، قال جرير : ـ

بل أحمد يا أمير المؤمنين ، وعندما قفل عن باب الخليفة ، نهض إليه الشعراء يستوضحون خبره قائلين : ـ ما وراءك ؟ قال لهم : ـ ليلحق كل رجل منكم بمطيته ، فانى خرجت من عند رجل يعطى الفقراء ولا يعطى الشعراء وأنشد :

وجدت رقى الشيطان لا تستفزه وقد كان شيطانى من الجن راقيا

والذى نريد أن نستخلصه من هذه القصة التاريخية امعان الخليفة فى الزهد حتى فيما جرت به العادة المرعية لتهنئة الخليفة بالخلافة والثناء عليه والتفاؤل له خشية ان يتغالى الشعراء فى مديحة ونعته مع انه رضى الله عنه أهل لكل نعت كريم . لقد بز الزاهدين بزهده ، وورعه ألحقه المؤرخون بالخلفاء الراشدين الأربعة رضى الله عنهم وعنه فى سيرته ونهجه . ومع ذلك لم ير لنفسه من الحق وهو خليفة الله فى أرضه ان يترفع عن أى فرد من المسلمين كما يصور ذلك الصديق رضى الله عنه اذ يقول : ـ (انى كأحدكم ولكنى اثقلكم حملا) وانصرف الخليفة عمر بن عبدالعزيز رضى الله عنه عن سماع الثناء والإطراء الذى يواجهه به الشعراء إلى التفكير فى الحمل الذى احتمله ويرجو أن ينجو كفافا لا عليه ولا له كما قال الفاروق ومن أجل ذلك كان رضى الله عنه يعطى الفقراء لأنهم أهل للعطاء بنص القرآن ﴿ إنما الصدقات للفقراء ﴾ الآية ويمنع الشعراء لاعتقاده أنه ليس لهم نصيب فى بيت المال وهو الحارس له المؤتمن على قسمته ، لقد بلغ من تخوفه رضوان الله عليه فى حمل الأمانة والقيام بأعباء الخلافة أنه كان يلتمس النصيحة والتوجيه من الصالحين من أهل زمانه ـ استدعى مرة غلاما لبعض أصحابه وكان الغلام عابدا وقال له : ـ يا سالم قد ابتليت بما ترى وانى أتخوف ألاّ أنجو قال له سالم : ـ إن كنت كما تقول فهى نجاتك والا فهو الأمر الذى تخافه ـ قال : ـ عظنا يا سالم ـ قال : ـ لآدم خطيئة واحدة فأخرج بها من الجنة وأنتم تعظمون الخطايا ترجون أن تدخلوا الجنة . ذلك كان دأب الخليفة عمر بن عبدالعزيز وهذا شأنه إلى أن توفاه الله فبكته الأمة بدموع حرىّ ، بكت العدل والزهد والعلم والتقى والورع بكت ذلك كله فى شخص عمر رحمه الله

ورضى عنه ، ولا أقول ودعت ذلك فلا يزال فى الامة الخيّرون الى يوم القيامة ولكنهم ندرة وخاصة فى أعقاب الزمن عندما يبعد الناس كثيرا عن إشعاع هدى النبوة وانصرف أكثرهم عن العمل للآخرة الا أن يشاء الله حتى العلم أضحى وسيلة وهدفا لكسب المغانم فى الدنيا والوصول إلى المناصب ، وليت شعرى ماذا عسى أن تغنى الدنيا ومغانمها ومباهجها فى وقفة الحساب يوم الحساب

﴿ إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى اذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها انهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون والله يدعو إلى دار السلام ويهدى من يشاء إلى صراط مستقيم للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون ﴾ .

واحدة بواحدة !

يقول الله سبحانه :

﴿ وجزاء سيئة سيئة مثلها ﴾ ويقول تعالى ﴿ فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم ﴾ ويقول ﴿ وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ﴾

وكل هذه الآيات ، تعنى القصاص من الجانى ، بمثل جنايته ، لاتثريب على المجنى عليه فى ذلك ، قال بعض المفسرين : سمّى الجزاء سيئة ، تشبيها بها فى الصورة ، وقال بعضهم : هو جواب القبيح ، اذا شتمك فاشتمه بمثلها ، من غير ان تعتدى ، وكل مدلولات أقوال المفسرين ، مردها الى الاقتصاص من جنس عمل المتجنى ، ردعا له ، ومقابلة لعمله بالمثل لو اراد المرء ان ينتقم لنفسه ، أو يرد على قبيح قول بمثله ، ومن القصص التاريخية فى هذا الاطار ، ماروى أن سليمان بن عبدالملك الخليفة الاموى ، أتى بحرورى ، وكان سليمان شديد النقمة من الحرورية ، وعندما مثل بين يدي سليمان ، شتم الخليفة وفسقه ، فطلب سليمان وزيره عمر بن عبدالعزيز ، وسأله عن العقاب الذى يجب ان ينزله بالحرورى ، جزاء شتمه ، لا على معتقده ، فسكت رضى الله عنه ، اذ علم أن الخطب يسير ، واحدة بواحدة ، وان الاقتصاص يكون فى مقابلة السيئة بمثلها ، فقال له سليمان : عزمت عليك لتخبرنى ، ماذا ترى عليه ، قال عمر : ارى أن تشتمه كما شتمك ، فلم يرق لسليمان قوله ، وامر بضرب عنق الحرورى ، وانتهى المجلس . وكم لهوى النفس لو استبدت ، من مآس ، تخرج عن الاتزان ، وتدفع الى ركوب

الشطط ، والخروج عن جادة الرشد ، ثم هناك موقف الفضل ، خطط له القرآن الى جانب الاقتصاص بالعدل ، ورغب فى الأخذ به ، على اعتبار أنه مثالية ، لايبلغها الا الأفذاذ من عباد الله ، المحسنين ، ووعد عليه رب العزة ، بحسن المصير ، ألا وهو العفو عند المقدرة ، كما قال تعالى :

﴿ وسارعوا الى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض اعدت للمتقين الذين ينفقون فى السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين ﴾

فالعفو والصفح الجميل مع القدرة على الانتقام والاقتصاص ومقابلة السيئة بمثلها ، إنه لمن عزم الامور ، إنه مقام الفضل بعد العدل ، قرنه الله سبحانه بآية القصاص من الجانى ، فى قوله تعالى وهو يعرض لصفات المؤمنين فقال :

﴿ والذين اذا أصابهم البغى هم ينتصرون وجزاء سيئة سيئة مثلها ، فمن عفا واصلح فأجره على الله ، انه لايحب الظالمين ﴾

وحسب من يختار مقام الفضل ، ان يتولى الله جزاءه ، على حسن صنيعه ، لأنه احب أن يتشبه بصفة من صفات الله جل جلاله ، فالله سبحانه عفو كريم ، يحب العفو من عباده ، يقول أحد العلماء ، تعليقا على قوله تعالى

﴿ وإذا ما غضبوا هم يغفرون ﴾

والآيات بعدها:ـ من خلق المسلم ان يغفر إذا استغضبه من دونه ، ومن خلقه كذلك ، أن يؤدب المجترئين عليه ، حتى يفل حدتهم ، ويكسر شوكتهم ، وهو فى هذه الحال ، مكلف ان يبرز قوته ، حتى يرهب المجترئين عليه ، وله وهو فى هذا المكان العالى ، أن يعفو فان عفو المقتدر بعد ان ينفى علائم الضعف لون آخر ، من تأديب المجرمين ، وكرامة المؤمنين ، فللخلق هفوات تضمنتها الآيات الاخيرة ، يغاير الخلق الذى تضمنته الآيات الأولى ، والتى تعنى التجاوز عن هفوات العاثرين (وإذا ما غضبوا هم يغفرون) اما الأخرى فتقدم الجانى الى القضاء

وتصدر عليه العقاب ، وتمكن سيف القصاص من عنقه حتى إذا انكسرت سطوته واختفت جرأته ، جاء الفضل بعد استطالة العدل ، فكان زيادة فى قمع المستهترين وزيادة فى عز المسلم ·

وبهذه المناسبة وتمشيا مع هذا الواقع ، اختيار مقام الفضل بعد استطالة العدل ، نذكر كدليل على وجود الخيرين فى هذه الامة ، الذين يغلبون جانب الفضل ، لا يغريهم بريق المادة ، املا فيما عند الله ، وما عند الله خير وابقى ، نذكر حادثتين ، شهر فيها الجلاد سيفه ، على رقبة الجانى ، امام الجمهور ، ولم يبق الا ان يهوى به ، قصاصا عادلا جاء به الشرع الحنيف ، (النفس بالنفس) فرفع ولى الدم يده ، يحول دون نزول السيف ، واعلنها مدوية : لقد عفوت عنه لوجه الله ، فعمت الفرحة الجمهور ، وصفق اعجابا بموقف الفضل بعد استطالة العدل ، واكراما لعاطفة المسلم ، الذى يغلب جانب الرحمة على الشدة ، والصفح الجميل ، على النقمة وهكذا خلق المسلم ابدا ، لاينفك عنه الا فى سورة غضب ، او عندما ما تلح الرغبة فى الاقتصاص ، إرواء لغريزة حب الانتقام ، وكيف لايغلب المسلم جانب الحلم والصفح الجميل ، وهو يقرأ ويسمع ، أن من سيرة المصطفى ﷺ الذى جعل الله فيه الاسوة الحسنة لامته ، يقرأ ويسمع الكثير من أخلاقه ، ﷺ فى عفوه وصفحه وحلمه ، وتخطيطه لذلك بقوله وعمله ، قال رجل مرة للرسول الكريم ﷺ وهو يقسم فيئاً : اعدل ، فقال له الرسول ﷺ (**ويحك فمن يعدل اذا لم أعدل**) ولم يزده على ذلك ، واراد عمر بن الخطاب رضى الله عنه ان يضرب عنقه لهذه الجرأة على الرسول · فقال له : (**معاذ الله أن يتحدث الناس انى اقتل اصحابى**) وكان يخطط للرحمة ويقول : (**الراحمون يرحمهم الرحمن ارحموا من فى الارض يرحمكم من فى السماء ، اذا قتلتم فأحسنوا القتلة وإذا ذبحتم فاحسنوا الذبحة وليحد احدكم شفرته وليرح ذبيحته**)

ولسنا بصدد سرد شيء من شمائله ﷺ ، وأخبار حلمه ، وعفوه ،

وصفحه ، فليس هذا من موضوع حديثنا ، وانما اردنا بما اوردنا أخذ الاسوة منه فى تغليب جانب الفضل بعد استطالة العدل تأسيا به ﷺ ، وبما جاء به من هديه وخلقه فقد كان خلقه القرآن ، وهديه اكمل هدى ، يربط بين الخلق والدين ، كما قال ﷺ (انما بعثت لاتمم مكارم الاخلاق)

وبعد فما اروع ان يدفع المسلم بالتى هى أحسن تمشيا مع نهج القرآن (ادفع بالتى هى احسن فاذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم) وان يصفح عن زلات الجاهلين وافن الحمقى والمتجنين إنه مقام الفضل الذى لن يعدم المرء الجزاء عليه جزاء يسعد به وصدق الله اذ يقول فى وصف البررة من عباده :

﴿ وإذا ما غضبوا هم يغفرون ﴾

﴿ فمن عفا واصلح فاجره على الله ﴾

﴿ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين ﴾

❋❋❋

التضحية في سبيل الواجب

يقول الله سبحانه :

﴿ فالذين هاجروا واخرجوا من ديارهم وأوذوا فى سبيلى وقاتلوا وقتلوا لاكفرن عنهم سيئاتهم ولادخلنهم جنات تجرى من تحتها الانهار ثوابا من عند الله ﴾

التضحية فى سبيل الواجب ، والتفانى لنصر الحق ، ورفع اعلامه ، هدف من اهداف الدين ، وعامل ايجابى ، للتغلب على صولة الباطل ، وكسر شوكته، ـ وهو فى الوقت نفسه كسب للمسلم ، يحقق له اجل « امنية يكدح جاهدا للوصول اليها الا وهى السعادة الابدية فى دار الخلود ، وما يسبق ذلك ، من تكفير السيئات ، وما يتبع ذلك من دخول الجنة من فيض الثواب ، تكريما عاريا عن الذل والمهانة ، والخزى ، الذى يمنى به مجترحو السيئات ، ومرتكبو الموبقات ، جزاء سوء صنيعهم ، وتعثرهم فى السير الى الله وبعدهم عن الاهتداء باشعاع الحق ونور الهدى وإن الآية الكريمة ، لتفتح الاذهان على الوان من التضحيات ، هى فى الذروة بالنسبة لأى تضحية ، تبذل فى سبيل اى غرض من الاغراض يكون كسبا للمضحى ، وظفرا فى مجالات السعى والكفاح ، وهى تحكى واقع الصفوة من خيار الامة ، صحب الرسول الكريم ، حين ضحوا بالوطن الغالى ، وهاجروا من ديارهم ، تاركين وراءهم ، المال ، والاهل ، والولد ، واحتملوا من الاذى مالا يحتمله بشر ، واستعذبوا العذاب فى ذات الله ، والتضحية فى سبيل المبدأ ، الذى احتضنوه والدين الذى ارتضوه ، واعتنقوه ، فكان بلال رضى الله

عنه ، يخرج به فى اليوم الشديد الحر وتوضع الصخرة العظيمة على صدره ، وهو يقابل هذا التعذيب فى بسالة نادرة المثال ويردد (أحد أحد) ووقف خبيب رضى الله عنه فى ساحة الاعدام واخذت الرماح تمزق جسمه وهو يقابل هذا التجنى والطغيان بابيات شعرية ضرب بها اروع الامثال فى التضحية وعدم الاكتراث بصولة الباطل يقول فيها :

فذو العرش صبرنى على مايراد بى ... فقد بضعوا لحمى وقد ياس مطمعى
وذلك فى ذات الاله وان يشاء ... يبارك على اوصال شلو ممزع
وقد خيرونى الكفر والموت دونه ... وقد هملت عيناى من غير بجزع
وما بى حذار الموت إنى لميت ... ولكن حذارى جحم نار ملفع
ولست ابالى حين اقتل مسلما ... على اى جنب كان فى الله مصرعى
فلست بمُبدٍ للعدو تخشعا ... ولا جزعا إنى الى الله مرجعى

واعترض صهيبا رضى الله عنه ، نفر من المشركين ، يصدونه عن هجرته ، ويذكرونه بماضيه قبل اسلامه ، ومنتّهم عليه ويقولون : ـ اتيتنا صعلوكا ، فكثر مالك عندنا ، وتريد ان تخرج بمالك ونفسك ؟ والله لايكون ذلك ابدا ـ وعز على صهيب ان يصد عّن الهجرة وفيها المغنم والحظوة بشرف الرفقة للحبيب الهادى ، والافادة من صحبته ، واشراق نوره ـ فضحى بالمال ، والمال صنو الروح ، وقال : أرأيتم إن جعلت لكم مالى اتخلون سبيلى ؟ قالوا : نعم . قال فانى قد جعلت لكم مالى وكان سروره بالانطلاق للهجرة اعظم من حيازته للمال . وخرج ابو سلمة رضى الله عنه مهاجرا بزوجه وابنه واعترض سبيله ايضا رجال من قومه يقولون له : هذه نفسك ، غلبتنا عليها ، فما بال صاحبتنا هذه ، علام نتركك تسير بها فى البلاد ؟ ولم يمهلوه للتفكير ، بل انتزعوا خطام البعير من يده ، بغية التأثير عليه ، والمحاولة لصده عن الهجرة ، وانتزع قوم الزوجة ولده منه وتغلب ابوسلمة رضى الله عنه على عاطفته ، وما يعتمل فى نفسه من حبّ الزوجة والولد ، مضحيا بها فى سبيل الله ، ومن اجل الهجرة الى الله ، مستعرضا فى قرارة نفسه ،

قول رسول الله ﷺ : (**لا يؤمن احدكم حتى اكون احب اليه من ولده ووالده والناس اجمعين**) وكان حب رسول الله ﷺ فى نفس ابى سلمة ، اعظم من حبه للزوجة والولد ، فمضى فى هجرته ، محتملا لوعة الفراق ، لشريكة حياته وولده زينة الدنيا .

هذه نماذج تصورّ واقع الصفوة من خيار الامة فى الهجرة ، والتضحية وثمة نماذج اخرى لاتقع تحت الحصر ، لمن باع نفسه لله ، فقاتل وقتل ، مضحيا بالدم الزكى ، فى سبيل الله ولنصر دين الله وتفانيا فى دفع صولة الباطل ، ولذلك كان الاجر على هذه التضحيات ضافيا ، لاحد له ، ولا حصر ، ثوابا من عند الله ، فى دار الكرامة ، وجنان الخلد ، والله عنده حسن الثواب ، كما قال تعالى :

﴿ فالذين هاجروا واخرجوا من ديارهم وأوذوا فى سبيلى وقاتلوا وقتلوا ﴾

الآية،وهذا الواقع ، واقع الصفوة من خيار الامة ، يوجه الانظار الى ضرورة العمل ، لترتيب الجزاء عليه ويردّ على المتقاعسين من المسلمين ، فى اعقاب الزمن ، عن بذل التضحيات والكفاح فى سبيل المبدأ والعقيدة بدعوى أن هذه الآيات وما جاء على منوالها ، لاتعنى غير اناس مخصوصين ، نزلت فى عصرهم وأن سواد الامة ، ممن تأخر بهم الزمن ، عن عصر التنزيل ، لاحرج عليه لو قعد عن التضحية والكفاح ومصاولة الباطل ، والذود عن حياض الاسلام ، حباً فى السلامة ، وطمعا فى العافية ، فالحق فى كل زمان ومكان لابد لانصاره من انتفاضات تدحر خصومه ، وترفع راياته ، وتثأر له ، لتكون كلمة الله هى العليا ، وليحظى الخلف بما وصل إليه السلف من رضوان الله ، والفوز بمثوبته فى رياض الخلد وجنات النعيم ، والجهاد باقٍ تخفق راياته الى أن يقاتل آخر هذه الأمة الدجال ، كما ورد فى الحديث ، وخاصة عندما اطبق الاستعمار على الاسلام ، واعادها جذعة صليبية تقاوم الاسلام تريد العزة والهيمنة والسيطرة . فمن واجب المسلمين ان يقفوا صفا واحدا ، تجاه قوى الاستعمار ، شرقيه او غربيه فالكفر ملة

واحدة والاستعمار بمختلف اساليبه وتنوع اغراضه شبكة ضد امتداد الاسلام ، واتساع نفوذه ، بل وضد اتحاد المسلمين وجمع كلمتهم والشد على رابطتهم ، التى جعلها الله عالمية واسعة النطاق ، لاتعترف بالحدود الاقليمية او الحواجز العنصرية والقبلية ، ولذا فهى خطر على الاستعمار ، لو اعطيت الحرية لتجديد ما وهى من بنيانها وترميم ما تصدع من كيانها ، وعادت الى سيرة اسلافها ، فى الكفاح والنضال ، وصبرت وصابرت واستعذبت الاذى فى سبيل الله ، والقتل والقتال لاعلاء كلمة الله : ـ

﴿ ولينصرن الله من ينصره ان الله لقوى عزيز ﴾ ﴿ وكان حقا علينا نصر المؤمنين ﴾ ﴿ ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الاعلون ان كنتم مؤمنين ﴾

❋❋❋

الخواطر إذ تخطر على النفس

تخطر على القلب الخواطر، بالخير والشر، والصالح والطالح، والهدى والضلال فتعتمل بها النفوس، وتشغل حيزا من تفكيرها وتكلفها مجهودا مضنيا، لو استسلمت لها، واشتغلت بايحاءاتها ـ إنها اشبه بالاشارات اللاسلكية، تلتقط فيكون منها الكلام، ثم يكون التخطيط فالخروج الى حيز العمل، فالخواطر اذ تخطر على القلوب، تتكون منها الفكرة ايّ فكرة، ثم تكون الارادة، فالعزم على الفعل، باستخدام الجوارح •

فان خطرت بالخير ومافيه من نفع للعبد فى دنياه وعقباه، نتج عن ذلك إعمال الفكر بها، ثم قويت الارادة على الفعل، فاضحت الفكرة واقعا ملموسا، يؤجر عليه، وكذلك العكس، فى خواطر الشر، واقتراف الإثم وركوب المعصية، سرعان ما تكون الفكرة واقعا يؤاخذ عليه العبد، ومن رحمة الله بعباده، الاّ يؤاخذ أحدا على الخواطر السيئة، اذ تخطر على القلب، وتعتمل بها النفوس، حتى تكون واقعا له أثره وخطره، وان النفس البشرية لاتخلو من طرق الخواطر لها، فان كانت سيئة كان تدارك صرفها قبل استفحال امرها، واشتغال الفكر بها أيسر على المرء، وتدارك قمعها قبل ان تكون ارادة، ثم تنفيذا أيسر من ان تكون على مرور الزمان عادة، يصعب عندئذ قمعها فيتفاقم شرها ويعم خطرها وضررها فان المعصية كما قيل : ـ اذا اعلنت ضرت العامة، اذ يكون المجترئ عليها قدوة سيئة فى مجتمعه فان غيرت واخذ على يد مقترفها كان الضرر قاصراً عليه •

يقول العلامة ابن القيم رحمه الله ايضاحا لذلك : (من المعلوم أن اصلاح الخواطر ، أسهل من اصلاح الافكار ، واصلاح الافكار ، أسهل من اصلاح الارادات ، واصلاح الارادات ، أسهل من تدارك فساد العمل ، وتداركه أسهل من قطع العوائد) .

وذلك مايدعم لنا أن العادة اذا تكونت بعد أن تمر بالادوار قبلها ، الفكرة والارادة والعزم ، يصعب قمعها ويقول رحمه الله ايضا : إن الخواطر سوف تمر بالقلب ، حتماً ، كيفما كان لونها ، اى صالحة او سيئة .. وقد خلق الله النفس شبيهة بالرحا الدائرة التى لاتسكن ولابدلها من شيء تطحنه فإن وضع فيها حب طحنته ، وإن وضع فيها تراب وحصى طحنته ، فالافكار والخواطر التى تجول فى النفس ، هى بمنزلة الحبّ الذى يوضع فى الرحا ولاتبقى تلك الرحا معطلة قط ، بل لابد لها من شيء يوضع فيها ، فمن تطحن رحاه حبا يخرج دقيقا ينفع به نفسه وغيره ، وذلك مثل لكل نافع ، تشتغل به النفس ، ويكون له أثره فى الغير ، كالاعمال الصالحة مثلا ، والعزم عليها ، واعتمال النفس بها واشغال الجوارح بما تتطلبه فنفع ذلك يعود على العامل وأثره يعود على المجموع اذ يكون قدوة لغيره ثم قال رحمه الله : واكثرهم ـ ويعنى الدهماء ـ يطحن زبلا ـ وخصا وتبنا ونحو ذلك ، فاذا جاء وقت العجن والخبز تبين له حقيقة طحنه .

اولئكم من اعتملت نفوسهم بالشر فى كل دروبه ، واستبدّت بها خواطر السوء فتركوا لها المجال ، تعشّش فى الفكر ثم تكون منهم الاراداة والتصميم على العمل فينشأ عن ذلك الجرائم والعظائم بين المجموع ، وطغيان الانسان على الانسان حتى تضج الأرض الى بارئها ، وعلاج اصلاح الخواطر وصرف السيء منها واستبدال القبيح منها بالحسن نلمسه فى توجيه ابن القيم رحمه الله اذ يقول : ـ إنه لم يعط المرء إماتة الخواطر ، أى ليس فى مقدوره ان يكبت الخاطرة اذ تطرأ على فكره ولا القوة على قطعها فانها تهجم عليه هجوم النفس الا ان قوة

الايمان والعقل تعينه على قبول احسنها وعلى دفع اقبحها وكراهيته له ونفرته منه ، كما قال الصحابة : ـ يارسول الله ، إن أحدنا يجد فى نفسه اى من الخواطر ما لأن يحترق حتى يصبح حممه احب اليه من أن يتكلم به ، فقال الرسول الكريم ﷺ (**اوقد وجدتموه ؟ قالوا : ـ نعم ـ قال : ـ ذلك صريح الايمان**) وفى لفظ (**الحمد لله الذى ردّ كيده الى الوسوسة**) ثم فسر رحمه الله ـ الحديث بقوله : ـ فى تفسيره قولان ، احدهما ان رده ما يخطر من الشيطان من الوسوسة ، وكراهة النفس له هو صريح الايمان .

والثانى أن وجوده أى ما يخطر فى النفس ويزعجها والقاء الشيطان له فى النفس هو صريح الايمان ، فانه إنما القاه فى النفس طلبا لمعارضته الايمان ، وازالته به ، أى وذلك دليل على قوة الايمان ومعارضته لكل خاطرة سوء ، يلقى بها الشيطان فى النفس ، ولذلك حمد رسول الله ﷺ ربه على ان رد كيد الشيطان الى الوسوسة فقط ولم يقل على تثبيت الخواطر السيئة فى النفس المؤمنة ، ولقد ورد فى الحديث (**إن للشيطان لمة وللملك لمةّ فلمة الشيطان ايعاد بالشر وتكذيب بالوعد ولمة الملك ايعاد بالخير وتصديق بالوعد**) او كما قال ﷺ اى وعد الله الذى قطعه لعباده بانه لن يجعل للشيطان عليهم من سبيل كما قال تعالى :

﴿ **إن عبادى ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلا** ﴾

وهو كما قال المفسرون اخبار بتأييد الله لعباده المؤمنين وحفظه اياهم وحراستهم من وساوسه والخواطر الشريرة التى يلقيها وتتبع خطواته وتكذيبهم بكل موعود وعدهم الله بما فى دنياهم وعقباهم .

اما بعد فان قوة الايمان فى قلب المؤمن ، لكفيلة بصد كل ما يخطر فيه من خواطر سيئة وطردها أولا فأولا ، واستبدالها بالخواطر النافعة مما فيه استقامة لأمر العقيدة وتوجه الى الله وحده وتذكير بالمصير المحتوم وما وراءه من منازل الصالحين ، والعزم على استباق منازلهم فمن وفق لذلك فقد اعطى البرهان على قوة ايمانه وصحة ادراكه .. وكمال يقينه بربه وسلامة اتجاهه .

الزهـد

(ازهد فى الدنيا يحبك الله وازهد فيما عند الناس يحبك الناس) •

(حديث شريف)

روى هذا الحديث ، ابن ماجة وغيره ، بأسانيد حسنة ، عن أبى العباس سهل بن سعد الساعدى رضى الله عنه ، وتمامه : أن رجلا جاء للنبيّ ﷺ ، فقال يا رسول الله دلنى على عمل إذا عملته ، أحبنى الله ، وأحبنى الناس فقال : (ازهد فى الدنيا يحبك الله) الحديث • وليس المراد بالزهد ، ما يتبادر إلى بعض الأذهان ، من شظف فى العيش ، وتقشف فى الملبس ، وذل واستكانة ، وخضوع مصطنع ، وظهور بمظاهر وأوضاع خاصة ، من شأنها أن تضفى على أصحابها لونا من التزّمت يبعد بهم عن معترك الحياة ، وصخب الواقع ، وليس هو تحريم ما أحلّ الله من متع الحياة ولذّاتهـا ، وما أباحه الله لعبـاده من نعيم ورفاهية ، لا تبلغ بأصحابها حد الأشر والبطر (**قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق**) وليس هو العزلة والانطواء على النفس ، ومجانبة العمل ، وترك الكفاح ، والكدح فى سبيل الحصول على ما يقوم به الأود ، من ضرورات الحياة ، ومرافق العيش ، بدعوى الخوف من الاشتغال بالدنيا عن الآخرة ، وتقديم الفانية على الباقية •

وإنما الزهد الذى يحب الله عليه ، ويحب الناس من أجله ، هو الترفع عن الاسفاف ، والبعد عن فضول القول وغثه ، والعمل الشائن المزرى ، الـذى

يلحق بصاحبه المعرة . والاثم وهو القصد فى الطلب ، وعدم الالحاف فى المسألة ، عند مقتضى الضرورة والحاجة، أو هو كما عبّر عنه بعض فلاسفة الاسلام :ـ إنه حالة نفسية ، يظهر أثرها فى العمل ، ولاسيما التسلىّ ، بما تقتضيه الرغبة عن الشيء المزهود فيه ، وعدم الحرص عليه •

أو كما أوضحه الامام احمد رحمه الله ، حيث يقول : (الزهد ثلاثة أوجه ، ترك الحرام ، وهو زهد العوام ، والثانى ترك الفضول من الحلال ، وهو زهد الخواص والثالث ترك ما يشغل عن الله ، وهو زهد العارفين) •

وللعلامة ابن القيم ، بحث نفيس ، وعرض شائق طريف ، للزهد ، وأقسامه ومناحيه ، وسائر اتجاهاته •

قال يرحمه الله : (الزهد أقسام ، زهد فى الحرام ، وهو فرض ، وزهد فى الشبهات ، وهو بحسب مراتب الشبهة ، فان قويت التحقت بالواجب ، وان ضعفت كان مستحبا ، وزهد فى الفضول فيما لا يغنى من الكلام والنظر ، والسؤال ، واللقاء ، وغيره ، وزهد فى الناس ، وزهد فى النفس ، بحيث تهون عليه نفسه فى الله ، وزهد جامع لذلك كلّه ، وهو الزهد فيما سوى الله ، وفى كل ما يشغلك عنه ، وأفضل الزهد إخفاء الزهد ، وأصعبه الزهد فى الحظوظ ، والفرق بينه وبين الورع ، أن الزهد تركٌ لما لا ينفع فى الآخرة ، والورع ترك ما يخشى ضرره فى الآخرة ، والقلب المعلق بالشهوات لا يصح له زهد ولا ورع) •

وإن فى هذا البسط لبيانا شافيا ، وتوجيها رفيعا ، وفهما دقيقا ، ثم إن الزهد ، لا يحد بحد ولا يدخل تحت ضابط ، ذلك لوجود المفارقات بين الطبقات ، ولنسبة موارد الرزق ، وطرق الكسب ، التى يتفاوت فيها الناس ، فما يزهد فيه فريق بحكم وضعه ، وطقوس معائشه ، هو بالنسبة لغيره ، ضرورة لا مندوحة عنها ، وعلينا الآن أن نستعرض التاريخ ، لنطالع فيه الفصول الممتعة عن حياة الاسلاف ، فى عصرهم الذهبى ، ولنقف على مبلغ الزهد ، ومدى تأثرهم به

ومسايرتهم لتطورات الزمن ، وأوضاع الحياة ، ولنستمع إلى الصحابى الجليل ، خباب بن الأرث ، رضى الله عنه ، وهو يستعرض حالة المسلمين ، إبان احتضانهم الدين ، وما منوا به آنذاك ، من شظف العيش وعنت التكاليف ، ثم ما أفضت إليه الحال ، بعد أن بسط الله لهم فى الرزق ، وأفسح لهم فى النعيم ، قال رضى الله عنه : (هاجرنا مع رسول الله ﷺ نلتمس وجه الله تعالى ، فوقع أجرنا على الله ، فمنا من مات ولم يأكل من أجره شيئا ، منهم مصعب بن عمير رضى الله عنه ، قتل يوم أحد ، وترك نمرة (**النمرة كساء ملون من صوف**) فكنا اذا أغطينا رأسه ، بدت رجلاه ، وإذا غطينا بها رجليه ، بدا رأسه ، فأمرنا رسول الله ﷺ ، ان نغطى رأسه ، ونجعل على رجليه شيئا من الاذخر ، ومنا من أينعت له ثمرته ، فهو يهد بها) أى يقطعها ، ويجتنيها ، وحوادث التاريخ ولمعه تقص علينا الكثير من أخبار الصحابة ، رضوان الله عليهم ، ممن كانت لهم مجالات واسعة المدى ، فى حقول التجارة ، واتجاهات خاصة نحو المادة ، لم تخرجهم عن نطاق الزهد والزاهدين ولم يكونوا بها من المفرطين والغافلين ، ولقد بلغ ميراث بعضهم مئات الآلاف من الدراهم ، وتأثل البعض منهم العقار واقتنى الحوائط العظيمة ، وتوسع فى اللذات فى حدود الاباحة والقصد ، والاتزان ، وهو ما يفهم من قول خباب رضى الله عنه (**ومنا من أينعت له ثمرته فهو يهد بها**) ٠

ولا يغربن عن الأذهان ، كلمة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، المأثورة عنه فى هذا الباب (**اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا**) الأمر الذى يحفزنا إلى الأخذ بأساليب الحياة ، والكدح وعدم التطرف فى الزهد ، لدرجة تباعدنا عن الغرض ، الذى كانت الدنيا من أجله ، مزرعة الآخرة ، وكانت الآخرة موصولة بعمل الدنيا ، ومن ثم نجد المدخل ، لفهم الحديث الشريف الآنف الذكر (**ازهد فى الدنيا يحبك الله وازهد فيما عند الناس يحبك الناس**) ٠

هذا وان من حسن الصدفة أن يقع فى يدى كتاب الأستاذ الجليل محمد

الغزالى (تأملات فى الدين والحياة) فأجد بين طياته بحثا نفيسا فى الزهد ، تحت عنوان (زهد وزهد) كان مثار النقد النزيه والمناقشة الهادئة الطريفة ، وقد عقب الاستاذ الغزالى على نقد الناقدين بما انجلت عنه الحقيقة وتقاربت فيه الأهداف ورأيت أن أقتبس منه نبذا لا معدى لمن يطرق هذا الموضوع أن يلمع اليها • قال الأستاذ الغزالى :

« هناك أنواع من متع الحياة ومباهج العيش يرى الكثيرون أن الزهد فيها والتنزه عنها ضرب من قوة الايمان ، وسمو الروح ، ويحسبون مجاهدة النفس ، حيث تتطلع اليها ، أمرا يستلزمه الدين ، ويتطلبه اليقين ، وهذا وهم يجافى الصواب فى أكثر الأحيان ، فأكثر أنواع الزهد المعروفة لا صلة لها بالدين ، ولا دلالة على الفضل والكمال ، ما قيمة الزهد المادى فى الأشياء ؟ ان بطن الانسان شبر فى شبر ، ولو امتلأت إلى حد التخمة ، ما كلفّ الحياة شيئا طائلا ، والقيمة المادية للزهد المادى لا تساوى بضعة مليمات ، أو بضعة قروش •

إن أزمات العالم الكبرى نفسية واجتماعية وسياسية ، لم تنشأ الا من الأثرة المفرطة والتحاسد الباغى ، والكبرياء المستبدة ، وشهوات الظلم ، والرياء ، والاستعلاء ، ومجاهدة هذه النوازع الخبيثة ، هى الزهد الحقيقى ، الذى تصلح به الأرض ، ولن تزيد الأرض شيئا ، اذا زهد بعض بنيها أو أبناؤها جميعا ، فى الاستمتاع بنباتها ، وحيوانها ، وخيراتها ، المختلفة ، ولهذا يستنكر القرآن ، مظاهر الزهد المادى التافه ، ولا يحترم بواعثها »•

« والشيء الذى ينبغى أن نجاهد أنفسنا عليه وأن نعلمها الزهد فيه ، الفحش واللؤم ، والتعدى والتحدى وحب الظهور وسوء الغرور » •

وقال أيضا فى تعقيبه على الناقدين :

(ونعود إلى موضوعنا مرة أخرى فنقول ـ ان الزهد المادى قد يكون عن عدم الرغبة فى الشيء ، وقد يكون عن كبت الرغبة فى الشيء ، والنوع الأول لا

موضوع فيه لجهاد النفس ، ولا لكثرة الثواب فالمعود الذى يكره الطعام ، لأنه لا يستطيع الهضم ، والحصور الذى يبتعد عن النساء ، لأنه لا يحفل بمتعهن ، هؤلاء جميعا اذا اصطبغت حياتهم ، بمظاهر التقشف ، والتصوف فلا دلالة فى ذلك ، على خير كثير ، أما النوع الثانى من الزهد ، الزهد عن قتل الرغبة لجماحها فهو موضع تفصيل ، لا يبعد فى نتائجه كثيرا ، عن النوع الأول ، وذلك أن الكبت الدائم للرغبات الكامنة ، فى دم الانسان ، نحو متاع الحياة الدنيا ، يعتبر رهبانية قاسية ، لم يقل بها الاسلام ، ولم يدفع إليها أبناءه ولم ير فيها معانى السموّ المزعومة ، ولا حقائق الفضل المنشود ، غير أن هنا كبتا مؤقتا ، يلجأ إليه الرجل ، فى الأحوال الكثيرة من حياته ، يلجأ اليه المؤمن ، حين يعصم نفسه عن الحرام ، اذا نزعت إليه • وموقفنا من هذا الكبت هو موقفنا من المصائب الطارئة ، نصبر عليها إذا بلينا ، ولا نشتاق إليها إذا بعدت عنا ، وسيرة الرسول ﷺ وأصحابه لا تعدو أن تكون تطبيقا عمليا ، للمبادىء التى رسمها القرآن وليتأكد الإخوان ، أن تكاليف الزهد الأدبى ، أشق وأدق من تكاليف الزهد المادى ، وما هان المسلمون الا يوم أن كان الواحد منهم ، ينظر إلى تفاحة فيقول لها ـ كما تذكر كتب التصوف ، موعدك الجنة ، ولو أن الأحمق أكلها ، وأكل غيرها ثم مات شبعان فى الميدان ، بدلا من أن يموت جوعان فى البيت ، لكان ذلك أجدى عليه ، وعلى الاسلام والمسلمين) •

وبعد فإن فى هذه الفقرات المقتطفة من مقال الأستاذ الغزالى ، المومأ اليه ، ما يدفع اللبس والتضليل ، ويفتح الأعين ، على لون من الزهد ، ليس وقفا على طائفة من الناس دون أخرى ، كما يتوهم فريق المتصوفين ، ومن نحانحوهم ، بل هو مشاع بين كل الطبقات ، ممن ينشدون الكمال ، الخلقى ، والسمو الروحى ، فى شتى مظاهره ، وليس هو طقوسا دينية ، بحتة وأوضاعا شكلية خاصة وصراعا عارما بين النفس وما أحل الله لعباده من الطيبات •

الإنسان في الرسول الذي رفع الله به قدر الحياة (١)

كلمة حصيفة ، للامام مالك رحمه الله ، إمام دار الهجرة ، تضع الحق فى نصابه ، يقول رحمه الله : (كل يؤخذ من قوله ويترك إلا صاحب هذا القبر) ويعنى رسول الله ﷺ ، أسوق هذه المقدمة الوجيزة لمناسبة كتاب وقع فى يدى ، وأنا أتلمس فى بطون الكتب ، دروسا هادفة للتربية الاسلامية وقد يكون لمؤلف هذا الكتاب ، هنات تؤخذ عليه ، ولكن يؤخذ من قوله ويترك وأنا لنجد فى هذا الكتاب مالا يخلو منه كتاب وضع فى الشمائل المحمدية ، واخلاق سيد ولد آدم ﷺ لكن العرض الذى عرض به الكتاب ، فى كل بحث من بحوثه ، والمقدمة التى قدم بها المؤلف ، والأسلوب المشرق ، الذى دبجه به ، لمما يأخذ القارىء ويستهويه ، لمتابعة القراءة ، لقد استهل المؤلف المقدمة بقوله (لقد آثرت الاقتصار فى الاستشهاد على أحاديث الرسول وتصرفاته ، لأنها أدل على إنسانية صاحبها) وأخذ يعدد الشمائل الكريمة ، والمثل الرفيعة التى تفتح الأذهان ، على مناح من العظمة ، فى شخصية الرسول ﷺ ، فيقول : هنالك ترى الانسان الحانى الذى لا تفلت من قلبه الذكي شاردة من آمال الناس وآلامهم إلا لبّاها وأعطاها من ذات نفسه ، كل اهتمامه ، وتأييده ، ترى الانسان الذى يكتب لملوك الأرض ، طالبا إليهم أن ينبذوا غرورهم ، ثم يصغى فى حفاوة ورضا ، لاعرابى حافى القدمين ، يقول له فى جهالة : اعدل يا محمد ، فليس المال مالك ولا مال أبيك ، ترى العابد الأواب الذى يقف فى صلاته ، يتلو سورة طويلة من القرآن ، فى انتشاء وغبطة ،

ثم لا يلبث ان يسمع بكاء طفل رضيع ، كانت أمه تصلى خلف الرسول فى المسجد ، فيضحى بغبطته الكبرى ، وحبوره الجيّاش وينهى صلاته على عجل ، رحمة بالرضيع ، الذى يبكى ، وينادى أمه ، ببكائه ، ترى الانسان الذى يجمع الحطب لأصحابه ، فى بعض أسفاره ، ليستوقده نارا ، تنضج لهم الطعام ، والذى يرتجف حين يبصر دابة تحمل على ظهرها أكثر مما تطيق ، والذى يحلب شاته ويخيط ثوبه ويخصف نعله ، والذى يقف بين الناس خطيبا فيقول (**من كنت جلدت له ظهرا فهذا ظهرى فليقتد منه**) أجل نرى الانسان أبهى وأتقى وأسمى ما يكون الانسان ، فلنقترب فى تهلل ، ولنقرأ فى أناة وأعلموا يامن تقرأون هذا الكتاب ، انكم تعيشون لحظات ، مترعة ، بغبطة الحياة ، مع إنسان ورسول ، رفع الله به قدر الحياة •

ولقد تحدث المؤلف ، بعد ذلك ، فى كل فصل من فصول الكتاب ، عن أرفع أمثلة ضربها الرسول الكريم للأمة ، فى مختلف الاتجاهات ، تتسع فيها أبعاد الانطلاقة ، فى المناحى الخيّرة الراشدة المسددة • وعلق على كل حديث نبوى ، أورده فى كل موضوع ، بما تستشف منه عظمة الشخصية الفذة الكريمة ، وبما يجب أن يتخلق به المسلمون على تعاقب الحقب ، اقتداء برسولهم وتربية لنفوسهم ، فقال مثلا بعد الأحاديث التى أوردها فى الرحمة : تنتشر الرحمة لدى الرسول محمد حتى يغطى دفؤها كل مقرور ، وحتى تشمل الأحياء جميعا ، من إنسان وحيوان ، وفى المواطن التى تعظم فيها الحاجة إليها ، نجد الرسول يركز الحاجة عليها ، فهو مثلا إذا حث على الرحمة بالطفل ، يركز بصورة أشد على الرحمة بالطفل اليتيم ، أو الطفل اللقيط ، واذا حث على الرحمة بالحيوان ، يركز بصورة أوفى على الرحمة بالحيوان وهو يذبح ، وهكذا يدور قلبه الكبير على دواعي الرحمة ، حيث تدور ، والرحمة عند الرسول محمد ، ليست نافلة من نوافل البر ، ولكنها واجب من واجبات الرشد ، وتبعة من تبعات الحياة ، وهى لهذا تعبر عن نفسها فى عديد من صور الخير والمشاركة فى الأعمال النافعة ، وكنماذج لصور الخير ، التى تتمثل فيها الرحمة لدى الرسول الكريم ، ﷺ ، أورد حديث جابر فى خروج الرسول

إلى مكة فى رمضان ولما رأى البعض قد شق عليه الصيام ، بسبب السفر دعا بقدح من ماء فرفعه حتى ينظر إليه الناس ثم شرب ، وقال لمن بقى على صيامه ، ولم يأخذ برخصته ، (أولئك العصاة) وقال لمن أضناه الصيام والناس يظللونه (ليس من البر الصيام فى السفر) وحديث من بايعه ﷺ على الهجرة والجهاد وحكى له واقع والديه ، وأنه تركهما يبكيان فقال له ﷺ (**ارجع إليهما وأحسن صحبتهما**) فى رواية (**فأضحكهما كما أبكيتهما**) وعلق على هذا الحديث بقوله : إن رحمة النفس تتم عند الرسول محمد برحمة الوالدين ، وبرهما لأنهما مصدر هذه النفس ووعاؤها ، وفى صور الرحمة الشاملة ، عرض لحديث ابى ذر رضى الله عنه وسؤاله الرسول عما ينجى العبد من النار ، فذكر له الايمان ، والانفاق من رزق الله ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، واغاثة المظلوم ، والامساك عن أذى الناس ، وختم الحديث بقوله (**ما من عبد مؤمن يصيب خصلة من هذه الخصال ، إلا أخذت بيده ، حتى تدخله الجنة**) فقال : فى هذا الحديث نجد الرسول قد ساق من أعمال الخير والرحمة ، عددا غير قليل ولم يجعل قمة الثواب وقفا على من يفعلها جميعا ، بل ان واحدة منها قادرة على أن تأخذ بيد صاحبها ، إلى تلك القمة ، وهذا هو معنى العبارة الجليلة ، التى جاءت فى ختام الحديث : ـ (**الا أخذت بيده فأدخلته الجنة**) ٠

هذه نماذج من شمائل سيد ولد آدم ، ﷺ ، الذى أدبه ربه فأحسن تأديبه ، تصورها أقواله وأفعاله ٠ جاء كما أسلفنا القول ، فى عرض شائق وهى خير ما تستلهم منها المجتمعات الاسلامية تربية تأخذ بها إلى مستوى الخيرية ، التى رفع الله اليها هذه الأمة المحمدية ، إذ يقول عزّ من قائل (**كنتم خير أمة أخرجت للناس**) هذا والحديث موصول ٠

الإنسان في الرسول الذي رفع الله به قدر الحياة (٢)

الرسول الذى اصطفاه الله ، واختاره والذى هيأه تفوقه الأخلاقى ، والعقلى ، والروحى لأن يكون رائد أمته ، وهيأه واصطفاه الله ، لأن يكون الامام الذى يجُل ويطاع ، محمد ﷺ ومعه كل هذه المميزات ، يرفض كل امتياز ، وينحى كل تمايز ، ولا يفتأ يتلو على الناس هذه الآية الكريمة

﴿ إنما أنا بشر مثلكم ﴾ .

بهذه العبارة الأخاذة ، علق صاحب كتاب إنسانية محمد ، على جملة من الأحاديث النبوية فى حوادث معينة ، يستشف منها إلى أى مدى بلغ الرسول الكريم ﷺ ، فى تواضعه وعدم تمايزه ، وارتفاعه عن غيره ، وفى تخطيطه للرحمة فى مختلف مجالاتها كما سبق أن عرضنا لذلك ، وعلى سبيل المثال ، نورد حديث (**هون عليك إنما أنا ابن امرأة كانت تأكل القديد**) يخاطب بذلك من جاءه يرتعد فرقا ، منه وحديث (**علمت أنكم تكفوننى ، ولكننى أكره أن أتميز عليكم**) يقول ذلك لأصحابه ، وهو يجمع لهم الحطب ، لاعداد الطعام ، وحديث (**ويحك ، فمن يعدل إن لم أعدل**) يجيب بذلك الأعرابى الذى خاطبه فى جفوة قائلا : ـ اعدل ـ وننتقل بعد ذلك إلى جملة أحاديث ، يحارب فيها رسول الهدى ﷺ الظلم والظالمين ، ليتجافى بالأمة ، من التورط فى دركات الظلم ، ويبشع لهم أمره ، وعاقبته فيقول : (**اتقوا الظلم فان الظلم ظلمات يوم القيامة**) (**اتق دعوة المظلوم فانه ليس بينها وبين الله حجاب**) ، (**ان الله ليملى الظالم حتى اذا أخذه لم يفلته**) (**من كنت أخذت له مالا فهذا مالى**

فليأخذ منه) ، (**ومن كنت جلدت له ظهرا فهذا ظهرى فليقتد منه**) ، وحديث (**أنصر أخاك ظالما أو مظلوما**)، ثم يعلق المؤلف على هذه الأحاديث بقوله : (الظلم يتخذ أشكالا شتى فهناك ظلم بالفعل وهناك ظلم بالقول ، وهناك ظلم بالشعور ، قد تظلم الآخرين بأفعال تأتيها ، وقد تظلمهم ، بكلمة تقولها ، وقد تظلمهم بمجرد ، مشاعر كريهة ، تنطوى عليها نفسك ، ومحمد عليه الصلاة والسلام ، يحيط بهذه الأشكال جميعا ، فى ذكاء عظيم وفى ولاء للعدل أعظم فلننظر الآن ، كيف يكافح الظلم كله ، الظلم الذى يتمثل فى حركة ، والظلم الذى يتمثل فى كلمة ، والظلم الذى يتمثل فى خلجة نفس ، أما الظلم بالفعل ينتظم كل عدوان على الناس ، فى أنفسهم ، وفى أعراضهم ، وفى أموالهم وحقوقهم) ٠

وإن من الطريف الجليل الأخاذ تقدمة المؤلف ، لفصل عقده بعنوان (ولب فطرته) يقول فيها : ـ الحب عنده طبيعة وفطرة لا غرض وشهوة ، من هذا كان يبذل حبه فى سخاوة نفس نادرة النظير ، أحب الله ، وأحب الناس ، والزمان ، والمكان ، وأحب كل شىء فى كون الله الرحيب ، وحين نتتبع الحب فى حياته ، وفى أحاديثه ، نجده قد اتسع لكل شىء ، ثم يدلل على ذلك ، بطائفة من الأحاديث النبوية ، تصور هذا الحب ، الذى اتسع لكل شىء ، ومن أبرزها أحاديث تفصح عن أن الحب فى الله من كمال الايمان كحديث (**والذى نفسى بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولن تؤمنوا حتى تحابوا**) أما حين يكون الظرف يفرض على المسلم بغضا فى الله ، كما أحب لله فان المؤلف لا يخرج هذا البغض عن كونه آتيا فى مسارب الحب ، ويدلل على ذلك بقوله ، فهو ويعنى الرسول الكريم ﷺ ، حين يحب الحق ، وهذا الحب يقتضيه ان يبغض الباطل ، وهو يحب العدل ، وحبه للعدل ، يتطلب أن يكره الظلم ، وهكذا فهو لا يبغض عن حقد او تره ، وانما يبغض حين يكون البغض موقف دفاع عن شىء يحبه ، وهو لا يحب لنفسه ، ولا يبغض لنفسه ، وانما تحدد طبيعته العليا السامية ، ما يحب وما لا يحب ، ويعرج

بعد ذلك على بغضه ﷺ ، لخصوم الحق ، وهو ما تفرضه عليه عقيدته ، فأوثق عرى الايمان ، الحب فى الله ، والبغض فى الله ، ويعلل هذا البغض ويقول :- على أن بغضاءه هذه ، عندما يكون موضوعها أناسا يستحقونها ، لم تكن ذات أصالة فى طبيعته ، ولا فى سلوكه ، بل مجرد سحابة عابرة ، لا تلبث شمس حبه أن تسطع على أثرها ، مرسلة ضياءها وسناها ، فها هو يلقى من خصوم دعوته فى قريش ، أشد الأذى ، وأفدح المؤامرات ولكنه لا يكاد يدخل مكة ظافرا ، حتى يقول للذين أخرجوه وكادواله أعظم الكيد (**اذهبوا فأنتم الطلقاء**) لقد أبغضهم حين أخذوا على عاتقهم ، القاء نور الله ومقاومة الخير ، والحق ، فلما زال عنهم بأسهم الذى غرهم بالله ، وحرضهم على الشر زالت بغضاؤه لهم وكأنها لم تكن ٠

ولعله يعنى بزوال بأسهم ، استسلامهم للاسلام ، ودخولهم فى دين الله أفواجا ٠ والاسلام ، يجب ما قبله ، فلم يعد للبغض فى قائمة الاخوة معيار ، أو مسلك ، المسلم اخو المسلم ، لا تباغضوا ولا تدابروا ، بل على العكس تحابوا وتضامنوا ، لقد أحب ﷺ فى الله ، ووجه الأمة ، لأن يتحاب أفرادها فى الله ، ليكون الحب أمنا فى دنياهم ، يتعايشون فى ظلاله وأمنا فى اخراهم ، يدخلون به الجنة دار السلام ، وانه حب بعيد عن المنافع ، والأغراض وعن هوى النفس ، فهل آن للمسلمين أن يقيموا اعلامه ، وأن يتجافوا عن البغض ، والفرقة عن التناحر ، والتناكر والتدابر ، والذى أطمع فيهم أعداءهم ، وأوجد لهم ثغرة يدخلون منها على المسلمين ، يدسون الدسائس ، ليبددوا شملهم ، وليقضوا على وحدتهم ؟ أجل ، ذلك هو الجدير بأخوة الاسلام التى باركها الله بقوله :-

﴿ إنما المؤمنون إخوة ﴾ ٠

الإنسان في الرسول الذي رفع الله به قدر الحياة (٣)

فى حشد من الأحاديث النبوية الكريمة ، التى صح بها النقل والتى يركز فيها الرسول الكريم ﷺ ،على الرحمة ،جاء فى الحديث ،الذى يقرر فيه ﷺ ، حقوق الجار ، بالنسبة لجاره ، فيقول (**اذا استعانك فأعنه ، واذا استقرضك أقرضه ، واذا افتقر عدت عليه**) أى بمالك بما يسد خلته ، أو يكون اسهاما فى تخفيف عبء الفاقة عنه ، ثم يمضى الرسول فيقول : ـ (**واذا مرض عدته واذا أصابه خير هنأته ، واذا أصابته مصيبته عزّيته ، واذا مات ، اتبعت جنازته ، ولا تستطل عليه بالبنيان ، فتحجب عنه الريح ،الا باذنه ولا تؤذه بقتار ريح قدرك الا أن تغرف له منها ، وان اشتريت فاكهة ، فاهدله فان لم تفعل ، فأدخلها سرا ، ولا يخرج بها ولدك ليغيظ بهـا ولـده**) • ويعقـب على هذا الحديث ، أو يعلق عليه صاحب كتاب (إنسانية محمد) فيقول :

أية إنسانية شحنت بها هذه الكلمات ، وأى خلق عظيم هذا الذى وهبه الله محمدا ﷺ ، ويستمر فى تعليقه ، فلا نتابعه فى ذلك خشية الاطالة ، والواقع أن الوصية بالجار والتعريف بالواجبات نحوه ، والتعرض لحقوقه ، لم يكن بأعظم من الوصية باليتيم ، ورعايته واكرامه ، فلقد ارتفع رسول الهدى ﷺ بمقام كافل اليتيم ، حتى جعل له البشارة بكريم صحبته ، ﷺ (**أنا وكافل اليتيم فى الجنة كهاتين**) مشيرا بأصبعيه السبابة والوسطى يقول أيضا : (**والذى بعثني بالحق لا يعذب يوم القيامة من رحم اليتيم وألان له الكلام ورحم يتمه وضعفه**) ويعلق صاحب كتاب (إنسانية محمد) على هذه الأحاديث فيقول :

إن محمدا ﷺ يتعقب قسوة القلب فى كل مجال ، لأنه يدرك مسؤوليتها عن الخوف الذى يسلطه بعض الناس على بعض وعن السوء الذى يلحقه بعض الناس ببعض ، وبعبارة واحدة ، فمحمد الذى املت عليه رحمته الوافية ، تحرير الناس من الخوف ، ينظم حملة واسعة ، ضد الشرور الضارية فى الحياة الانسانية ، فطارد القسوة وطارد القطيعة ، وطارد الصلف والغرور ، ثم طارد الغضب ، ثم يستشهد على مطاردة الغضب بجملة أحاديث منها قوله ﷺ لمن سأله من أصحابه ، عن عمل يدخله الجنة فقال له : ـ (**لاتغضب**) وحديث (**ألا أخبركم بمن تحرم عليه النار ، تحرم على كل هين لين سهل**) ثم يورد فى مطاردته ﷺ للحسد والبغضاء حديث (**لا تحاسدوا ولا تدابروا ولا تباغضوا وكونوا عباد الله اخوانا**) ويطارد الفضول فى مختلف صوره ووسائله فيقول :

(**من اطلع فى بيت قوم بغير اذنهم فقد حل لهم ان يفقأوا عينه**) وحديث (**من استمع إلى حديث قوم وهم له كارهون صب فى أذنه الآنك**) أى الرصاص المذاب يوم القيامة وفى صور الرحمة يقول ﷺ : (**لا يشر احدكم إلى أخيه بسلاح فانه لايدرى لعل الشيطان ينزع فى يده)(أى يرمى)(فيقع فى حفرة من النار**) وحديث (**من أشار إلى أخيه بحديدة فان الملائكة تلعنه حتى ينتهى وان كان أخاه لأبيه وأمه**) وفى تقوية الشد على الروابط ، روابط الاخاء الاسلامى ، على اعتباره صورة للرحمة ، إذ أن التفكك والفرقة بين صفوف الأخوة ، سبيل للشحناء والبغضاء ، التى تتنافى مع صور الرحمة ، أقول فى تقوية الشد على الروابط نجد من الأحاديث ما يباعد عن الغيبة والنميمة والبهت ، وينفر منها من ذلك قوله ﷺ (**شرار عباد الله المشاءون بالنميمة المفرقون بين الأحبة الملتمسون للبرءاء العيب**) وحديث (**ان دماءكم وأموالكم وأعراضكم حرام عليكم**) الحديث،وانها لمثل رفيعة يخططها ﷺ للشمول فى مجالات الرحمة ، تربى فى النفوس العطف والشفقة ، اللذين هما الطابع للمسلم ، ولا نطيل فى سرد الأحاديث ، فحسبنا الالماع والاشارة دون الافاضة والاطالة ، فان

من أدبه ربه فأحسن تأديبه ، هو المثل الكامل ، الذى يصور العظمة فى أرفع ذروة ويخطط اذ يرسم الطريق للحياة ، العامة ، ليسود التفاهم بين المجموع ويتم التعايش فى ظلال الأمن من السطو والحقد والشرور ، ومهابط الأخلاق ، ان المجتمعات الاسلامية فى أعقاب الزمن ، وقد رفعت فيها للفتن صوىً هى فى أشد الحاجة إلى الرجوع إلى التخطيط النبوى والسير عليه واتخاذه منهاجا للحياة العامة ، يعصمها بعصمة الله ، من التخبط والذبذبة ، ويغنيها عن اللجوء إلى تخطيطات أوروبا ، ومزاعمها ، فى الحفاظ على حقوق الانسان ، والدعوة إلى الأخذ بها ، فهل يتفتح الوعى الاسلامى لذلك ؟ وهل تجد المجتمعات الاسلامية من الشجاعة الأدبية ما يحفزها إلى الاعلان عن دين محمد ﷺ وخلق محمد ، وانسانية محمد ، وفضائل محمد ، والنهج السديد الرشيد ، الذى دعا اليه محمد ، وسارت عليه القرون ، المفضلة فى عصور النور ، فدانت لها بذلك الدنيا ، وأضحت خير أمة أخرجت للناس ؟ ذلك هو الأمل فى الله ، ان يهب للأمة رشدها ، فتأخذ بهدى نبيها ، وتصلح فى أخريات دهرها ، كما صلح سلفها فى ماضى عهدهم ، سدد الله الخطى .

❋❋❋

ذكرى الولادة الشريفة

إن فى تجدد المناسبات لهذه الذكرى ، على مرور الأعوام ، شحذا للعزائم ، وحفزا للهمم ، ودفعا للأمة ، لكى تأخذ الطريق المرسوم ، الـذى تركهـا عليه صاحب الذكرى ، ﷺ ، ولتبقى على عهده ، وتحقق ما وضعـه من معالـم الاصلاح دون أن ينقطع بها الطريق أو تندّ عنه أو تختلف عليه ٠

أما ما يجب أن يعرف عن صاحب الذكرى ، ﷺ ، فان المناسبة لتحتم علينا أن نلمـع إلى بعض ذلك دون إفاضـة أو اسهـاب ، من باب التـذكرة والاسهام ، فى يوم الذكرى ، والاّ فان كتب السير والأخبار ، لم تترك شاردة أو واردة فى هذا المجال ، الا أشارت إليها ، ونبدأ هذه الالماعة بقوله ﷺ ، فيما يشير إلى أصله وكرم عنصره ، ونظافة نسبه : (**إن الله اصطفى من ولد ابراهيم اسماعيل ، واصطفى من اسماعيل كنانة ، واصطفى من كنانـة قريشـا ، واصطفى من قريش بنى هاشم ، واصطفانى من بنى هاشم ، فانا خيار من خيار**) ولقد شب وترعرع بين بطاح مكة ، يتيما ، وإن اليتم كما نعته أحد العلماء ، أجلّ مصادر العصمة شأنا ، حين يواتى طفلا يحمل استعدادا عظيما ، ويقـول أيضا : ومن أقوى من الأحياء جميعا من اليتيم ، الذى يواجه الوجود وحده ، وينهض بالعبء وحده ، وينمو تلقائيا ، كالشجرة الباسقة ، ويستمر : إنه نشأ يتيما ولكنه فى كلاءة ربه (**اليس الله بكاف عبده**) وحسبك بمن أدبه ربه فأحسن تأديبه ، ونوه عن ذلك فى محكم كتابه ، مشيدا بكريم سجايا هذا اليتيم (**وانك**

لعلى خلق عظيم) وارتفع به الى سماواته

﴿ والنجم اذا هوى ماضل صاحبكم وما غوى وما ينطق عن الهوى ان هو الا وحى يوحى علّمه شديد القوى ذو مرة فاستوى وهو بالافق الأعلى ثم دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى فأوحى إلى عبده ما أوحى ما كذب الفؤاد ما رأى افتمارونه على ما يرى ولقد رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى عندها جنة المأوى اذ يغشى السدرة ما يغشى ما زاغ البصر وما طغى لقد رأى من آيات ربه الكبرى ﴾

ومضت عليه فترة عصيبة من الزمن ، عندما صدع بأمر ربه وقام مبلغا عن الله رسالته وداعيا إلى الله باذنه ، فكم أوذى واضطهد ـ وكم عذب أصحابه وشردوا ، حتى كان خاتمة هذا العذاب والايذاء هجرته إلى المدينة ، ثم نازل خصوم دعوته بالسيف والسنان ، حيث لم تجدِ الحجة والبرهان فكانت له الغلبة والنصر ، شأن الحق ، إذ يدحر الباطل أبدا ، بعد المصابرة والصبر

﴿ هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون) .

ويجمل بنا بعد هذا العرض الموجز ، أن نذكر شيئا مما امتاز به على الرسل قبله ، يوحى بأنه ﷺ ، سيد الأنبياء والمرسلين ، وأن شريعته خاتمة الشرائع ، الصالحة لكل زمان ومكان ، فمن ذلك ما أشار اليه ﷺ بقوله (**أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلى ، كان كل نبى يبعث إلى قومه خاصة ، وبعثت إلى كل أحمر وأسود ـ أى ان رسالته عامة دائمة ، إلى يوم القيامة ـ وأحلت لى الغنائم ، ولم تحل لأحد قبلى ، وجعلت لى الأرض مسجدا وطهورا فأيما رجل من أمتى أدركته الصلاة فليصل ، ونصرت بالرعب مسيرة شهر وأعطيت الشفاعة ، وهى الشفاعة العظمى التى يتخلف عنها أولو العزم ، من الرسل ، فيتقدم ﷺ ، ويسجد تحت العرش ، يستأذن فى الشفاعة ، فيقال**

له ارفع رأسك ، وسل تعط وأشفع تشفّع) رواه البخارى وفى رواية لمسلم (أعطيت ستا) بزيادة (وأعطيت جوامع الكلم وختم بى النبيون) ولمسلم أيضا من حديث ثوبان رضى الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : (ان الله زوى لى الأرض) يريد قرب البعيد منها حتى اطلع عليها (فرأيت مشارقها ومغاربها ، وان امتى سيبلغ ملكها مازوى لى منها وأعطيت الكنزين الأحمر والأبيض). وهما كنزا كسرى وقيصر، قال العلماء :ـ وعبر بالأحمر، عن كنز قيصر ، لأن الغالب عندهم كان الذهب ، وبالأبيض عن كنز كسرى لأن الغالب عندهم كان الجوهر والفضة ، وقد مثل تاج كسرى وحليه وما كان فى بيوت أمواله ، بين يدي الخليفة الراشد ، عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وكذلك أموال قيصر ، وهو مصداق قوله ﷺ (والذى نفسى بيده لتنفقن كنوزها فى سبيل الله) ومن مميزاته ﷺ ان الله ايده بالقرآن ، معجزة خالدة إلى يوم القيامة حيث تكفل بحفظه ، من التبديل والتغيير ، كما قال تعالى :

﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾

فلقد أعجز البلغاء والفصحاء ان يأتوا بمثله ، أو ببعض آيات أو بآية من جنسه ، ويسر الله على الأمة حفظه ، وتلاوته ، كما قال تعالى (ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مُدَّكِر) وأنه يحوى جميع ما فى الكتب السماوية قبله ، ويزيد عليها ، ولذلك كان مهيمنا عليها كما قال تعالى :

﴿ وأنزلنا اليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه ﴾

ومن مميزاته ﷺ أن شريعته أكمل الشرائع ، واتمها ، وأوفاها ، رفع الله فيها الأغلال والآصار التى كبلت الأمم فى الشرائع السابقة ، كما قال تعالى :

﴿ الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والانجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم اصرهم

والأغلال التى كانت عليهم فالذين امنوا به وعزروه ونصروه ، واتبعوا النور الذى أنزل معه ، أولئك هم المفلحون ﴾

وكم للرسول الكريم العظيم ، من مميزات ، ولشريعته من فوارق وسمات ، لا يحدها الحصر ، وحسبنا الاشارة اليها ، ففى دراستها ، والعكوف عليها ، والايمان بها ، ونشرها ، مع ما يجب على الأمة من حفز الهمم ، وشحذ العزائم ، للسير على طريق الهدى ، الذى تركها عليه رسول الهدى ﷺ والذى قال عنه : (**تركتكم على المحجة البيضاء ليلها كنهارها ، لا يضل عنها الا هالك**) ٠ ومحبته ﷺ ، أعظم من محبة الوالد لولده والولد لوالده ، بل أعظم من محبة الناس أجمعين ، فى ذلك كله غنية عن كل ما يجنح اليه البعض من إظهار الحفاوة بيوم الذكرى ، بمظاهر براقة ، ولم تعرف عن سلف الأمة فى عهود خيارها ، وصفوة أصحاب رسول الله ﷺ ، إنها فى واقعها لاتعدو ان تكون صورا لا تعبر عن واقع ، ولئن كان مجرد الصورة يحكى الواقع ، وكانت المظاهر تعبر عن الحقائق فان فيما ذهب إليه البعض من ترويج الاحتفالات ، واقامة الزينات ، وقراءة الموالد والترنم بالموشحات ، فى يوم الذكرى ما يعبر عن حقيقة الحب والاجلال ، والتقدير للرسول الأعظم ﷺ ، وليس الأمر كذلك ، فالرسول العظيم الكريم ارتفعت عظمته فوق كل عظمة ، لعظيم فى البشر فهو فى قلب كل مسلم ـ وهجّيرا كل مؤمن ، يذكره فيصلى عليه ، ويقرن اسمه باسم الله ، فى كل آذان يستمع إليه المسلم ، فيسأل الله له الوسيلة ، وان يبعثه المقام المحمود ، كما ندب إلى ذلك ﷺ وصدق الله اذ يقول :

﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم ﴾ ٠

مثل رفيعة لصاحب الهجرة

فى هذه المناسبة السعيدة ، مناسبة هجرة خير الورى ، من بلده أم القرى ، إلى المدينة مأزر الدين ، وملتقى الأحبة فى الله ٠

من البلد الأول والذى شع فيه نور الهدى مكة ، وأشرقت فيه شمس الحقيقة ، عارية عن الزيف فأشرقت باشراقها ، قلوب خالطتها بشاشة الايمان ، وعشت بها أبصار بهرها نور الحق ، فتخبطت فى الدياجير ، فى هذه المناسبة السعيدة ، مناسبة الهجرة ! يجمل بنا أن نتحدث عن الهجرة وصاحب الهجرة ﷺ ، والمثل الرفيعة التى رسمها ، والمهابط التى يحجز الأمة عن أن تتردى فيها ، وإنما تخلد الذكرى بذلك ، لا بالمظهر البراق ، الذى لا يصور واقعا ولا يهدى إلى سبيل راشد ، وانا لن نستوعب فى هذا الحديث ، المقتضب كل ما نريد أن نتحدث به عن الهجرة ، وملابساتها ، ولا كل ما يجب لصاحب الهجرة لنلمّ بكل شاردة أو واردة فى حياته ، وحسبنا أن نقصر حديثنا ، على بعض المثل ، الرفيعة ، التى رسمها صاحب الهجرة ﷺ ، لنخرج من هذه الذكرى ، بحصيلة ، ولنكون ممن عنى بالجوهر ، دون العرض ٠ وإن من المثل الرفيعة ، التى رسمها صاحب الهجرة ﷺ ، مما يحفظ التوازن بين الأمة ، ويقضى على الضغائن ويجعل بناءها مشدودا ، شامخا ، متراصا ، لا تخالف فيه ولا صدوع ، من ذلك قوله ﷺ ، **(المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه)** وذلك هو واقع المسلم موطأ الاكتاف ـ سلم لغيره ، لا يجهل بلسانه ، ولا تبدر منه بوادر السوء بجوارحه لا يصخب ولا يثور

ولايغضب ، فالغضب سبيل التجنى ، وطريق الزلل والخطل ، وحسب المسلم سعادة أن يكون ممن وصفهم رب العزة فى محكم الكتاب بقوله :

﴿ وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما ﴾

أما واقع المهاجر ، فى أوسع مدلول للهجرة ، فهو من ينتقل بجسمه وروحه ومشاعره ، وميوله ، ونزعاته ، مما يكرهه الله ، ويمقت عليه ، من معصيته ، وأسباب غضبه ، إلى ما يحبه ويرضاه من طاعته ، ووسائل الزلفى اليه ، فالمهاجرة بهذا المعنى ، لا تقف عند حد الانتقال ، من بلد الشرك والطغيان ، إلى حمى الاسلام ، وجوار الاخوان ، بل هى عامة شاملة ، فكل مسلم يجب عليه أن يهاجر هذه الهجرة بان يستبدل الذى هو أدنى بالذى هوخير ، فى كل مسلك من مسالك حياته ، وفى كل اتجاه يتجهه ، فى معاملاته ، وفى عبادة ربه ، ومن لم يكن كذلك ، لم يكن فى واقعه مهاجرا ، الهجرة المفروضة ، بمعناها الشامل الكامل ، وإلى جانب هذا المثل الرفيع ، الذى رسمه رسول الهدى ﷺ ، لواقع المسلم والمهاجر ، مثل يفرض التكافل الاجتماعى ، والتضامن الاسلامى ، بحيث يسود فى المجتمع الهدوء ، والاطمئنان ويتجلى فيه الشعور ، برابطة الاسلام ، يوضح ذلك قوله ﷺ : (**مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى**) وقوله : (**المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه ومن كان فى حاجة أخيه كان الله فى حاجته ومن فرج عن مسلم ، كربة من كرب الدنيا فرج الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ومن ستر مسلما ستره الله يوم القيامة**) وقوله (**لا يؤمن احدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه**) .

وقوله : ـ (**أنصر أخاك ظالما أو مظلوما**) وقوله : ـ (**ليس المسلم الذى يشبع وجاره جائع إلى جنبه**) وقوله : ـ (**كل معروف صدقة**) وقوله : ـ (**من كل له فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له ومن كان له فضل زاد فليعد**

به على من لا زاد له) فقال رواى الحديث :ـ فذكرأى الرسول الكريم من أصناف المال ما ذكر ، حتى رأينا أنه لاحق لاحد منا فى فضل أى يحتجزه عن مستحقه ، إلى غير ذلك من المثل التى جاءت بها السنة الشريفة ، والتى رسم بها صاحب الهجرة ﷺ ، أفضل منهج للتكافل الاجتماعى ، وخطط أرفع اتجاه تسير فيه الأمة ، نحو هدف عظيم ، الا وهو جمع الشمل ، ولم الشعث والحفاظ على جامعة الأمة ، وشدّ رابطتها ، والقضاء على التخالف بين صفوفها ، فلو أخذت الأمة بهذه المثل الرفيعة ، وربت عليها الأجيال ، فى المجتمعات الاسلامية ، واهتدت بهدايتها لكان لها شأن عظيم ، ولأضحت فى منجاة عن المبادىء الهدامة الوافدة عليها ، وغيرها من المبادىء التى لا تضمن سلاما للمجموع ، ولا تعالج مشكلة ، ولا يجد محتضنها غير العناء والفشل الذريع فى أشواط حياته وخيبة الأمل .

***

خاطرة !

﴿واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون ﴾

وأيم الله إنها خاطرة خطرت لى وأنا أستمع إلى إمامنا فى الصلاة وهو يردد هذه الآية الكريمة :

﴿ واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله ﴾

الآية ، وتخنقه العبرة مع الترديد ، والترتيل ، فشاركته شعوره ، وتأثرت اذ لحظت من ثنايا الترديد ، ما ألمعت إليه الآية الكريمة ، من المعانى السامية ، وما ترسمه من خطة مثلى ، فى التذكير ، وتوجيه الأنظار ليوم المعاد ، يوم العرض والجزاء ، يوم كشف السرائر واعلان المخبئات والمكنونات ، من دخائل الصدور وخبايا الأنفس ، يوم توضع موازين العدل ، وتنشر صحائف الأعمال ، ويحاسب العبد فيه على النقير والقطمير ، ولا يظلم ربك أحدا

﴿ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين ﴾

يوم تعنو وجوه العباد للحى القيوم وتذل أعناق الجبابرة للفرد الصمد ذى الجلال والعظمة فيخاطبهم بقوله : ـ أنا الملك أنا الديان · (**لمن الملك اليوم لله الواحد القهار اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لاظلم اليوم إن الله سريع الحساب**) ·

يوم تسقط كل القيم والمقاييس وتزول الفوارق ، إلا قيمة التقوى ، معيار العمل المبرور وفوارق الباقيات الصالحات مما كان قد أسلفه العبد وأعده ليومه ،

﴿ فاذا نفخ فى الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ومن خفت موازينه فاولئك الذين خسروا أنفسهم فى جهنم خالدون ﴾ .

يوم يتنكر الخليل لخله والحبيب لحبه ، والقريب لأقرب الناس إليه ، وأعزّهم عليه ، وأرفعهم منزلة عنده

﴿ الاخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو الا المتقين ﴾ ﴿ يوم يفر المرءُ من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه ﴾ .

يوم تنعدم الوساطات وتتلاشى المحسوبيات والزعامات والحزبيات وتضحمل الشخصيات ولا يسأل حميم حميا

﴿ واتقوا يوما لا تجزى نفس عن نفس شيئا ولا يقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعة ولا هم ينصرون ﴾ ﴿ يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون الا من أذن له الرحمن وقال صوابا ﴾ ﴿ ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع ﴾ .

أقول شاركت إمامى شعوره واحساسه ، اذ مرّت بخاطرى كل هذه الصور لذلك اليوم الموعود المرتقب وخطرت لى كل هذه الخواطر ، أسرع من لمح البرق ، فاندفعت بعد صلاتى لتسجيل هذه الخاطرة ، أو الخواطر على الأصح ، وتخليد هذه الذكرى ، أو هذه الموعظة المؤثرة العابرة ، بمقال أجعل فيه الآية الكريمة السالفة عماد البحث ، إذ كانت باعثة تلك الخواطر فى النفس والموحية بها ، ولأتحدث إلى القارىء الكريم ، عما دار فى نفسى ، من أحاسيس ومشاعر وما اهتاج فيها من عواطف ، وما أخذت به من روعة تصوير الآية الكريمة للموقف ،

ومن جلال التذكير وحسن التوجيه ، وما تحفز إليه من ضرورة انتهاج مسلك ينتظم الوانا من الصور ، فى شتى المجالات ومختلف المعاملات والعلاقات ، وفى جميع حلبات السعى وميادين نشاط الأعمال مما يندرج فى الوضع المثالى المعبر عنه فى الآية بلفظ التقوى والذى على مبلغه يترتب لون المجازات فى الآجلة إن خيرا فخير وإن شرًا فبنظيره جزاء وفاقا ·

فالتاجر فى متجره والصانع فى مصنعه ، والموظف فى حدود عمله وامكانياته والعامل فى مزرعته ، أو فى حقول نشاطه ، كل أولئك وغيرهم ممن لا تحدهم الأمثلة أو ينحصرون فى لون من الوان النشاط والكسب المتشعب ، أقول كل أولئك عليهم أن ينصرفوا بجهودهم إلى كل مناحى الخير وسبل الفلاح ، وصالح الكسب ، كى يحققوا بذلك ، الجانب الأعظم ، من معانى التقوى والصلاح الغامر ، فيفوزوا برضاء الله ورضوانه وحسن جزائه فى اليوم الموعود · وقد جاءت الآية التى نحن بصددها ، عقب التحذير من أخطر تعامل منيت به الانسانية ، وأبشع نسق تواضع عليه الجاهليون ، ووضع رسول الاسلام قواعده ، تحت قدميه ، وهدم بنيانه ، الا وهو الربا واتساق الآية مع آية الربا ملحوظ ، من حيث ترتيب المقامات ، والتدرج من نقطة إلى أخرى والترابط بين الأجزاء ، وتبدأ الخطوة الأولى أو المقام الأول من قوله تعالى :

﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا ان كنتم مؤمنين ﴾

وتنتهى بآية الدين وأحكام التداين : -

﴿ يا أيها الذين آمنوا اذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه ﴾

فالمقام الأول صريح فى النهى عن تعاطى الربا يليه تأكيد التحريم بالتغليظ على المرابين ، وبيان أن مسلكهم ما هو الا جناية كبرى ومحادة لله ، تقتضى إعلانهم بحرب الله ورسوله وذلك غاية الوعيد والتهديد ·

يلى ذلك ، بيان الحكم فيما سلف من المعاملات الربوية بعد الاذعان لأمر الله تعالى والاستجابة له ، والتوبة النصوح من الربا وذيوله ومداخله .

يلى ذلك التوجيه إلى ضرورة ايجاد تكافل محمود ، وروح تعاونية تقدر ضرورة المعوز المدين ، فتوحى بإنظاره ، فى سداد الدين الحال إلى ميسرة ، أو تسلك معه سبيلا أرفع ، ومسلكا أفضل وأعظم أثرا فى الحفز إلى إبراء ذمته من كامل الحق المتعلق بها ، والتصدق عليه برأس المال ، والدين الذى الجأته الضرورة إليه ، فاذا لم يكن هذا ولا ذاك أى جنح الدائن إلى الاحراج والتضييق على المعسر فلم ينظر أو يتصدق عليه ، ويحسن إليه ، فالمقام عندئذ يقتضى التخويف والتوعد او بتعبير أدق يتقضى المقام ترغيبا ، وترهيبا ، ترغيبا فى الخير ، وتنبيها لعواطفه فى النفس وتخويفا وتوعدا بالمقاضاة وعسير الحساب ، كى تخمد جذوة الجشع ، والأنانية الطاغية ، وليتم من هذا المزيج بين عاملى الترغيب ، بلوغ الغاية ، فى التكافل الاجتماعى وتدعيم الأخوة الاسلامية ، بهذا اللون من التضحية ، ومظهر العطف والرحمة ، وهو ما تعنيه آية ﴿ **واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله** ﴾ الآية،ولعل مما يزيد الموضوع بسطا ووضوحا هذه السطور التالية من تعليق العلامة ابن القيم على الآيات التالية اذ يقول :

﴿ **يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين** ﴾

صدّر الآية بالأمر بتقواه المضادة للربا وأمر بترك ما بقى من الربا بعد نزول الآية وعفا عما قبضوه به قبل التحريم ثم أكد عليهم التحريم بأغلظ شيء وأشده ، وهو محاربة المرابى لله ورسوله فقال تعالى :

﴿ **فان لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله** ﴾

ففى ضمن هذا الوعيد أن المرابى محارب لله قد آذنه الله بحربه ، ولم يجىء هذا الوعيد فى كبيرة سوى الربا وقطع الطريق والسعى فى الأرض بالفساد ، ثم قال : ﴿ **وإن تبتم فلكم رؤوس أموالكم** ﴾ يعنى إن تركتم الربا وتبتم إلى الله منه ،

وقد عاقدتم عليه فانما لكم رؤوس أموالكم لا تزدادون عليها فتظلمون الآخذ ولا تنقصون منها فيظلمكم من أخذها ، فان كان هذا القابض معسرا فالواجب انظاره إلى ميسرة ، وإن تصدقتم عليه وأبرأتموه فهو أفضل لكم وخير لكم • فان أبت نفوسكم وشحَّت بالعدل الواجب ، أو الفضل المندوب ، فذكروها يوما ترجعون فيه إلى الله وتلقون ربكم فيوفيكم جزاء أعمالكم أحوج ما أنتم إليه •

ففى هذا البسط والتعليق يلوح ما أسلفت التحدث عنه من اتساق الآيات وارتباطها فى ترتيب المقامات ووحدة الهدف •

وقال عمدة المفسرين ابن جرير رحمه الله فى تفسير آية ﴿ **واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله** ﴾ : احذروا أيها الناس يوما ترجعون فيه إلى الله فتلقونه بسيآت تهلككم وفضيحات تفضحكم فتهتك استاركم ، أو بموبقات توبقكم ، فتوجب لكم من عقاب الله ما لاقبل لكم به ، وانه يوم مجازات الأعمال ، لا يوم استعتاب ، ولا يوم استقالة ، وتوبة ، وانابة ، ولكنه يوم جزاء وثواب ، ومحاسبة توفّى فيه كل نفس أجرها على ما قدمت واكتسبت من سيىء وصالح ، لا يغادر فيه صغيرة ولا كبيرة من خير أو شر الا أحضرت فتوفى جزاءها بالعدل من ربها وهم لا يظلمون ، فليتق أمرؤ ربه وليأخذ منه حذره ، وليراقبه أن يهجم عليه يوم وهو من الأوزار ظهره ثقيل ، ومن صالحات الأعمال خفيف ، فانه عز وجل حذر ووعظ فأبلغ •

واذن فالمجال أوسع من أن نحتجز فيه ميادينه أو نحد من فسيح تنائفه ولاحب سبله أقصد أن الآية التى نحن بصددها ليس مدلولها قاصرا على موضوع السياق فحسب ، بل هى حافز عظيم لتنوع وجوه البر والاحسان والصلة ومظاهر التراحم والتعاطف ومجالات التكافل الاجتماعى فى أوسع الحدود وأبعد النطاق ، ففى قوله تعالى (**ماكسبت**) تعميم يشمل وجوه الكسب الصالح والذميم وكلاهما مجال للتنافس واستباق الحلبات ولكل من الخليقة وجهة هو

موليها ، جريا على سنة الله تعالى فى الاسعاد والشقاوة والفلاح والخسران ، وبحسب ما اكتمل فى النفس من عواطف الخير ، أو اجتمع فيها من نوازع الشر ، مختلف الأهواء ، جاء فى الأثر عن الصحابى الجليل عبدالله بن مسعود رضى الله عنه (**ان للملك لمة ، أى زيارة ، وللشيطان لمة ، فلمة الملك ايعاد بالخير ، وتصديق بالحق ، ولمة الشيطان ايعاد بالشر ، وتكذيب بالحق**) وعلى قدر استجابة النفس وانصياعها لدوافع الخير ، أو اندفاعها وراء مغريات الشهوة ، وعوامل الفتنة ، ونوازع الشر يكون الجزاء (**فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال** ذرة شراً يره) ٠

وما أجمل ما نقله العلامة ابن القيم رحمه الله مما أثر عن ابن مسعود فى باب الوعظ والتذكير والدلالة والتوجيه مما نحن بصدده حيث يقول :

(إنكم فى مجرى الليل والنهار وفى آجال منقوصة ، وأعمال محفوظة والموت يأتى بغتة فمن زرع خيرا فيوشك أن يحصد رغبة ، ومن زرع شرا فيوشك أن يحصد ندامة ، ولكل زارع مثل ما زرع لا يسبق بطىء بحظه ، ويدرك حريص مالم يقدر له ، لا يطولن عليكم ولا يلهينكم الأمل فان كل ماهو آت قريب ٠ الا وان البعيد ماليس آتيا الا وان الشقى من شقى فى بطن أمه ، وان السعيد من وعظ بغيره ، شر المعذرة حين يحضر الموت ، وشر الندامة ندامة يوم القيامة ، وشر الضلالة الضلالة بعد الهدى ، وخير الزاد التقوى ، وشر العمى عمى القلب ، وشر المكاسب كسب الربا وشر المآكل مال اليتيم وإنما يكفى أحدكم ما قنعت به نفسه) ٠ إلى غير ذلك مما أثر عنه رضى الله عنه من روائع التوجيه ، وحصيف الموعظة وسديد القول مما يهدى إلى الرشد وسبيل الله السوى ٠

فالى الذين يبتغون الوسيلة الصالحة ، لبلوغ الغاية ، وإلى المدلجين فى المهيع ، والسائرين إلى الله فى أعقاب الصالحين ، كى يعتلوا مدارج السالكين ، الى كل من القى السمع وانتفع بالتذكير ، واتبع أحسن القول وأقومه ٠ إلى كل

هؤلاء وهم الكثرة فى الامة وسوادها الأعظم ، بفضل الله وموضع الاعتبار منها ، اليهم أزجى الحديث ، وأخصهم بالقول ، وأعنيهم بالمشاركة ، فيما غمرنى من إحساس وما داخلنى من شعور ، وما تفاعل فى نفسى ، من خواطر وخطرات وإيحاءات فياضة وعواطف جياشة لمناسبة هذا العرض الذى لخصت فيه الآية الكريمة ﴿ **واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله** ﴾ أروع مشهد من مشاهد القيامة ، وأجملت فيه موقفا من مواقف المجازات والحساب ، وأسفرت عن مفارقات يترتب عليها عدالة الجزاء ، وينتفى بها الظلم ، وجور الحكم ، وهو ما يليق بعظمة العظيم ، بارىء السموات والأرض ، من كتب على نفسه الرحمة ، ومن يعطى الجزيل ، ويتجاوز عن الذنب العظيم

﴿ **من عمل سيئة فلا يجزى الا مثلها ومن عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب** ﴾ ..

***

الفصل السابع

في موكب الحج

- خـواطـر .
- أعظم تجمع .
- التضحية من أهداف الحج .
- دروب التضحية .
- الحج صقل لنفسية المسلم .
- في الحج تصفية النفوس وتطهير القلوب .
- مكاسب الحَج .
- في إطار حجة الوداع .
- مركز الإشعاع الديني مكة .

خواطر

خواطر لا خاطرة واحدة ، كالتى تخطر فى أمر ما أوحول مشروع ، أو فكرة ، ثم لاتلبث أن تضمحل باضمحلال واقعها ، أو زوال الباعث عليها ، إنها خواطر فى الصميم ، تتصل بركن من اركان الاسلام ركن الحج ، فريضة الله التى فرضها على عباده ، فى العمر مرة لمصالح ومنافع تنتظمها هذه الخواطر اذا اشتبكت حلقاتها ، والحج كما يفهم من مدلوله اللغوى هو القصد والزيارة ، ومن مفهومه الشرعى قصد الاماكن المقدسة وعلى وجه التعيين والتحديد قصد بيت الله الحرام ، لاداء فريضة الله دون اخلال او امهال لمن استكمل الشروط واضحى فى عداد المكلفين .

والباعث على هذه الخواطر حلول موسم الحج واعتزام من يقصد اداء النسك فى اخذ الاهبة له ، واتمام العدة .

وإنا لنراعى فى تسجيل هذه الخواطر أهمية هى فى الطليعة بالنسبة لغيرها ، فقد لاتخطر على البال الا بعد كتابة ماهو أقل منها فى الأهمية بل قد لاتخطر ابدا فى الذاكرة ، وسوف ابدأ الكتابة على الطبيعة ، وبحسب ما تسعفنى الذاكرة ولقد رأيت أن أصحب الحاج بخواطرى منذ ان يصح منه العزم على الحج ، ويأخذ فى تجميع نفقته ، فقد اشترط أن تكون النفقة التى يعتد بها فى حجه ، من كسب حلال ، حرصا على زكاة حجه ، وبلوغه درجة البر ، ليحظى الحاج عليه بالجزاء الضافى الذى اعده الله لمن ارتفع بحجه عن المزالق والمآخذ ، كما جاء فى الحديث

(**الحج المبرور ، ليس له جزاء الا الجنة**) وفى حديث آخر (**من حج فلم يرفث ، ولم يفسق خرج من ذنوبه ، كيوم ولدته أمه**) • وقيل عن كثرة الحجيج ، مع عدم العناية بهذا الشرط ، الذى هو فى الطليعة مما يفتح الأذهان على شيء له خطورته :

اذا حججت بمال اصله سحت   فما حججت ولكن حجت العير
لايقبل الله إلا كل طيبة   ما كل من حج بيت الله مبرور

وقيل إيضا

خليليَّ قطاع الفيافى الى الحمى   كثير واما الواصلون قليل

وهنا تبدأ الخاطرة الأولى ، وهى ان الكسب الحلال ، مطلوب لكل غرض ، وخاصة فيما كان الكدح فيه للآخرة ، ولعمل صالح ، يزدلف به العبد الى مولاه ، كما جاء فى الحديث (**إن الله طيب لا يقبل الا طيبا وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين**) فقال (**ياأيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا**) وقال (**ياأيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم**) وتمام الحديث (**ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث اغبر يمد يديه الى السماء ، يارب يارب ومطعمه حرام وملبسه حرامه ومشربه حرام ، وغذى بالحرام ، فأنى يستجاب له**) اى ان طيب الكسب من وسائل استجابة الدعاء ، ولكن أنى للمسلمين بالكسب الطيب الذى لاشبهة فيه وقد ارتبطت أكثر معاملاتهم بالبنوك فى الزراعة والتجارة والصناعة وما اليه ، والبنوك تعتمد الفائدة المحدّدة المشروطة ، وتعطى نماء لايقوم على أساس مشروع ، أى خاضع للربح والخسارة ، فماذا يصنع من هذا وضعه ؟ وهل يحبط كل عمل صالح يقوم به ؟ ولعل المخرج من ذلك أن ينشأ فى المجتمعات الاسلامية ، اقتصاد اسلامى وبنوك للتسليف على اساس القرض الحسن ، تعمل هذه البنوك فى الاستثمار والبيع والشراء ، وكل مشروع حيوى ناجح مأمول فيه مضاعفة الارباح ، وتقوم هذه البنوك بتسليف الحجاج نفقة

حجهم ، تقسطها عليهم اقساطا معقولة فى آجال معينة ، وبضمانات للاستيثاق فى الحق ، كرهن مثلا أو كفيل ملىء ، وعندئذ تسلم نفقة الحجاج من شبهة الكسب الحرام ويرتفعون بحجهم الى درجة البر الذى هو محط الآمال ومنتهى المقاصد وهو الوسيلة للقبول والغفران والرضوان ، وليست هذه الفكرة أو الخاطرة عسيرة التنفيذ بعيدة المنال ، لوصح العزم من الحكومات الاسلامية ، لوضع المخطط لها والاستعانة بالخبراء فى الاقتصاد الاسلامى البعيد عن مزالق الربا ، وشبهه وانحرافاته • لقد أخبرنى من أثق به أنه اشترك فى شركة سويسرية لتنمية جزء من ثروته ، على أساس خضوع هذا الاستثمار للربح والخسارة وكان فى الشركة فرع يتعامل مع المسلمين على هذا المخطط ، فلم يمض عامان الا وكان الربح الذى اكتسبه ٣٠٪ بعد خصم التكاليف وعمولة الشركة فحرى بالمجتمعات الاسلامية أن تتخذ من هذه الشركة انموذجا للتخطيط للاقتصاد الاسلامى ، واستثمار الاموال والانتفاع بالامانات وان تتبنى المنظمات الاسلامية الدعوة لتشجيع الحكومات الاسلامية على بعث هذا المشروع ووضع الحجر الاساسى له ، الخاطرة الثانية : وهى بالنسبة للحاج من الأهمية بمكان ، اذ يترتب عليها سلامة الحج والقيام به دون خدوش تقلل أجره ، أو هنات تفسده ، وتفوت على الحاج فرصته ، وكم من الحجيج لايدرك هذه الأهمية وقصارى جهده ، ان يصطحب الرفاق فى مركبه ، وموضع نزله ، ويقلدهم فى كل حركة وسكون وخاصة اذا كان من بينهم من سبق له الحج ، فيغدو كرائد أو موجه ، والواقع ان سواد الحجيج وخاصة من لم يسبق له أداء الفريضة هو فى حاجة الى تعليم وتوجيه ، وان شئت فقل ودراسة لمناسك الحج ، ومقاصده ، والغرض الاساسى من اجتماع الحجيج من مختلف الأقطار والأمصار ، على صعيد واحد وفى يوم واحد ، وفى اماكن موحدة ، لايملكها فرد من المسلمين يتحكم فيها مهما تضخمت ثروته أو امتد نفوذه وسلطانه •

والأمر الذى أوجه الانظار اليه ان يسافر مع كل جماعة من الحجاج ،

يقصدون الحج عالم يوجه رفقته بلغتهم فى كل خطوة يخطونها منذ ان يصلوا الى الميقات حتى نهاية مرحلة الحج وقضاء مناسكه • وإن المشاكل التى تعترض الحجيج فى هذه المرحلة ليست من الأمور التى يترك للحاج أمر التصرف فيها ، باجتهاده او بحسب مزاجه ، أو بما يوحى به اليه رفاقه،انها مشاكل تستدعى من ينير السبيل لحلها والتبصير بما يصنع من تعرض له لضمان صون حجه ، وسلامته ، فكم من محرم يقع فى المحظور عليه ، وهو محرم ، ثم يكرر الخطأ دون ان يشعر ان فى ذلك اخلالا بحجه ، وكم من نسوة تعرضن لفساد الحج دون ان يشعرن بذلك ، ثم يمضين معتدين به على اعتبار ان الفريضة سقطت عنهن •

وليس من شك أن الحكومة والقائمين بأمر الحجاج لم يأل الجميع جهدا فى تيسير أمر الحج والقيام بالتوعية الواجبة الا أن ذلك لم يكن منذ ان يبدأ الحاج فى النسك من الميقات ولم يكن ايضا فى كل فترة ولحظة وبين كل منسك وعند اداء كل شعيرة • فذلك ما يستدعى استصحاب كل فريق من الحجاج من بلده من يوجهه ويرافقه فيستفتيه فى كل مايعرض له ، أو يشكل عليه فى نسكه ، أو يرتكبه ، مما هو محظور يمكن تلافيه ولو أن تكفل الجماعة نفقات حجه ، فيغدو وكأجير لامندوحة له عن القيام بواجبه ، اما من يرافق من العلماء رفقة فيرشدهم ويعلمهم كمتبرع فهذا قد يقع على سبيل الصدفة ، لايصح التعويل عليه أو يحتسب كواقع ، ولعله لو احصيت هذه الحالات النادرة ، لما بلغ نسبة من يحج من العلماء معشار الحجيج فى مجموعه ، وثمة خاطرة ثالثة تتصل بتوعية الحجيج بمختلف لغاتهم ، اذ يكونون بين الرحاب المقدسة ، توعيتهم بما يجب عليهم من الصون ، والعفة ، والاخذ بمنهج الاستقامة والمحافظة على الشعائر ، بعد عودتهم من رحلة الحج الى بلدهم ، وبعد ان يمحصوا من الذنوب فى حجهم ، ذلك ان بعض من كتب الله له اداء فريضة الحج القى فى روعه انه لايضره شىء بعد حجه ، ينزلق اليه من الذنوب فقد غفر الله ذنوبه ، ورجع من حجه كيوم ولدته أمه ، أى طاهرا نظيفا كنظافة المولود لم يعلق به كدور ، ويدعم هذا الزعم

بالحديث الشريف (**الحج المبرور ليس له جزاء الا الجنة**) فمن بلغ هذه الحظوة لايضره اى ذنب يقترفه وحسبه ماقدم من اقامة الشعائر والتزام اداء المفروض ، وكان ختام ذلك الحج ، وذلك خطل فى الرأى فإن الحج المبرور لو وفق اليه الحجاج لايعطى الحصانة من الذنوب ولايكون حاجزا عن المؤأخذة او عاملا على تكفير الخطايا بعده ولكنه كما ورد يكفر الذنوب الفارطة ، اما النكسة واتباع الهوى بعد الهدى والتلطخ بالآثام وترك فرائض الله بعد ان بلغ الحاج فى حجه الى درجات المقربين وارتقى الى مراتب الرضوان فلن يكفر ذلك الا التوبة النصوح والرجوع الى الله نسأل الله الهداية الى أقوم سبيل ٠

هذه الخواطر الثلاث ، لعلها تجد من المسلمين آذانا صاغية فتعمل أو تفكر أو تعزم على تحقيقها وبث الدعاية لها والاستعداد لدى المنظمات والحكومات الاسلامية للاخذ بها كوسيلة للافادة من الحج والظفر به كسبا للحاج ورصيدا يعتد به ليوم معاده كما سبق فى الحديث (**الحج المبرور ليس له جزاء الا الجنة**) ٠

أعظم تجمع

تكتل الجهود ، واتخاذ خطوات إيجابية للصالح العام كل اولئك اهداف كريمة ، شرعها الاسلام وهيأ لها الفرص ، وشجع على الاخذ بها ، واستباق ميادينها ، لتكوين الشخصية الاسلامية ، وتحديد مركزها تحت الشمس والاشعار بمكانتها بين الأمم ، لئلا تماع وتذوب فى غيرها فتضمحل ، وقد جعل الله من أبرز الدعائم لتكوين الشخصية الاسلامية قيام الامر بالمعروف والنهى عن المنكر بين الامة الاسلامية ، لترتفع به عن دركات الاسفاف وفلتات الهوى ، وأمر بإشاعته والتضامن عليه والتعاون على مساندته وبذل الجهود للقضاء على المنازع الهابطة والنزوات الطائشة أو الحد من مدها لئلا يطغى الشر ويمتد فيقوض معالم الشخصية الاسلامية ويمحو آثارها وفى ذلك يقول رب العزة : ـ

﴿ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر واولئك هم المفلحون ﴾

ولأن هذا الخير الذى امر الله باشاعته والامر بالمعروف والنهى عن المنكر الذى تتحدد به الشخصية الاسلامية مشاع بين أفراد الأمة الاسلامية وهى لايحدها مكان ولايحجرها حيز فى نواحى المعمورة ، بل هى منبثة فى ارجاء الارض ، هيأ لها الفرص لاجتماعات تضم من تفرق منها ، وجعل لها من الزمان والمكان مجالات تسير عليها ، أمر بالتضامن والتساند فى اشاعة الخير واقامة دعائم الامر بالمعروف فهيأ سبحانه فرصة صلاة الجمعة يجتمع لها فى كل بلد اسلامى اهل البلد الواحد ، للصلاة وسماع الموعظة والتوجيه ورسم الخطط لصلاح الجماعة ولم

شعثها ، واقامة المعوج من امرها واخذ العهد عليها ، فى بيت من بيوت الله للاستقامة على نهج الهدى والاخلاص للرابطة الاسلامية التى وثقها الاسلام بين أهله وهيأ لها سبحانه فرصة اكبر واجتماعا اشمل حيث شرع التجمع لصلاة العيدين ، الأضحى والفطر ، وفيهما تتسع دائرة التوجيه ويعم الاجتماع حتى النساء ، ويكون للتذكير أثره فى القيام على الشخصية الاسلامية والسهر على تقويمها وصونها من الاضمحلال ، ونظرا لان هذا التجمع الدورى والسنوى مهما اتسع نطاقه وتضخم عدده ، لايربط الا بين اهل البلد ، او القطر الواحد فقط اما المجموعة الاسلامية المنبثة فى اقطار الدنيا والتى يمثلها الملايين على رقعة الارض فكل صقع فى معزل عن الآخر ٠

لذا كان من محاسن الاسلام ومقاصده اتاحة فرصة اوسع وتهيئة جو مناسب لاجتماع أكبر وأشمل من الاجتماع الاسبوعى والسنوى المحدود ، يحصل لهم فيه التعارف والتآلف كخطوة تمهيدية لما وراءها من خطوات تنظيم الصلات وتوثيق الروابط ، وانشاء علاقات فى مختلف مجالات النشاط الانسانى ، مما يعود على المجموعة الاسلامية الكبرى فى مختلف اقطارها وتنوع امصارها بالخير والنفع العظيم ، وتتركز فيه الشخصية الاسلامية أكثر فتصول وتجول ، بقدر ما تستعيد من روح الجماعة لذا هيأ لها فرصة الحج الى بيت الله الحرام يجتمع فيها الحجيج ، من اقاصى الدنيا ، فى جوار البيت العتيق وحول المشاعر المعظمة ليؤدى فريضة الحج ، الركن الخامس من اركان الاسلام ، وليحيي مآثر الحنيفية ملة ابراهيم عليه وعلى نبينا افضل الصلاة والسلام ٠

وقد شرع الله سبحانه لهذا الاجتماع العظيم كل ما من شأنه ان يوسع دائرته ويجعله اكثر شمولا لكافة افراد المجموعة الاسلامية مهما تباعدت بهم الديار ونأت الاقطار وتضخمت اعدادهم واختلفت أجناسهم ، فأشهر الحج ، تبدأ منذ أن يفرغ المسلمون من اداء فريضة الصيام تبدأ باشراق شهر العيد وتنتهى بنهاية العشر الاول من ذى الحجة ، وهو أمد طويل فى استطاعة كل من أراد الحج أن

يعد العدة ، فى غضون هذا الامد ، وهذا الميقات الزمانى المحدود ، حتى اذا ما اشرق شهر ذى الحجة على المسلمين ، اذا بالاكثرية الساحقة منهم ، قد انتظم بهم العقد واضحوا فى رحاب البلد الامين ، ينعمون باعظم فرصة هيأها لهم الاسلام لعقد أعظم مؤتمر عام يجمع شتاتهم ، ويوحد صفوفهم وينظم علاقاتهم ، ويجتمعون فيه لصلاح أمر الدين والدنيا والفوز بالسعادة فى العاجلة والأخرى ، وصدق الله اذ يقول لخليله اذ أمره بالآذان لحج بيته

﴿ واذن فى الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ليشهدوا منافع لهم ﴾

إنها لعمر الحق اعظم منافع تحرزها الجماعة الاسلامية ، لصالحها واعظم كسب تحصل عليه يتجدد كل عام لكل من كتب الله له الحج ، مادام الشعور الدينى غامرا لم يتأثر بطغيان المادة . هذا وان من عوامل غرس روح التعاطف والتراحم بين المسلمين وايجاد التفاهم والترابط والتقارب ولم الشعث وتوحيد الصفوف وجمع الكلمة مايدرسونه فى الحج ويلمسون من الشعور بالوحدة فى كل مجال ، بل كل خطوة يخطونها تتحد فيها اغراضهم وتتألف عليها مصالحهم ، فزى الاحرام مثلا يشعر فى وضعه بالوحدة اذ يستوى فيه الامير والفقير والسيد والمسود والغنى والفقير وكل من اعتزم الدخول فى النسك،الكل قد خلع زيه واتحد مع الآخر فى زى الاحرام ، والكل قد خلع الى جانب زيه ميوله ومنازعه وتقاليده وعادات قومه وشعاراتهم واشترك مع اخيه المسلم فى وحدة الشعور بالمسؤولية امام الله الذى احرم له كل جارحة فيه ووحدة المنازع والميول والشعارات ، فهجيراه الذكر والتلبية وهدفه الاسمى التكفير عن السيئات وتمحيص الخطايا وشعاره الاسلام وهكذا فى كل مواقف الحج ومشاعره يتحد شعور المسلمين وتجتمع اهدافهم وتتضافر جهودهم على الطاعة لله الواحد الاحد وتأتلف مصالحهم الدينية رجاء المغفرة وتكفير الخطايا . وفى غضون هذا الاجتماع الكبير وبين فترات اداء

النسك تسنح لهم الفرصة أيضا وقد أخذوا الدرس العملى فى توحيد الشعور لتنظيم وحدة الصف الذى صوره الرسول الكريم ﷺ بقوله : (**المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا**) • يشده لا بالقول ومجرد الوعود الخلابة والأمانى بل يقف الى جانبه فى سرائه وضرائه عضدا يؤازره وأخا ينصره ظالما او مظلوما وشيعة يتشيع للحق يعيده معه الى نصابه •

اما بعد فان فى فرصة الحج الذهبية مجالات اوسع لمؤتمرات هادفة لاتتحدد بالنماذج وضرب الامثال ، اذ أنها حلقة ماضية التسلسل تأتلف فيها مصلحة الجماعة وتتحدد بها الشخصية الاسلامية لتحتل مركزها تحت الشمس كما اراد الله لها العزة : ـ

﴿ ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ﴾

التضحية من أهداف الحج

نستهل الحديث بقول احد العلماء فى حديث طويل عن الحج جاء فيه : إن مجرد كلمة افئدة فى دعاء الخليل ابراهيم عليه السلام لاتعنى مجرد الاشباح التى تروح وتغدو والتى لاتعرف من معنى الحج سوى اعماله الفردية وإنما تعنى الارواح والقلوب التى تقدر ما يجب لهذا الاجتماع الحاشد ، فى امكنه الذكريات الاولى وفى ظل عبادة الله • ومن أهدافه تجمع قلوب الموحدين على خطط الحياة العزيزة كما جمعت اشباحهم أماكن العبادات والذكريات وفى اطار هذا المعنى الذى تضمنته هذه السطور، سوف نقصر الحديث عن الحج واهدافه ومكاسبه والأثر الذى يتركه فى الحاج بعد عودته الى وطنه بعد أداء مناسك الحج ، ذلك لان التفاضل عن اعمال الحج والمناسك والنهج الذى يسلكه الحاج فى حجه والمشاعر التى يقف عليها كل أولئك لايخلو منه كتاب من كتب المناسك بالاضافة الى دلالة المطوفين وترحيلاتهم وملازمتهم للحاج طيلة أيام الحج ، وإنما الحلقة المفقودة والموضوع الذى يجب التحدث فيه اهداف الحج وعلى حد ما جاء فى السطور الاولى من هذا الحديث •

الاهداف التى تجمع قلوب الموحدين على خطط الحياة العزيزة كما جمعت أشباحهم أماكن العبادات والذكريات ، وإن فى طليعة ما يطالع الحاج الواعى من اهداف الحج التضحية فى ارفع ذروة ، لا التضحية بالمال ، وجهد النفس والبدن فذلك شأن الحياة ، فالحياة كلها جهد وعلى قدر ما يعطى المرء يأخذ ، أى على قدر تضحياته فيها ونشاطه وكده وتعبه يدرك من الثمار المعجلة مايتحقق به رخاء

العيش ، وإنما التضحية البارزة التى يدركها الحاج الواعى فى مواطن الذكريات والتى تبلغ الذروة بالنسبة لاية تضحية فى أى مجال آخر من مجالات التضحية هى تقديم الاب الحانى ابنه وقرة عينه والذى له فى نفسه الأمل الباسم ، تقديم هذا الابن قربانا لله ، امتثالا لأمر الله ، وصدوعا بما أوحى اليه عن طريق الرؤيا ، وتقديم الابن نفسه ، والنفس اغلى مايمتلكه المرء بين جنبيه ويذود عنه ، وحب الحياة غريزة لايلام بشر على الحرص عليه ، ولكن الابن غالب نفسه وصبر على أمر ربه وانطرح أمام والده ليضع المدية على رقبته ، والقاها كلمة مدوية تصور مدى الصبر لأمر الله والطاعة لتنفيذ ارادته (**يا ابت افعل ماتؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين**)

الا ليت شعرى هل تعى افئدة الحجيج او اكثرهم هذا الدرس البارز الى الابد ، والذى يتلقاه على مر السنين كلما وفد الى البلد الأمين فيدفعه الى التضحية ومغالبة النفس ، ومصابرتها فى سبيل اداء الواجب والصبر على تحقيق رغبة الخير والانصراف عن متع الحياة واغراءاتها الى ماهو افضل وارفع واكرم واشرف من اية متعة ولذة ؟

التضحية هى الضالة المنشودة والوسيلة المفقودة بين المسلمين لبلوغ الأمانى ، والا فما معنى أن تبقى القدس اولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين تحت نير اليهود وسلطانهم ردحا من السنين تعيث فيه وتغير معالمه وتجرؤ على حرقه ، لتبنى عش أحلامها فى اقامة هيكل سليمان المزعوم على انقاضه ·

ثم لعل الكل يعلم من مرويات التاريخ أن امرأة مسلمة فى ديار الكفر صاحت مستنصرة بالخليفة قائلة : وامعتصماه ، فبلغ ذلك الخليفة وجيش الجيوش وكسر شوكة الكفر ، انتصارا لامرأة مسلمة كما هو الواجب شرعا بالنسبة للمسلمين جميعا فما بال اكثر من ستمائة مليون من المسلمين المنبثين فى أقطار المعمورة ، يجمعون على الصمت المطبق فى الشرق والغرب والذين يريدون أن

يقيموا للكفر مناراً امام الكوارث والفواجع التى تنزل بالمسلمين من أعداء الاسلام المتآمرين عليه ، وعلى المسلمين فى ديار الاسلام وان يعيدوها صليبية فى اساليب وبوسائل متعددة .

نعود ثانية الى موضوع الحديث فنكرر ونقرر : ـ أن من اهداف الحج التضحية فى ارفع ذروة ، واذا لم يتفتح وعى الحجيج لهذا الهدف فلن تجتمع القلوب على تخطيط للحياة الكريمة ، العزيزة ، وسوف يبقى العدو جاثما فى مقدساتهم وفى كل ارض فيها يكيد للمسلمين ويمكر بهم ويتسلط عليهم ، وينتقص من ارضهم ويتحكم فى مصائرهم ، وتلك نتيجة حتمية للترهل وعدم الاقدام على التضحية وعدم ادراك ماوراء النسك من اهداف الحج العظيمة التى هيأ الله للمسلمين فرصتها وحثهم على شهود منافعها ، وصدق الله اذ يقول :

﴿ وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وستردون الى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون ﴾

دروب التضحية

مابرح الحديث موصولا عن التضحية ، وما أكثر دروب التضحية واشرفها ، واعظمها ، واجلها أثرا وابعدها نفعا ، واكرمها فى حياة الفرد والامة ، إنها العنوان البارز واللافتة التى تترجم عن الرفعة وتوحى بحماية الحوزة ، وما هان المسلمون أمما وأفرادا ووجد الاعداء فيهم ثغرة للدخول عليهم والتحكم فى مصائرهم ، والتفرقة بين صفوفهم والفتك بهم ، الا بعد أن استمرأوا ظلال النعيم ، واخلدوا للراحة ، وماتت فى نفوسهم روح التضحية ، ولم يعد الا القلة منهم من يضحى بنفسه أو ماله ، وكل مرتخص وغال ، من اجل غرض سام ، ومقصد شريف ، كنصرة دين الله ، والجهاد فى سبيل الله او التضامن مع الاخوة ، فى حل ازمة والانتصار لهم فى الحق واستعادة حقهم السليب وابراز كيانهم فى المجموع .

لقد كان من مرويات التاريخ ومما يصح ان يكون درسا للامة فى أعقاب الزمن لئلا تقعد عن التضحية وتخلد للراحة قصة المتخلفين الثلاثة الصادقين فى ايمانهم ، المتخلفين عن رسول الله ﷺ فى غزوة تبوك ، وكانت زمن شدة ، كما وصف الواقع عنها كعب بن مالك رضى الله عنه فقال : غزا رسول الله ﷺ تلك الغزوة حين طابت الثمار واحبت الظلال ، اى كان يشق على النفوس ان تضحى بهذه المتعة ، متعة العيش الناعم ، وكانت النتيجة ان امر رسول الله ﷺ باعتزال المتخلفين الثلاثة حتى ضاقت عليهم الارض بما رحبت ، هذا الدرس يجب ان يستعرضه كل من فترت عزيمته عن التضحية فى سبيل الواجب ونازعته نفسه حياة النعيم والراحة فى كنف الذلة وهو ما سبق أن أشرنااليه آنفا فى

السطور السالفة عن بعض واقع المسلمين فى اعقاب الزمن ، وانهم ما هانوا الا بعد أن استمرأوا ظلال النعيم واخلدوا الى الراحة ، وماتت فى نفوسهم روح التضحية ، قلت فى صدر هذا الحديث : ما أكثر دروب التضحية ـ وخاصة التى تطالع الحجيج فى امكنة الذكريات الاولى ، ذكريات الملة الحنيفية وفى ظل عبادة الله ، ولن أكون مبالغا ان قلت : إن فى كل شعيرة من شعائر الحج مايهدف الى القيام بتضحية يعقلها من يعقلها ويغفل عنها من لم يتفتح منه الوعى ، لادراك أهداف الحج ، العامة الشاملة ، فمثلا الوقوف بعرفة يفتح الانظار على ابرز الوان التضحية اذ قد يقع فى وقدة الصيف او زمهرير الشتاء ، ومع ذلك يستعذب الحجيج الوفقة فى أمسية عرفة وينسى فيها الدنيا بما فيها من متع ومغريات ، ومباهج ويقبل على الله فى ضراعة وأمل ورغبة فى طلب ماهو اشرف واعظم واجل من اى نعيم ومتعة فى دنياه ، وبذلك يأخذ الحاج بل المسلم درسا واضحا فى التضحية ويدرك منه ان تحقيق المطالب والظفر بالرغائب لايأتى الا عن طريق التضحية ، وكلما عظمت التضحية كان الظفر وتحقيق الامل عظيما ، اما من يعب من متع الدنيا ويغريه بريق المادة فيها ، ويفتتن بمباهجها المختلفة الالوان والاشكال ، فانه سوف يقعد عن كل مطلب شريف ، ولن ترتفع همته ، أو تبعد نظرته للمشاركة مع المجموع فى كسب عزة أو حماية حوزة أو درء خطر بالمسلمين من أعدائهم ٠

وفى موقف عرفات ايضا يستوحى المسلم أثر الوحدة والتجمع على الهدف والتحمس لملاحقة المثل الكريمة ، كما قال أحد العلماء عن هذا الأثر (فى اللقاء الدينى الروحى ، الذى لانظير له على وجه الارض فى هذا الضجيج من الدعاء والذكر والتلبية ، والاستغفار مايعيد الحياة الى القلوب الميتة ويحرك الهمم الفاترة وينبه النفوس الخامدة ويشعل شرارة الحب والطموح التى انطفأت أو كادت تنطفىء ويجلب رحمة الله) ٠

ترى لو تفتح الوعى من المسلمين وأدرك ذلك كله ماذا يكون واقعهم بعد ان

تحيا منهم القلوب الميتة او التى قل فيها الاحساس وترتفع منهم الهمم الفاترة وتتنبه منهم النفوس الخامدة ، فتشعل جذوة الطموح التى انطفأت ، انه لايقوم امامهم فى الارض قوة ، تستبد بهم أو تتحكم فى مقدراتهم ومصائرهم وسوف يصورون واقع الشد على الاخاء الاسلامى أروع تصوير ، ومن موقف عرفة ننتقل الى أيام منى ، فنلحظ فى دروب التضحية قصة الفداء وتضحية الخليل بابنه وقد تحدثنا عن ذلك فى الحديث الأسبق ونتحدث هنا الى جانب ذلك عن المكث ثلاثة ايام ، يتجمع فيها الحجيج على غرض واحد ، هو رمى الجمار ومنه اى من رمى الجمار يستوحى من تفتح وعيه الهدف من ذلك ، وهو الصمود أوّلا امام الباطل ، والتجمع لمقاومته للحد من طغيانه والوقوف صفا واحدا أمام تحدياته .

ثانيا يستوحى واقع المجند للمصلحة المتقيد بالامر فيها ، فلا يتعداه او يتحداه ، والمسلمون فى واقعهم مجندون أبدا فى حياتهم ، مقيدون بالطاعة والامر لله ﴿ **افحسبتم انما خلقناكم عبثا** ﴾ اى لاتؤمرون ولاتنهون ، ومن كان كذلك لاتكون له الخيرة من امره ، فلا يصح ان يسلك طريقا او ينتهج منهجا ، او يشترع شرعا ليس من الله او رسوله ، أو ان يطيع احدا كائنا من كان فى غير طاعة الله ورسوله ، وذلك مقتضى اسلام الوجه لله كما قال تعالى مرتفعا بمقام من يكون هذا شأنه ﴿ **ومن احسن دينا ممن اسلم وجهه لله وهو محسن** ﴾

أما بعد ـ فان للتضحية دروبا لايصح أن تحصرها الامثلة أو تستوعبها السطور المحدودة ، انها تطالع الحاج فى حجه ، فى كل شعيرة يؤديها فى نسكه وكل وقفة يقفها لعبادة ربه انها أى التضحية هدف كريم يسعد من عمل لتحقيقه فى اشواط حياته ، انه سوف يصبح لبنة صالحة فى دعم الجامعة الاسلامية واثبات وجودها تحت الشمس والله الموفق .

الحج صقل لنفسية المسلم

إن المسلم فى قطع اشواط الحياة المليئة بالملهيات والمغريات وبالشهوات فى حاجة الى وسيلة تصقل نفسيته ، وعامل له أثره الطيب فى الارتفـاع به على الشطحات والزلات ، ويعده لحياة هى خير وأبقى من حياة لا تدوم ومتعة عاجلة ذاوية مشوبة بالمنغصات والمتاعب •

وفريضة الحج هى الوسيلة والعامل الذى له الأثر الطيب والذى تتم به عملية الصقل لنفسية المسلم ويرتفع به عن ادران الشهوات الطائشة والنزوات الآثمة ، اذ هو جهاد للنفوس يحد من انانيتها ويطامن من كبريائها ويصهرها بما يفرضه من التزامات وتكاليف واعمال تستدعى الكد والجهد العنيف يستوى فى ادائها الناس جميعا دون تفـريق أو تمييز ودون مراعـاة لحيثيات أو محابـاة لوضـع • فالشريف والوضيع والسيد والمسود والأمير والصعلوك كل أولئك فى مستوى واحد أمام التشريع ، يقومون بأداء ما افترض عليهم كإخوة ويلتزمون ما شرعه الله لهم من أحكام وفرائض ، فعندما يبلغون الميقات يتجردون من المخيط ويرتدون لباس الإحرام فى بساطته ويسر تكاليفه ، ازار يستر العورة ورداء يرتفع على الكتفين ورؤس حاسرة ، إنه مظهر يوحى بالذل والانكسار والتجرد من الشخصيات أيا كان وضعها ، والتحلل من الأوزار والتحرر من قيود المادة وأوضارها • وعندما يتقدمون نحو الحمى ويقتربون من الأرض المقدسة ، أرض الحرم والبيت العتيق لايكون لهم شعار ، إلا الاكثار من النشيد المحبب تنطلق به الحناجر فى روعة ، ويندمج الجميع فى حياة روحية توحى بالاخلاص فى العبادة وتشعر بالتـوحيد

للواحد الديان ، التوحيد فى القصد والتعلق والاتجاه ونفى الشريك أو المثيل عن الله ، لبيك اللهم لبيك - لبيك لا شريك لك لبيك - إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك .

وعندما تصل مواكبهم الى البيت الحرام ويستشعرون جلال الموقف ويدركون من معانى السمو ما لم يكونوا يدركونه من قبل ، تطغى على نفوسهم الفرحة فيسكبون العبرات فى حرارة وتنطلق ألسنتهم بالتكبير والتهليل والدعاء اجلالا وتعظيما لرب البيت ثم يندفعون نحو البيت طائفين ثم يسعون فى الوادى بين الصفا والمروة ، ونهاية المطاف حلق وتقصير لمن تلبس بنسك العمرة ، ثم عود الى لبس المخيط أو تريث وانتظار بالاحرام لمن قرن الحج بالعمرة أو أفرد الحج بالاحرام .

وعندما يستكمل عقدهم وتمتلىء بهم حصباء الحرم فى رحاب البيت العتيق ويتحلقون حوله يتعرضون لنفحات الرب جل وعلا ، لا يكون شغلهم الشاغل غير ذكر الله ، (**الا بذكر الله تطمئن القلوب**) ولايشعرون بغير الوحدة فى الشعور ، شعور المسلم نحو اخيه ، من أى الجهات والاصقاع ، وفى اى زى وبأى لغة يتحدث ووحدة الاتجاه ، فالكل فى رحاب البيت يتجه الى رب واحد يقصده فى تحقيق آماله وكشف آلامه ووحدة فى الآمال والآلام ، فالكل يشعر وهو فى غمرة الفرح بالأمل العظيم فى أن يعيد الله للاسلام مجده ، كدين خالد ، ومبدأ سام رفيع ، وان يوحد صفوف المسلمين ليتبؤوا مكانتهم تحت الشمس كمسلمين من حقهم ان يسودوا وان ترتفع لهم المعايير كما قال تعالى :

﴿ ولا تهنوا ولا تحزنوا وانتم الاعلون إن كنتم مؤمنين ﴾

اما الوحدة فى الآلام فالكل منهم يشعر وهو فى رحاب البيت بوخز الألم لما آلت اليه حالة المسلمين بعد النكسة وغزو اليهود واستيلائهم على مقدساتهم نتيجة للانقسام والتدابر الذى وقع بين صفوف المسلمين بعد أن جمع الله قلوبهم فكانوا

خير أمة أخرجت للناس ، وعندما تمتلىء بهم ساحة عرفات وينتشرون فى ذلك الموقف العظيم الذى يعطى أوضح صورة لموقف العرض على الله ، وقد تركوا الدنيا باحمالها وهمومها واوزارها ومباهجها وزخرفها واتجهوا الى الله فى هذا الموقف العظيم ، لا يكون همهم غير طلب القبول والغفران والضراعة الى الله فى ذل وانكسار ليقيل لهم العثرات ويستر لهم العورات وينصر الاسلام ويدحر الكفر ويكبت أنصاره ٠

وعندما يعودون ادراجهم فرحين مستبشرين بالوعد الصادق من الرب الكريم ﴿ **افيضوا عبادى مغفورا لكم** ﴾ يعرجون على المزدلفة للمبيت بها ليلة العيد فلا يكون شغلهم فى باكورة يوم العيد سوى الذكر والدعاء والابتهال الى الله ليحقق لهم الآمال فى القبول والفوز بالرضوان وعدم العودة الى ماضى الآثام بعد أن تطهروا من الزلل وتمحصوا من الاوزار ٠ وعندما يغادرون موقف المزدلفة الى منى يبدأون برمى جمرة العقبة ثم ينحرون أو يذبحون الهدى ويحلقون أو يقصرون ثم يؤمون البيت الحرام لطواف الافاضة والسعى بين الصفا والمروة وقد افلحوا ، اذ تم لهم بتمام الحج الصقل والتطهير وعندما يعودون ثانية الى منى لاتمام النسك ورمى الجمار فى ايام التشريق يكون اعظم ما يشغلون به النهار وفترة الليل شكر المنعم جل وعلا ٠ وشكره على آلائه وتوفيقه لهم فى قضاء الفريضة ركن الاسلام ٠ وإنها لنعمة كبرى لا يقدرها حق قدرها الا من ضمه مواكب الحج وغمره الشعور بفيض النعمة وبهذا الجهد المشكور والسعى المبرور تتم عملية الصقل لنفسية المسلم ٠

في الحج تصفية النفوس وتطهير القلوب

لقد طفقت اتابع بفكرى مواكب الحجيج وهى تحزم امرها للعودة الى ديارها بعد قضاء النسك واداء فريضة الله (الحج) والظفر بالمغنم والحظ الأوفر من الرضوان كما جاء فى الحديث (**من حج فلم يرفث ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه**) وتلك أعظم حصيلة للعبد وافضل كسب لا يعدله اى كسب ، وانتقل بى التفكير فى مجالات أخرى وحصائل قد يفيدها البعض من الحجيج الواعى من حجه • فالحج شهود المنافع كما قال تعالى فى حكمة مشروعيته :

﴿ ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات ﴾

الآية،فالى جانب ذكر الله الذى يكون وسيلة للغفران والرضوان منافع أخرى لا يصح تجاهلها ، ولست اقصد وقد قوض الحجيج خيامه ان أبدأ من جديد فى تعداد هذه المنافع ولكنى اريد ان اضيف الى حصيلة الحجيج حصائل أخرى كان من الواجب أن يأخذ بها بعين الاعتبار ، يقول أحد العلماء : (الحج فريضة مقدسة اشتملت شعائره كلها على حكم بالغة تستهدف تصفية النفوس وتطهير القلوب وتأصيل العقيدة وتثبيت جذور الايمان فى النفس المؤمنة) • فتصفية النفوس وتطهير القلوب تعنى فى طليعة ما تعنيه التجافى عن الحقد والضغينة ، اذ هما داء عضال يدفع الى قطع ما أمر الله به ان يوصل من الروابط بين المسلمين وبذل الولاء لهم ويحمل على الطغيان والعدوان وتنكر الأخ لأخيه وقيامه حربا عليه ، وان الدرس العملى الذى لقنه الاسلام لمحتضنيه فى فترة اجتماع الحجيج

حول المشاعر المعظمة الدرس العملي في الوحدة المتعددة الجوانب وحدة الاتجاه - الى الله للعبادة الموحدة التي تؤدى على صعيد واحد - والتي تجمع القاصى بالدانى من المسلمين ووحدة الآمال والمطالب هذا الدرس العظيم يجب الاّ يسقطه المسلم من حسابه بل يجب ان يكون على ذكر منه ، ومعرفة بما يهدف اليه من سمو الغاية ونبل المقصد اللذين يصورهما المسلك الذى يجب ان يسلكه المسلم بعد أن شاهد مشاهد الحج ، واشترك فيها مع اخوة يشعرون نحو شعوره ويرغبون نفس الرغبة التي يرغبها فى أن يكون للاسلام كيان موحد مرهوب متماسك اشبه بصرح عظيم يتفيأ ظلاله الاخوة دون فارق بين من فى الشرق منهم ومن فى الغرب ، ودون أن يشعر المسلم بان فى هذا الاستظلال منافسة فى حق خاص محجور على الغير ان ينافس فيه فيدفع ذلك الى الشحناء والبغضاء ويحول دون التصفية والتطهير للنفوس والقلوب ، هذه الوحدة التي تلقى المسلمون ويتلقون فيها الدروس على تعاقب الحقب فى مواكب الحج المتتابعة الى ان يرث الله الأرض ومن عليها تفرض الاّ ينزع المسلم يده من يد أخيه أو يحمل له فى نفسه حقدا أو غلا لمطمع ينزع اليه أو لاختلاف فى اتجاه أو لخصومة نشبت بينهما لأى غرض من الأغراض .

فالمسلمون يد واحدة على من عداهم وكتلة مترابطة شبهها رسول الإسلام ﷺ بالبنيان المتشابك يشد بعضه بعضا ، والإحن والضغائن من شأنها كما أسلفنا القول قطع ما أمر الله به ان يوصل من الروابط التي فرضتها اخوة الاسلام ، وأحداث التخالف بين الصفوف وهو على العكس مما يريده الاسلام وعلى النقيض مما صوره رسول الإسلام ﷺ لواقع المسلمين وسلامة صدورهم وصفاء طويتهم ، لقد سئل رسول الله ﷺ مرة : من أفضل الناس فقال : -

(**كل مخموم القلب صدوق اللسان**) قال له أصحابه رضوان الله عليهم : -

(**صدوق اللسان نعرفه فما مخموم القلب ؟ قال : التقي لا اثم ولا بغى ولا**

غل ولا حسد) .. وهذا الواقع يقصه القرآن نعتا لسلف الأمة اشادة بهم كما قال تعالى :

﴿ والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل فى قلوبنا غلاّ للذين آمنوا ربنا إنـك رءوف رحيم ﴾

فالمسلم فى تصفية نفسه وتطهير قلبه من وضر الضغينة والحقد كالصفحة البيضاء لم يخط فيها مايسود نصاعة بياضها أو يلوث نضارتها وروعة روائها .

وقد يعترى النفس ما يعكر صفوها والقلب ما يغيره بفعل مؤثر خارجى قد لا يسلم منه من عاش فى زحمة الناس وابتلى بغثائهم والأساليب المنكرة التى يسلكها البعض لاخراج المسلم عن اتزانه وعن الوضع الذى يريده الاسلام له ، ولذلك وضع الاسلام حواجز تحجز المسلم الى حد ما عن الاندفاعات مع نفسه والتأثير فى صفاء قلبه وتباعد بينه وبين الانطباعات السيئة ليبقى على فطرته كمسلم يتجه الاتجاه الذى يريده الاسلام منه دون تأثر بمؤثر يدفعه الى ركوب الشطط والخروج عن اتزانه وعما يجب عليه من تصفية النفس وتطهير القلب من حمل الضغينة والحقد ولن نعرض لذكر شيء من تلك الحواجز ولكنا نكرر ما قلناه فى غضون هذا الحديث ، وهو ان الدرس الذى أفاده المسلمون فى حجهم والذى يجب أن يضاف الى حصيلتهم فى الفوز بالغفران والرضوان وهو تصفية النفوس وتطهير القلوب يجب الاّ يسقطوه من حسابهم وان يتجافى المسلم عن كل ما يفصله عن أخيه أو ينزع يده من يده وان يكون واياه يدا واحدة على أعداء الاسلام وان يعيش وإياه مهما بعدت بهم الديار أو شطّ بهم المزار على بساط المحبة وبذل الولاء دون شحناء أو بغضاء والله الموفق .

مكاسب الحج

نتحدث عن المكاسب الاجتماعية والاقتصادية والعلمية وما اليه ، فالحج بوصفه فريضة الله على عباده سوف يجتمع فيه ويلتقى فى فترته لأدائه المسلمون فى مختلف حيثياتهم ومجالاتهم فى المجتمع الاسلامى الكبير ، منهم الاقتصاديون والعلماء فى مختلف حقول العلم ، والقادة والزعماء ، ومن حق المسلمين ان يفيدوا من خبرة هؤلاء الخبراء ، كل فى مجال اختصاصه يفيدون فيه مكاسب يرجعون بها الى بلادهم يعتدّون بها لبلوغ المكانة اللائقة بهم ، من حقها أن تسود وان تكون بحق ممن يستأهل خلافة الله فى الأرض ، وان مكاسبه الدينية وان كانت فى طليعة ما يعنى به الحاج للسعادة فى دار الخلود الا ان المكاسب الاخرى لا تقل عنها أهمية ، ذلك لان المسلم من حقه أن يعيش كريما لا ان يلقى الزمام لغيره او يرضى بالتبعية فيقلد الغير فيما يكون فيه هدم لكيانه وتفريط فى حقه ، جاء فى الحديث (**ومن رضى الذلة من نفسه طائعا غير مكره فليس منا**) وما اخراج الرسول الكريم ﷺ من هذا واقِعَهُ بهذا الوعيد المرعب ، من حظيرة المسلمين الا حفاظا على الحياة الكريمة التى يجب ان يعيشها المسلم الى نهاية الشوط ، وان من عاش عالة على غيره فى اقتصادياته او كبله الجهل بقيوده لم يذق طعم الحياة الكريمة ونعنى الجهل فى كل دروبه لا الجهل بالأمور الدينية فحسب ، بل كل جهل يجعل المسلم أداة كالآلة تسخر كيفما يريد من يريدها ، وما دخل على المسلمين الوهن واستخذوا لأعدائهم الا بعد ان قعدوا عن النهوض ليكونوا المجلّين فى كل مجال فلقد سبق اسلافهم الامم عندما كانت أوربا تتخبط فى

دياجير الجهل والظلمات ، فكان منهم اى من الأسلاف العالم والبحاثة والمترجم والطيار ومن حذق فى الصناعة وبرع فى التجارة وكان سبيل الفتح الاسلامى آنذاك التجارة حتى دانت لهم الأمم وفتحوا العالم وركزوا على آطامه رآية الاسلام خفاقة ولما تخلف الخلف عن الركب وقعدوا عن استباق ميادين العلم وعن الأخذ بأسباب العزة أضحوا أذلة فى اوطانهم يتحكم عدوهم فى مصائرهم ويتسلط على استلاب مقدساتهم ، وهذا واقع من رضى بالذلة طائعا من نفسه،نعود فنقول :

لابد من أن يكون للحاج من حجه مكاسب يتزود بها فى حياته ليعيش كريما ، ولابد للمسلمين ان يفيدوا من أرباب الخبرات الذين يفدون الى الحج والا ضاعت عليهم الفرصة وتداعت عليهم الأمم كما تداعى الأكلة الى قصعتها ومن تداعت عليه الأمم جرعته الغصص وسقته الصاب والعلقم ، وتلك هى النتيجة المؤسفة نتيجة افلات الفرصة ، فرصة الحج وعدم الافادة منه من أفراد المجموعة الاسلامية التى تفد اليه فى مختلف المجالات الحيوية ـ ونخص المجال السياسى ـ الى الجانب العلمى والاقتصادى ، اذ يكون فى المجموعة ممن يؤدى الفريضة (الحج) الزعماء والقادة وذوو الرأى والمكانة ، والافادة فى المجال السياسى يكون بالتخطيط لحماية الحوزة وتوحيد الصف والاعداد لخوض المعارك ضد أعداء الاسلام وما اكثرهم من صهيونى باغ ومستعمر حاقد وشيوعى مضلل وغيرهم . الكل منهم معول هدم والكل منهم يتحد مع الآخر فى الهدف والقصد وهو محاربة الاسلام وكسر شوكته واذلال المسلمين بكل وسيلة،وهيهات ان يبلغوا غرضهم او يدركوا مآربهم وقد كتب الله العزة للمؤمنين كما قال تعالى (ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين) ان الفترة الطويلة المديدة التى جعلها الله لأداء فريضة الحج والتى تبتدىء من شهر شوال والى نهاية أشهر الحج وفيها تكون التجمعات الرائعة للمسلمين تجمع حول البيت انتظارا للمجتمع الكبير فى عرفات الذى يومىء لوحدة الشخصية الاسلامية فى كل معانى الوحدة والتجمع بعد ذلك فى أيام منى لم يكن كل ذلك لأداء الشعائر فقط ، بل الى جانب ذلك مصالح ومقاصد كريمة

للمجموعة الاسلامية تؤديها فى هذه الفترة الطويلة ومصالح ومقاصد تنتظم كل ما يجب ان يحققه المسلمون فى اقطارهم وأمصارهم من آمال ، وكل ما يجب ان يزيحوه عنهم من مآس والآم ، وكل ذلك مما يقع فى حساب الحاج لو تفتح وعيه واهتبل الفرصة الذهبية فرصة الحج وتعارف وتآلف مع اخوته فى الله من كل ابيض أو أسود وانتفع بمواهبهم واكتسب من تجاربهم وخبراتهم فى مختلف الدروب التـى يتحقق فى سلوكها مدلول الحديث الشريف (**المؤمن للمؤمـن كالبنيان يشـد بعضه بعضا**) اى يشد بعضه بعضا فى تحقيق آماله والتضامن معه على رفع كابوس المحنة عنه لو نزلت به نازلة أو أصيب بمكروه ، ويشد بعضه بعضا فى اقتصادياته بحيث لا يكون عالة على الأجنبى من أعداء الاسلام فى كل ما يقيم أوده او يصلح شأنه ويشد بعضه بعضا فى سياسته واقامة علاقات ودية بينه وبينه ويقطع علاقته ، بكل عدو له سواء كان شيوعيا ام يهوديا ام مستعمرا ويشد بعضه بعضا فى ثقافته وعلمه فلا يلجئه الى تنشئة الجيل الصاعد نواة رجال المستقبل على أيد غير مسلمة ويباعد بينه وبين الثقافة العلمانية ، وهكذا كل مصلحة وكل مطلب تتوق نفس المسلم الى تحقيقه يتوجب على اخوانه ان يشدوا فيه أزره وان يكونوا له عونا على مطلبه ، وتلك أبرز المكاسب تقع فى حساب الحاج ولكن متى يظفر بها ؟ سؤال يتطلب الاجابة يظفر بها متى أدرك ان للحج مكاسب لا تقف عند حد ومنافع لا تنحصر فى مطلب يتحقق بها سعادة الدين والدنيا وصلاح العاجلة والعقبى يقول سبحانه : عن أهداف الحج وواقع الحجيج :

﴿ يأتين من كل فج عميق ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات ﴾ .

في إطار حجة الوداع

لقد كانت حجة الوداع نهاية المطاف للشخصية العظيمة الفـذة شخصية الحبيب الهادى والرسول الكريم ﷺ ، اذ لم تطل به الحياة بعدها كثيرا والتحق بالرفيق الاعلى • وكانت حجة الوداع ايضا خاتمة لسجل التشريع الاسلامى الضخم الذى بدأت سطوره الأولى فى فجر الدعوة الاسلامية وانتهت باكمال الدين الذى نزل به الاشعار فى الموقف العظيم موقف عرفة (**اليوم أكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا**) •

وحجة الوداع ايضا تعبير عن الأمل الباسم لرسول الهدى ﷺ الذى كان يرقب تحقيقه وهو واثق من الله فى تحقيقه بهذا الاكمال للدين والاتمام للنعمة على العباد والهيمنة الكاملة للاسلام وظهوره على سائر الأديان •

لقد كان ﷺ يشحذ عزيمة أصحابه وهم فى دور الامتحان تحت سياط الأذى إبان اشراق الدعوة فى مكة بقوله : (**وليظهرن الله تعالى هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء الى حضرموت لا يخاف الا الله**) اضحى ذلك واقعا ملموسا فى حجة الوداع اذ اقبلت الجموع من انحاء الجزيرة منذ أعلن الرسول ﷺ خبر اعتزامه على الحج تموج بهم المدينة وانضم اليها من الطريق اعداد أخرى فى حدود المائة ألف ، كلها تقطع الطريق شرقا وغربا الى الحج لا تخاف بأسا او ترهب احدا غير الله ، لأن الدنيا قد دانت للاسلام ولم يعد له من مناوىء ، ومضت الجموع فى ركاب الرسول الكريم للحج مستهدية بهديه مستشرقة لطلعته

معتزة بعز الاسلام مؤمنة بالوحدة الكبرى وحدة المسلمين التى ألف الله بها بين القلوب وجمع بها بعد الفرقة ولم الشعث بعد الشتات ٠

ويطول بنا الحديث لو اطلقنا للقلم العنان للتحدث عن حجة الوداع وتسجيل الأحاسيس عنها وتتبع كل شاردة وواردة فيها من أعمال الرسول ﷺ وتوجيهاته للأمة ، وسوف نقتصر على الالماع دون الافاضة والاشباع ٠

وفى يوم عرفة وبعد ان زالت الشمس عن كبد السماء ركب ﷺ ناقته من نمرة الى بطن وادى عرفة وخطب الناس خطبته المشهورة الجامعة التى رسم بها معالم الدين، وأوضح السياسة الاسلامية تجاه النعرات الجاهلية والعصبيات القومية والثأرات القبلية التى كانت مبعث القلق وعدم الاستقرار فى المحيط العربى ، وأهدر دماء الجاهلية وفى طليعتها دم الحارث بن ربيعة بن عبدالمطلب ، وابطل ربا الجاهلية مبتدئا بربا عمه العباس بن عبدالمطلب وحذر الأمة من الفرقة بعد الألفة والتنافر بعد جمع الكلمة والنكوص على الأعقاب والتجافى عن اخوة الاسلام ورابطة الدين ووجهها الى الاعتصام بكتاب الله وسنة رسوله اذ هما الدستور الخالد الذى يرسم الاتجاه الصحيح والتخطيط الراشد ٠ وكرر القول عن النقطة الحساسة وهى حرمة الدم ، دم المسلم وماله ، وأعاد التوجيه فى نهاية الخطبة بعد ان كان حديثه عنهما فى الطليعة فقال فى البداية : (ايها الناس ان دماءكم وأموالكم حرام عليكم الى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا وحرمة شهركم هذا) وقال فى النهاية (ايها الناس اسمعوا قولى واعقلوه ، تعلمن ان كل مسلم اخ للمسلم فلا يحل لامرىء من أخيه الا ما أعطاه عن طيب نفس منه ، فلا تظلمن انفسكم) وفى هذا التكرار ما يشعر بخطورة التجنى على المسلم باهدار دمه والتسلط عليه باخذ ماله ، ووجه ﷺ أيضا فى هذه الخطبة الى النساء وأفاض فى الوصية بهن لئلاتستن فيهن سنة الجاهلية فى عدم الاهتمام بشأنهن أو رعاية حقوقهن الاجتماعية وقرر واقعهن بالنسبة للرجال وانهن عوان لا يملكن لأنفسهم شيئا وانهم اخذوهن بأمانة الله التى يجب الوفاء بها وتعظم المسؤولية عنها ٠

وبالجملة فقد كانت خطبة حجة الوداع كخلاصة جامعة لأسس التشريع الاسلامى الذى نزل موزعا على المناسبات منذ الاشراقة الأولى للدعوة الاسلامية على امتداد حياة الرسول الكريم ﷺ • وبعد فهذه الماعة عن حجة الوداع التى ودع الرسول ﷺ فيها الأمة بعد ان أدى الامانة ، وبلغ الرسالة ، ونصح للأمة وهداها بهداية الله الى صراط الله السوى ، نجدد العهد بذكرى هذه الحجة فى هذه المناسبة السعيدة مناسبة انتظام عقد الحجيج فى البلد الأمين وعلى المشاعر المعظمة ، ونذكّر بالماضى المجيد ماضى الاسلام فى أوج عزه وأفضل عصوره وانضر عهوده ، وما أجمل أن نصل الحاضر بالماضى فنقتفى الاثر ونسير على الدرب ونطبق السياسة الاسلامية التى رسمها ﷺ للأمة على تعاقب الحقب فى خطبة حجة الوداع وتسير على ضوئها فى تخطيط مناهج الاصلاح واجتماع الكلمة ، وخاصة بعد أن أحدق الخطر بالمسلمين واغتصبت مقدساتهم وتسلط عليهم اليهود واصبح المسلمون فى حاجة ماسة الى اصلاح جذرى وعلاج حاسم لأدوائهم • أقول ما أحوجنا أن نعيش هذه الفترة فى لقاء على الخير وتعاون على البر نعالج مشاكلنا ونجمع كلمتنا ونوحد صفوفنا ونبارك وحدتنا ، فالرب واحد ، والدين واحد ، والرسول واحد كما تحدث رسول الهدى ﷺ فى خطبته بذلك فقال (ان دينكم واحد وان اباكم واحد) ولنستمسك بدستورنا كتاب الله الذى أوصى الرسول الكريم بالتمسك به وقال فى خطبته (تركت فيكم ما ان تمسكتم به لن تضلوا،كتاب الله) •

إن خطبة حجة الوداع لا يعنى التوجيه بها عصرا من الأمة دون الآخر بل يعنى الاجيال كلها على مر الدهور وكر العصور الى ان يرث الله الارض ومن عليها وهو خير الوارثين •

مركز الاشعاع الديني مكة

مكة بلد الله الأمين سماه الله أم القرى والناس تبع للأم مهما نأت بهم الديار وشط بهم المزار كما قال تعالى :

﴿ وكذلك اوحينا اليك قرآنا عربيا لتنذر ام القرى ومن حولها ﴾

وربط الله به قيام امر الدين والدنيا كما قال تعالى :

﴿ جعل الله الكعبة البيت الحرام قياما للناس ﴾

وجعل أفئدة المسلمين تهوى اليه استجابة لدعوة خليله ، كما قص الله ذلك فى كتابه حيث يقول : (**ربنا انى اسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل افئدة من الناس تهوى اليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون**) ..

ومن حق هذا البلد كمركز اشعاع للدين ومصدر هداية ان يقدم للمسلمين اذ يفدون اليه ثم يصدرون عنه الى بلادهم الدروس العملية فيما يصلح أمر دينهم ودنياهم كهدية يهديها اليهم . انها اروع هدية وافضل تذكار، وان يرسم لهم الخطط للربط بين قاصيهم ودانيهم ـ ليشعر الكل بمدى روابط أخوة الدين ـ التى رفعها الاسلام فوق كل رابطة ، ومن حق المسلمين جميعا ان يستجيبوا للتوجيه وان يذعنوا لكلمة الحق اذ تصدر من اول بلد رفع راية الحق ودعا الخلق الى الخالق وخرج منه الدعاة الى الله يقودهم محمد بن عبدالله ﷺ حتى طبقت هذه الدعوة الآفاق ودخل الناس فى

دين الله افواجا وبعث بالنور الى الدنيا بعد طول الظلام ليبدد ظلمات الشرك والجهل وليجمع المسلمين على كلمة سواء - انها كلمة التوحيد - (ألاَّ نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا اربابا من دون الله) اى لا يتخذ بعضنا بعضا شركاء لله فى حاكميته يشرعون من الشرائع والقوانين ما لم يأذن به الله فنطيعهم فيما يأمرون وننتهج ما يرسمون ونأتمر بأمرهم فيما يحكمون ، فتلك هى الجاهلية التى ذم الله من انتهج مناهجها واخذ بسبلها (أفحكم الجاهلية يبغون ومن احسن من الله حكما لقوم يوقنون) ٠

فاذا وصل هذا البلد الحاضر بالماضى والقى بدعوة الحق وضاءة وصحح المفاهيم عن الاسلام واعلن فى شجاعة ان الدين عقيدة وفريضة لا لبس فيها تربط المخلوق بالخالق وتجعل له وحده حق التأليه والتشريع فلا تؤلّه القلوب غيره ولا تعنو الجباه لسواه ولا ترغب ولا ترهب غيره ولا يقبل المسلم تشريعا غير تشريع ربه والمنهج الذى جاء به رسوله ٠ فالاسلام ليس هو مجرد عواطف طيبة أو مجرد زعم وانما هو قول وعمل ، هو عقيدة وفريضة ، عقيدة تحتضن وفريضة تؤدى وتلتزم ، ودون ذلك لا يستقيم اسلام ٠ فاذا قام هذا البلد بهذه الدعوة الخيرة دعوة الحق مستغلا فرصة الحج وصدور الحجيج عن مركز الاشعاع فانما يمارس حقا من حقوقه كمعلم للخير وداع الى الهدى والرشاد واذا قام هذا البلد ايضا بتقديم المثل الكريمة لتضامن المسلمين والشد على الروابط بينهم وتوحيد الجهود لبعث الوحدة الاسلامية التى عاش المسلمون فى ظلالها اخوة فى الله متحابين ، والتى تربط الابيض بالاسود ومن فى شرق الدنيا بمن فى غربها والتوعية لصدق الاخاء وبذل الولاء للاخوة فى أى صقع من ديار الاسلام خاصة وقد اصبح المسلمون فى واقع مؤلم بعد تسلط اليهود عليهم ، واستلاب مقدساتهم ، اذا صنع هذا البلد الرائد ذلك لم يكن متجنيا على احد او متطفلا على حق لأحد وانما يمارس حقه المفروض عليه كمعلم للخير وداع الى الهدى ومركز اشعاع للدين كما سبق ان خرج منه الدعاة والمرشدون وكونوا المجتمع الاسلامى الصالح الذى

وصفه الله فى محكم الكتاب بخير خطاب وقال : (**كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله**) يقول أحد مفكرى الاسلام : طلع الاسلام على العالم وهو يستعر بنار الخصومات والعصبيات فلما توالت آيات التنزيل تهدى القلوب الضالة فاذا الأمة المتداعية التى صيرتها الفرقة حطاما تصبح امة متماسكة دستورها (**انما المؤمنون اخوة**) ومنهاجها (**وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر**) وشعارها (**وتعاونوا على البر والتقوى**) وخلقها (**ويؤثرون على انفسهم ولو كان بهم خصاصة**) ودعاؤها (**ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالايمان ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين امنوا ربنا انك رءوف رحيم**) ٠

فاذا قام هذا البلد بالدعوة الى انتهاج هذه المثل الكريمة امام التيارات الجارفة والمبادىء التى اشترعت بعض المجتمعات الاسلامية لم تكن هادية بل ضالة مضلة ويكون بذلك عاملا لدعم الاخاء الاسلامى بمختلف الوسائل كما يشير الى ذلك رب العزة ويوجه اليه بقوله ﴿ **والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض** ﴾ اى ومن حق هذا الولاء التجافى عن كل مبدأ او نعرة تفصل المؤمن عن أخيه وتجعله بعيدا عنه بولائه له كيفما كان لونه أو جنسه أو حسبه أو نسبه أو وضعه وفى أى بقعة يستقر به المقام فيها ٠

إن المسلمين الذين يبلغ تعدادهم أكثر من ستمائة مليون نسمة فرق بينهم أعداء الاسلام بألوان من التفرقة فأيقظوا فيهم النعرات الجاهلية وبعثوا العصبيات القومية والحزبية وأماتوا فيهم الحماس للاسلام ووحدة العقيدة ٠٠ فأضحى الأخ لا يعنى بشأن أخيه التهمته المحن ام فجعته الفواجع وصروف الليالى ، وأوضح برهان على ذلك مانزل بالمسلمين فى فلسطين والهزيمة المنكرة التى كانت وصمة للمسلمين جميعا قاصيهم ودانيهم لا تخص العرب وحدهم ، ومع ذلك لم يعر المسلمون ذلك جانبا من اهتمامهم وكأن المحنة لا تعنيهم فى شيء ٠ لذا كان

هذا البلد كما اسلفنا القول من حقه التوعية للوحدة فى الآلام ، اذ يفرضها الاسلام وان من واجب المسلم نصرة اخيه قياما بالواجب نحو اخوة الاسلام كما قال رسول الهدى ﷺ : (أنصر أخاك ظالما أو مظلوما) ولا يتأتى ذلك الا بالتوعية وبذل الجهود المتتابعة لتوحيد الصفوف وجمع الكلمة وتضامن المسلمين ونبذ الفرقة والله الموفق •

فهرست الأعلام

[حرف الألف]

[حرف الباء]

[حرف التاء]

[حرف الثاء]

[حرف الجيم]

[حرف الحاء]

[حرف الخاء]

[حرف الدال]

[حرف الراء]

[حرف الزاى]

[حرف السين]

[حرف الشين]

[حرف الصاد]

[حرف الضاد]

[حرف العين]

[حرف الفاء]

[حرف القاف]

[حرف الكاف]

[حرف اللام]

[حرف الميم]

[حرف النون]

[حرف الهاء]

فهرست الموضوعات

الموضوع الصفحة